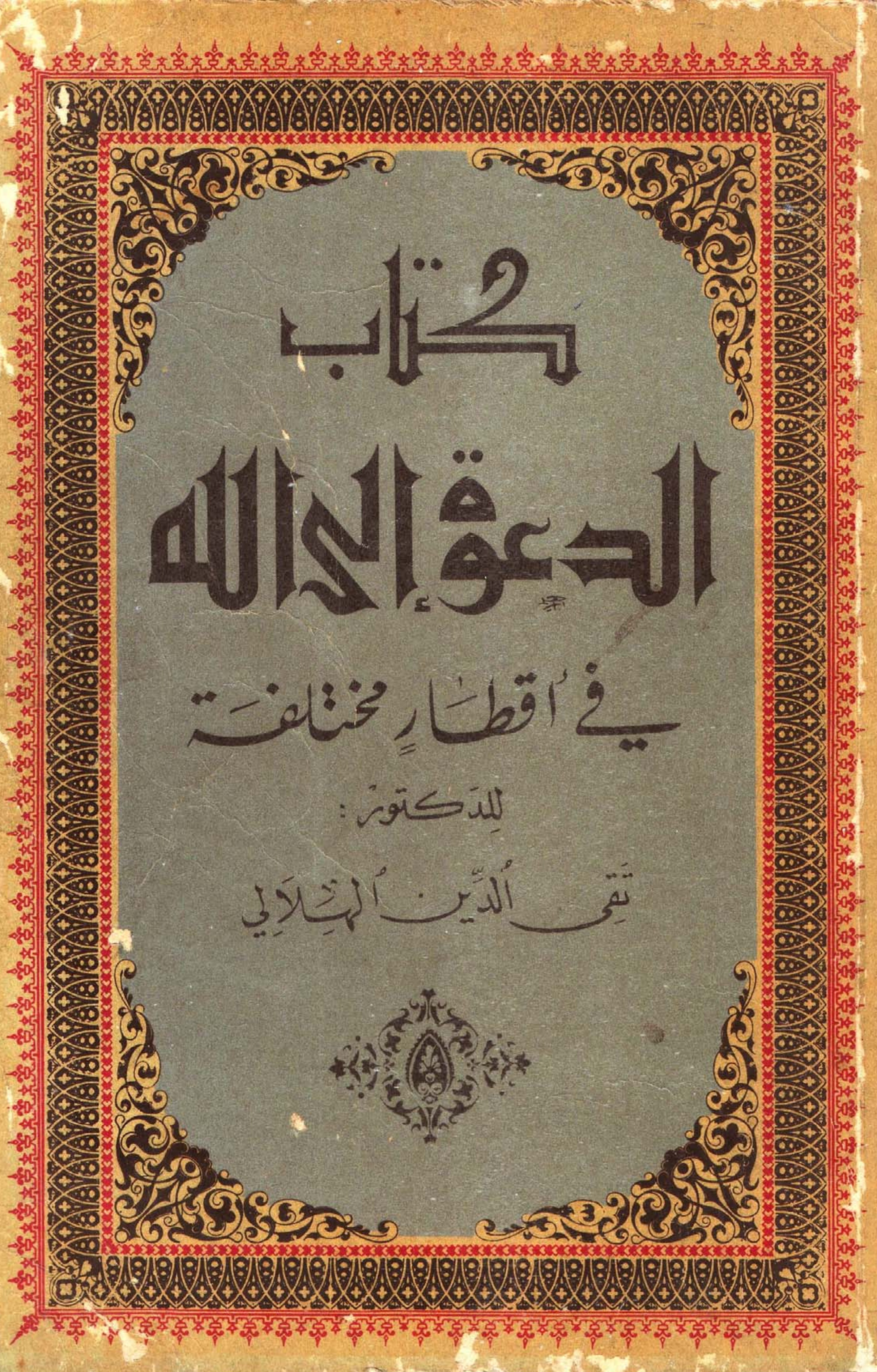

كتاب
الدعوة إلى الله
في أقطار مختلفة
للدكتور:
تقي الدين الهلالي

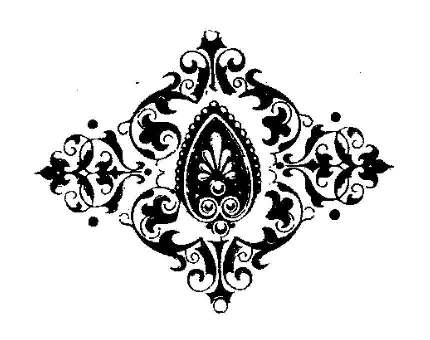
كتاب

الدعوة إلى الله

في أقطار مختلفة

للدكتور:

تقي الدين الهلالي



١) الدعوة الى اللّه في الاسكندرية

٢) الدعوة الى اللّه في الصعيد

٣) الدعوة الى اللّه في تطوان

٤) الدعوة الى اللّه في العراق

٥) الدعوة الى اللّه في الدورة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى جعل الدعوة اليه فرضا على كل من استطاع اليه سبيلا وأوعد باللعنة من كتم العلم واشترى به ثمنا قليلا. أشهد أنه الله الذى لا اله الا هو واتخذه وكيلا ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى فضله على خلقه تفضيلا. اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه الذين كانوا يدعون الى الله ويسبحونه بكرة وأصيلا .

أما بعد فيقول العبد الفقير الى الكبير المتعالى ، محمد تقى الدين بن عبد القادر الهلالى : سألنى خلق كثير من الاخوان فى المشرق والمغرب ، أخص بالذكر منهم الاخ الداعى الى الله على بصيرة الدكتور وجيها زين العابدين أن أؤلف كتابا يشتمل على سيرتى وما لقيته فى حياتى فى الحل والترحال ، وما جرى على فى رحلاتى الكثيرة من حوادث وأخبار ، وخاصة فى الدعوة الى الله فى أقطار مختلفة فى المشرق والمغرب ، وما صادفته فى ذلك من نجاح وضده ، وما جرى بينى وبين علماء تلك الاقطار من مباحثات ومحاورات . ولما رأيت ذكر ذلك كله بالتفصيل بل ذكر ما بقى فى ذاكرتى ولم يعفه النسيان يحتاج الى وقت طويل ، ونفقات كثيرة ، فى طبعه ونشره ، اقتصرت على ما يتعلق بالدعوة الى الله تعالى فى أقطار مختلفة من سنة 1340 الى 1391هـ للهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية ، على أمل أن أجد وقتا وتوفيقا من الله تعالى لتأليف كتاب فى أخبار الشطر الاخير الذى لا يتعلق بالدعوة كالحوادث السياسية والشدائد والمحن التى وقعت لى فى أسفارى . وستجد أيها القارىء فى أثناء هذا الكتاب قصائد كثيرة هجوت بها بعض المعارضين للدعوة الى توحيد الله

واتباع نبيه الكريم، وما أردت بذلك الا الانتصار للحق ولم أسم أحدا. وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت : (اهجهم وروح القدس معك) ولما أنشد عبد الله بن رواحة بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله ..

خلوا بنى الكفار عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله ويذهل الخليل عن خليله

قال له عمر : يا ابن رواحة بين يدى رسول الله وفى حرم الله تقول الشعر ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : خل عنه يا عمر فلهن أسرع فيهم من نضح النبل ، أخرجه الترمذى وصححه .

وقيل ان الذى أنشد ذلك الشعر هو كعب بن مالك ، راجع فتح البارى فى شرح أحاديث عمرة القضاء .

فأرجو أن أكون سالكا هذه السبيل فى هجو أولئك القوم ؛ والاعمال بالنيات ولا أدعى العصمة وأرجو الله أن يغفر لى كل خطأ وخطل فالجواد قد يكبو والسيف قد ينبو والكمال لله سبحانه .

فان تجد عيبا فسد الخللا فجل من لا عيب فيه وعلا

وأرجو أن ينفع الله بهذا الكتاب كل من قرأه أو أعان على نشره بقليل أو كثير من انصار السنة المحمدية وأما غيرهم من أعدائها فلا نبالى بهم وهم بلاشك منهزمون والى الخسران فى الدنيا والآخرة صائرون وحسبنا الله ونعم الوكيل وهو نعم المولى ونعم النصير فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم .

الدعوة الى الله فى الاسكندرية

أيها الداعى قدم مراد الله يقدم الله مرادك . ما من داع يدعو الى أمر بجد واخلاص الا ويحصل على شئ ما ، سواء أكان محقا أم مبطلا لكن المبطل عاقبته خسران عاجل أو آجل والمحق له العاقبة الحسنى فى العاجل والآجل « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض » ، كل من قرأ تاريخ الدعوات الباطلة من دعوات الخوارج والشيعة والباطنية وما تفرع منها يعلم يقينا صحة ما أشرت اليه أعلاه ، ولابد أن يكون الداعى - مع اخلاصه - عنده شئ من العلم بما يدعو اليه وشئ من العلم بقواعد الدعوة .

قد فصلت القول فى سبب خروجى من الطريقة التجانية ودخولى فى السلفية الحنيفية ملة ابراهيم وخير أبنائه محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى الاسلام الطاهر ، شرحت ذلك فى كتاب (الهدية الهادية الى الطائفة التجانية) وقد أمر صاحب السماحة الاستاذ الرئيس الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز أمتع الله المسلمين بطول بقائه بطبع عشرة آلاف نسخة من هذا الكتاب نسأل الله أن يجازيه خيرا وينفع بهذا الكتاب نفعا عظيما ، وبعدما خرجت من الطريقة التجانية ودخلت فى الطريقة الحننفية توجهت الى مصر ولقيت أمام الدعوة فى ذلك الزمان السيد محمد رشيد رضا رحمة الله عليه ولقيت أكثر الدعاة الى السلفية فى مصر كالشيخ محمد الرمالى بالقاهرة والشيخ حسن عبد الرحمن فى مزرعته بين دمنهور والاسكندرية والشيخ عبد الظاهر أبى السمح والشيخ محمد أبى زيد فى دمنهور والشيخ حامد الفقيه بالقاهرة والشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة بكفر عامر والشيخ الالمعى عبد العزيز الخولى بالقاهرة ، ولما وصلت الى الاسكندرية الى رملها بشاطئ بحرها لقيت أهل بيت (لا أقول أسرة ولا عائلة) من بلادنا سجلماسة بالمغرب الاقصى مستوطنين الاسكندرية ففرحوا بى فرحا عظيما لانهم يعرفون والدى وكان من علماء بلادنا

ويجلونه ، فأكرمونى لاجل ذلك ، ووجدتهم تجانيين (طوخ)يعنى غارقين فى الطريقة سكارى بنشوتها ، وكلمة طوخ فارسية فيما أظن ، تستعمل فى العراق بالمعنى المتقدم ، فقلت فى نفسى يجب علـى أن أنقذهم من هذه الطريقة كما أنقذنى الله منها ، ولكن خيل لى وأنا فى أوائل الشباب أننى اذا صرحت لهم بانتقاد الطريقة ينفرون ولا يقبلون الدعوة ، فأردت أن أخادعهم فأظهرت لهم أنى لا أزال تجانيا ، وأخذت أتلطف معهم فى انتقاد بعض الامور كالاجتماع لذكر الوظيفة جماعة بلسان واحد ، فجاء رجل مصرى من تجانيى الاسكندرية وقال لهم : يا اخواننا (أنا الراجل ده بعينى شفته يخش ويخرج فى مسكد الوهابية بالرمل ، والوهابية ما بيخلوا حد يخش فى مسكدهم الا اذا كان منهم) معناه بعينى رأيت هذا الرجل يعنى كاتب المقال يدخل ويخرج فى مسجد الوهابية برمل الاسكندرية ومن عادة الوهابيين أنهم لا يتركون أحدا يدخل مسجدهم الا اذا كان منهم ويعنى بالمسجد مسجد أبى هاشم المهندس رحمة الله عليه وكان قد خصص جزءا من أرضه وبنى فيه مسجدا صغيرا للشيخ عبد الظاهر أبـى السمح وجماعة السلفيين بالرمل وسبب اقامتى فى هذا المسجد مدة شهرين ما يتلـــو .

امتحان الدعاة الى الله

اعلم ان الدعاة الى الله يمتحنون على قدر ايمانهم وصبرهم وتجلدهم ومنهم الشيخ عبد الظاهر أبو السمح رحمه الله فانه كان يدعو الى الله برمل الاسكندرية وقد أنكر دعوته جميع من ينتسب الى العلم فى رمل الاسكندرية وفى الاسكندرية نفسها ، وكان معلما لبنات محمود باشا الديب بالدال المهملة كماينطق به فى العامية المصرية ويدعو الى الله بالقاء الدروس فى المسجد المذكور وصلاة الجمعة والجماعة لوجه الله فمنع من ذلك فدعانى لان أنوب عنه وعما قليل يأتيك سبب المنع أى بعد أن أتم قصتى مع المغاربة ، فلما سمع المغاربة من ذلك الرجل المصرى التجانى ذلك الكلام غضبوا عليه غضبة مغربية فقالوا له انكم معشر المصريين عودتمونا سماع مـا نكره فى كل عزيز لدينا فلا يطيب لكم عيش الا اذا أسأتم الينا نحن نعرف هذا الشاب وأباه وأمه وأهل بيته وهو لم يقدم من المغرب الا منذ وقت قصير ونحن فى المغرب ليس عندنا وهابيون فمن أين تعلم

الوهابية . وصاحوا عليه صياحا منكرا وكان الرجل داهية فلم يغضب بل قابل غضبهم بحلم وسعة صدر وقال لهم يا اخواننا يا مغاربة ما تزعلوش المسألة بسيطة عندنا الشيخ محمد بن مبارك السوسى ولا تشكون فى علمه وفضله وأنه أكبر عالم تجانى فى مصر نكتب له ونسأله عن الشاب ده اذا قال هو تجانى صحيح أنا أجى وأبوس روسكم وركليكم كمان وأطلب منكم المسامحة واذا قال غير ذلك تعرفوا أن الحق عليكم) معناه ان الشيخ محمد بن مبارك المغربى هو شيخنا فى الطريقة التجانية وهو يعرف ضيفكم هذا فهلم نتحاكم اليه فان حكم بأن محمد تقى الدين الهلالى ضيفكم العزيز هو تجانى حقا اعتذرنا اليكم وقبلنا رؤوسكم وأرجلكم وكان المغاربة قد هددوا المصريين بأنهم يفترقون معهم ويتخذون زاوية خاصة لانفسهم وأكون أنا مقدمهم ففرحت أنا بهذا السراب الذى خيل لى أنه شراب ولكن الرجل المصرى بدهائه أحبط عملى ومن ذلك الحين علمت يقينا أننى أخفقت فى مسعاى لان الشيخ السوسى المذكور يعلم يقينا أننى من المنتقدين للطريقة التجانية وسبب ذلك أن أخص مريديه وهو محمد الدادسى كان يغسل رأسى فى بيته بالقاهرة فقال لى هنيئا لكم معشر أهل البيت فان الجنة مضمونة لكم على أى حال كنتم فقلت ومن ضمنها لنا ، قال ألم تطلع على ما ذكره الشيخ الاكبر ابن عربى الحاتمى فى تفسير قوله تعالى (انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) فقلت وماذا قال فقال ، قال الشيخ الاكبر ان أبناء فاطمة خلقهم الله طاهرين طهارة عينية فلا تصدر منهم المعاصى البتة وكل ما نراه فى الظاهر من صدور المعاصى منهم يجب أن نكذب أعيننا ونصدق الله تعالى فقلت وهل ابن عربى معصوم من الخطأ فقال لى ان سيدنا الشيخ التجانى نقل عنه ذلك وصدقه ، فقلت وهل الشيخ التجانى معصوم من الخطأ فأصابه حزن عظيم ظهر فى وجهه واختصر غسل رأسى وسكت على مضمض فعلمت أنه لابد أن يوصل ذلك الى الى شيخه ، وغبت عن الاسكندرية أياما ثم رجعت لاجس النبض وليس لى الا أمل ضئيل فكظم المغاربة ما فى أنفسهم ولم يظهروا لى شيئا ودعينا الى العشاء عند بعض التجانيين عند المغاربة الآخرين فجرى ذكر الملك حسين بن على ملك مكة فانتقدت أنا تحالفه مع الانكليز والفرنسيين وادخال جيوشهم الى قرب الحرم المكى ، فانفجر أحد التجانيين غيظا وقال صدق من قال : مثل العالم الذى

لا يعمل بعلمه كجلد كلب ملء عسلا ، يعنى ان الملك حسينا وهو من أهل البيت لا يصدر عنه الا الطاعات فانتقادى له جهل وسفاهة لان فيه انكار على شيخ الطريقة وسكت أصحابى ولم يدافعوا عنى ، فلما خرجنا جذبنى أحد المغاربة من التجانيين المعتدلين وقال لى ألم يبلغك ما أجاب به الشيخ السوسى فقلت لا : أفدنى يرحمك الله، فقال انه أجاب التجانيين فقال فى جوابه ان محمدا تقى الدين الهلالى من آل البيت وقد أوصانا سيدنا رضى الله عنه يعنى التجانى باكرام أهل البيت فأكرموه ولا تأخذوا عنه شيئا من أمور الدين فعلمت أن القضية قد انتهت بالاخفاق كما كنت أتوقع وعقدت العزم على أن لا أداهن ولا أداجى فى دين الله ما دمت حيا بل أقول الحق من أول وهلة ، للربح أو للخسارة ، وما لقيت الا الربح الى حد الآن وسيأتيك الدليل فلا تعجل .

سبب منع أبى السمح من الصلاة والوعظ فى مسجد أبى هاشم برمل الاسكندرية

تقدم أن المنتسبين الى العلم فى مدينة الاسكندرية ورملها أنكروا على الشيخ أبى السمح دعوته الى السلفية وسموها وهابية وكادوا له كيدا عظيما واتهموه بتهم هائلة فى ذلك الزمان منها أنه يقول ان العصا خير من النبى صلى الله عليه وسلم لان العصا تنفع فى الدنيا والنبى صلى الله عليه وسلم لا ينفع لا يشفى مريضا من مرضه ولا يغنى فقيرا من فقره ولا ينقذ عانيا من سجنه ولا يغيث من استغاث به وهذا عند عباد القبور طعن عظيم فى مقام النبوة ومنها أنه صلى صلاة الجمعة فى أحد المساجد ووجد العلمين منتصبين عن يمين المنبر وشماله فألقاهما على الارض وقال : (ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون) ومنها أنه يدعو الى مذهب خامس ولا يؤمن بالمذاهب الاربعة ومنها أنه أحدث فتنة فى رمل الاسكندرية ففرق بين الاخ وأخيه والاب وابنه والقريب وقريبه وكتبوا بذلك الى محافظ الاسكندرية كتابا يطلبون منه أن يمنعه من هذه الدعوة التى يعدونها من أعظم الفساد ، وفى الوقت نفسه دبروا له مكيدة أخرى ، فدعوه الى المناظرة فى أحد المساجد وأحضروا رجلا من العوام وقالوا له أحضر معك عصا واذا أشرنا اليك فاضربه ، فلما حمى وطيس

الجدل بينهم وبينه فى مسألة الاستغاثة بالنبى صلى الله عليه وسلم وألجأوه أن يقول ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعا ولا ضرا وانما هو بشير ونذير أشاروا الى الرجل فضربه فى المسجد وبعد قليل جاء أمر محافظ الاسكندرية بمنعه من الصلاة والوعظ وسد المسجد فأرسل الى يدعونى دعوة عاجلة فحضرت فى الليلة التى فى غدها يسد المسجد ففتحته وأخذت أصلى فيه وأعظ الاخوان السلفيين فجاءت الشرطة ليسدوا المسجد فوجدونى فقالوا من أنت ، أنت أبو السمح ، قلت أنا محمد تقى الدين بن عبد القادر الهلالى المغربى فتوقفوا ورجعوا الى المحافظ وأخبروه ، واختفى أبو السمح فصار لا يأتى المسجد أصلا فأمرهم المحافظ أن يتركوا المسجد ولا يسدوه فاشتد غيظ أعداء السلفية من المنتسبين الى العلم وأعوانهم ، فكتبوا فى هذه المرة الى الملك فؤاد ، وكان ذلك سنة احدى وأربعين وثلاثمائة وألف وقالوا للمك مثل ما قالوا للمحافظ قبل وزادوا على ذلك أنه ثبت صدق اتهامهم لابى السمح عند محافظ الاسكندرية فأمر بطرده وسد المسجد ، فأتى بمغربى له حماية فرنسية فناب عنه فى المسجد فلم ينفذ ما أمر به المحافظ، فبعث الملك بشكواهم الى محافظ الاسكندرية نفسه ، فلما قرأها غضب عليهم غضبا شديدا لامرين ، أحدهما أنهم لم يكتفوا به فتخطوه وكتبوا الى الملك ، والثانى أن طعنهم فى عمل هذا المغربى يفتح بابا على الحكومة المصرية من النزاع مع دولة تتمتع بالامتيازات الأجنبية ، والمطلعون على تاريخ مصر يعرفون معنى هذه الكلمة ، فان مقتضى الامتيازات الاجنبية يقضى على الحكومة المصرية وكل حكومة تنكب بمثل هذه النكبة أن ترد كل نزاع يقع بينها وبين أى شخص من رعايا الدولة صاحبة الامتياز الى سفارة هذه الدولة فتحكم السفارة بدون شك على المصرى بأنه هو الظالم وتطلب من الحكومة المصرية أن تنزل به أشد العقاب وعليه أن يتحمل ويصبر على ظلمين ، الظلم الاول من الشخص التابع للسفارة الاجنبية ، والظلم الثانى من السفارة نفسها ، ولذلك لا يحب أى مصرى كيف ما كانت منزلته أن يدخل فى نزاع مع أى سفارة ، من أجل ذلك دعا المحافظ الموقعين على العريضة المرفوعة الى الملك فأدخلوا عليه واحدا بعد واحد وأخذ يسألهم ، فقال للاول هذا توقيعك ؟ فقال نعم قال وقع مرة أخرى فوقع ثم أخرج الى مكان لا يرى فيه أحدا من أصحابه ، وهكذا فعل بالثانى والثالث الى

آخرهم ثم جمعهم وعبس وبسر عليهم وقال لهم كتبتم الى تزعمون أن الشيخ عبد الظاهر آبا السمح وهابى وأنه فعل كيت وكيت فصدقتكم وأمرت بمنعه من الصلاة والوعظ ولـم يكفكم ذلك حتى تخطيتمونـى وارتقيتم مرتقا صعبا فكتبتم الى الملك تعرضون مزاعمكم عليه وقلتم فى عريضتكم انكم تخافون أن تحدث فتنة فى رمل الاسكندرية تسفك فيها الدماء فلله دركم من حفظة ساهرين على الامن فهل المحافظة على الامن من اختصاصكم ومن وكل اليكم ذلك ؟ بعضكم امام مسجد وبعضكم مأذون فى المحكمة وبعضكم مدرس واعظ أو خطيب فكيف ارتقيتم حتى صرتم تحافظون على الامن العام وهذا شغلى أنا وشغل أعوانى من الشـرط والحـرس أفأردتـم أن تساعدونـى ، أنتـم أصحـاب الفتنـة ودعاتها الموقدون لنارها ولم يبق عندى شك فى أنكم مفسدون قلتم ان المصرى وهابى فهل المغربى أيضا وهابى ؟ فقالوا أى والله يا سعادة المحافظ هذا وهابى (زيه تمام) فقال اسمعوا ما أقوله لكم أنتم تستحقون العقاب ولكنى أعفو عنكم فى هذه المرة وكل فتنة تقع فى المستقبل فى الاسكندرية أو رملها من هـذا القبيل فأنتم المسؤولون عنها ، أغربـوا عنى لانعم عوفكـم ولا أمـن خوفكم ، فانطلقوا يتعثرون فى أذيال الخيبة وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون وكفـى الله المؤمنين القتال . ولما سمع بذلك الشيخ أبو السمح صار يحضر صلاة الجمعة ويصلى معنا مأموما وبعد انقضاء شهرين على هذه الحادثة أمن أبو السمح وتجرأ فصلى بنا الجمعة اماما فاستأذنته أنا فى اتمام السياحة فى البلاد المصرية ورجعت الى القاهرة وقد نفد ما عندى من الدراهم لان التجانيين بعدما وصلت الى القاهرة بعثوا الى حوالة فقبضتها وقلت فى نفسى اننى قصرت فى عدم اعلان خروجى من الطريقة وأنا بين ظهرانيهم ولم أدع الا أربعة انفس سرا وقبلت مساعدتهم عند السفر وها أنذا أقبل مساعدتهم بعد السفر فان بقيت على هـذه الحال فأى فرق بينى وبين شيخ الطريقة فكتبت اليهم رسالة فى أربع صفحات وجعلت منها أربعة نسـخ بعثت كـل نسخة منها الى أحـد رؤسائهم فحرقـوا الارم غيظا على ولم يجبنى الا أحدهم بينى وبينه مصاهرة فقال لى فى جوابه لقد قرأت ما كتبت والقلوب بيد الله يصرفها كيف يشاء ولئن كتبت الى بعد هذا ولو حرفا فى الطعن فى الطريقة التجانية لن أجيبك أبدا وتتحمل أنت وحدك اثم قطع الرحم ، ولـما نفد ما عندى مـن الدراهم جاءنـى الشيخ محمـد الخرشى

الشنقيطي رحمه الله سواء أكان حيا أو ميتا فأعطاني ريالين مصريين وكان من المتخرجين في الجامع الازهر وله راتب من أوقاف الطلبةالمغاربة قدره جنيهان مشاهرة وعشرة أرغفة مياومة وهو من الستينيين وكان الطلبة المغاربة في ذلك الزمان ثلاثة أقسام ، ستينيين ، وعشرينيين ومنتظرين فالستينيون عددهم ستون رجلا يأخذون راتبا مثل ما تقدم ، والعشرينيون عددهم عشرون رجلا يأخذون راتبا قدره نصف جنيه مشاهرة وخمسة أرغفة مياومة ، والمنتظرون يعدون بالمئات لا يأخذون الا رغيفين في كل يوم وكانت الحرب قائمة على الدوام بين الستينيين والمنتظرين ، والعشرينيون على الحياد وذات يوم هجم ثلاثة من المنتظرين على شيخ رواق المغاربة بعد السلام من صلاة الجمعة في الازهر فطعنوه بالخناجر حتى مات فهرب الناس من المسجد لا يلوون على شيء وركب بعضهم بعضا حتى مات بعض الضعفاء من الزحام ، وأظن أن الاخ القارئ يعرف طبعي في الاستطراد ، فأنا لا أحول عنه ولا أزول ، كما قال المتنبي : « لكل امرئ من دهره ماتعودا » .

فقال لي الشيخ محمد الخراش لا تقعد هنا مقيما على معيشة ضنك كالوتد ألم تسمع قول الشاعر :

ولا يقيم على خسف يراد به ... الا الأذلان غير الحي والوتد
هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فلا يرثي له أحد

معنى البيتين لا يرضى أحد أن يقيم على ذل الا الاذلان الحمار الاهلي والوتد الذي تضرب به الخيمة وتثبت فالحمار الاهلي مربوط بحبل لا يستطيع الفرار مع أنه يضيق عليه في العلف ويحمل من الاحمال ما لا يطيقه وعلاوة على ذلك يضرب بالعصي وينخس بالمنخاس وهوحاد كالابرة والوتد يضرب على رأسه ليدخل في الارض كلما أريد نصب الخيمة ولا يستطيع أن ينجو بنفسه ، فقلت له مكره أخاك لا بطل وماذا عسيت ان أفعل وأنا هنا غريب فمالي الا الصبر الجميل ، فقال لي كل طلبة العلم الغرباء في مصر بدون استثناء وما أكثرهم يخرجون الى الفلاحين ويلقون دروس الوعظ في المساجد فلا يكاد الفلاحون يرونهم حتى يغمروهم بالاكرام بالدراهم والثياب والزاد دون أن يحوجوهم الى تذلل أو سؤال فان الفلاح المصري يضرب به المثل في الكرم وهذه عادتنا كلنا منذ حللنا هذه الديار فشكرته على هديته ونصيحته وعزمت على الخروج الى الصعيد وهو

الذى بقى لى لم أره فان الوجه البحرى وهو ناحية الشمال فى مصر قد رأيته من القاهرة الى آخر رمل الاسكندرية وبقى لى الوجه القبلى وهو ناحية الجنوب فتوكلت على الله وسافرت بالقطار الى مدينة ملاوى فكنت أسمع بالشيخ عبد الظاهر الريرمونى أنه من دعاة السلفية فسألت عنه فوجدته ونزلت عند مغربى يسمى الشيخ ابراهيم الدادسى وهو طبيب عيون يقدح العيون على طريقة الطب الاسلامى القديم بميل من حديد بدون تخدير فيخرج البياض من العين ثم يعالج الجرح بالادوية الى أن تشفى العين التى كانت عمياء لا تبصر شيئا ويعود اليها نورها باذن خالقها ، وهذه الطريقة لا تزال مستعملة الى يومنا هذا فى بعض القرى النائية عن المدن فى بلاد المغرب وغيرها فوجدت الشيخ عبد الظاهر الريرمونى وفرح بى وأظهر السرور وأكثر الترحيب واعتذر لى عن دعوته اياى الى قريته الريرمون ، فقال أيها الاخ العزيز ان ضيافتك واجبة على ولكن قريتى تبعد عن هذه المدينة بقدر نصف ساعة للراكب على الحمار الفارة وأنا لا أشتغل فى الغيط يعنى فى المزرعة وكل أهل القرية يخرجون الى غيطانهم صباحا ويرجعون مساء وأنا أرجع كل يوم الى هذه المدينة أمكث فيها من الصباح الى المساء فان دعوتك الى القرية فاما أن تبقى وحدك أو تتكلف المجىء كل يوم معى صباحا وترجع مساء وفى ذلك من المشقة عليك ما لا يخفى فشكرته على ذلك ورأيت عذره قائما وأقمت عند الشيخ ابراهيم الدادسى بمدينة ملوى من مديرية أسيوط من بلاد الصعيد أربعة أيام ثم عزمت على التوجه الى قصبة المديرية وقاعدتها وهى مدينة أسيوط وكنت أجتمع بالشيخ عبد الظاهر الريرمونى كل يوم ونتذاكر مسائل العلم وفى صباح يوم الخميس استعددت للسفر بالقطار الى أسيوط فبينما أنا على ذلك اذا براكبين على حمارين قد أقبلا ونزلا وسلما على الشيخ ابراهيم الطبيب وقالا له أين الاستاذ المغربى الذى بلغنا أنه عندك فقال لهما وأشار الى هذا هو يريد أن يسافر الى أسيوط الآن فقال أحدهما وهو الشيخ عبد العليم رحمة الله عليه أيها الاستاذ ان اخوانك السلفيين فى الريرمون يقرؤونك السلام ويلتمسون أن تتفضل عليهم بالزيارة ولو ليوم واحد فان استاذنا الشيخ عبد الظاهر أخبرنا منذ أربعة أيام بقدومك فالتمسنا منه أن يدعوك الى قريتنا فقال انك مستعجل تريد السفر الى أسيوط ولا تستطيع أن تزورنا فقلنا له ولا يوما واحدا فقال ولا يوما

واحدا وكررنا عليه الطلب فى اليوم الثانى والثالث حتى يئسنا منه فأرسلنا اخوانك لندعوك اليهم لما علموا أنك عزمت على السفر الى أسيوط وقالوا لنا ان وجدتموه سافر فسافرا الى أسيوط وأبلغاه دعوتنا واعلم أيها الاستاذ المحترم أننا معشر السلفيين فى قرية الريرمون لا يزيد عددنا على مائة بيت وقد اشتدت العداوة بيننا وبين قومنا المبتدعين عباد الاضرحة وشيوخ التصوف حتى انتقلت العداوة من أمور الدين الى أمور الدنيا ، وشيخ البلاد منهم ، والعمدة معهم ونحن محاربون لاجل عقيدتنا ، فنرجو أن يهدى الله بك اخواننا ويجمع شملنا على كلمة التوحيد واتباع سنة النبى صلى الله عليه وسلم فلا تخيب رجاءنا فقلت لهما أيها الاخوان العزيزان لستما فـى حاجة الى كل هذا الالحاح فاننى نذرت لله أن أدعو الى توحيده وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم حيثما كنت وهذا أهم غرض لى فى الحياة .

الدعوة الى الله فى الصعيد

فركبت أحد الحمارين وتوجهت الى الريرمون مع الشيخ عبد العليم فلما وصلت نزلت فى مندرة أى مضيف الشيخ اسماعيل الصيفى رحمة الله عليه واجتمع الاخوان السلفيون واحتفلوا بى كأنى أحد الامراء ولم يكن عندى من الكتب الا مجموعة الرسائل التى نشرها عيسى بن رميح رحمه الله وهى رسائل فى التوحيد فبدأت الدعوة بعد صلاة المغرب فى المندرة المذكورة واجتمع أهل القرية كلهم تقريبا فلم تسعهم المندرة فجلسوا فى الشارع وكان فى مقدمتهم شيخ البلاد الشيخ يوسف رحمة الله عليه فأخذ يلقى على أسئلة فى التوسل بالاولياء وشد الرحال الى زيارة قبور الصالحين والذبح والنذر وأوراد الطريقة والاستمداد من الشيوخ والاستغاثة بالنبى صلى الله عليه وسلم وما الى ذلك وأنا أجيبه بحلم وأناة وصبر وهبنيه الله لم أعهده فى نفسى قبل ذلك .

اذا اصطفاك لامر هيأتك لـه   يـد العناية حتى تبلـغ الاملا

وحضر هذا الدرس أستاذ الجماعة الشيخ عبد الظاهر الريرمونى فأخذ يبحث عن عثراتى فى النحو والصرف واللغة ويلقى على أسئلة بقصد الزراية واظهار نقصى فقابلت بتوفيق من الله كل ذلك بأدب وحلم كما يفعل التلميذ المتأدب مع أستاذه وصرت اذا أجبته عن سؤال فلم يقبل جوابى أسلم له وأقول له تفضل يا حضرة الاستاذ وأفدنا فى هذه المسألة بما علمك الله فصبر الجماعة لهذه المقاطعات على مضض ثم عيل صبرهم فقال الشيخ اسماعيل صاحب البيت يا شيخ عبد الظاهر هذه المسألة اللغوية التى تقطع بها على الاستاذ المغربى كلامه لا فائدة لنا فيها دعها الى الوقت المناسب لها ، ثم أنطلق فى الوعظ شوطا أو شوطين ، واذا بالشيخ عبد الظاهر يعود الى أسئلته فأعود أنا الى التسليم والادب فيزداد المستمعون غيظا ويعيدون عليه قولهم ، واستمر الامر على ذلك ثلاث ليالى ولم ينته عما نهوه عنه فخشنوا له القول وانتهروه فقال لهم هذا ضيفى أصنع به ما أشاء ويحق لى لو شئت أن أقول له ان أيام الضيافة ثلاثة وقد انقضت

فتفضل فارحل لقلت له ذلك ، فقال له أحدهم وأظنه الشيخ اسماعيل (ايه ده يا خوى أنت ما تقدرش تقوله كده ده ما هو ضيفك ده ضيفنا حنا احنا دعوناه واحنا كبناه بعدما ترجيناك أنت تدعوه ويئسنا منك) معناه ما هذا يا أخى انه ليس ضيفك وانما هو ضيفنا نحن ولا تستطيع أن تقول له ارحل فعند ذلك غضب الشيخ عبد الظاهر ولم يعد يحضر دروس الوعظ والدعوة .

السر الخفى

كأنى بك أيها القارىء قد تلجلج فى صدرك سؤال تريد الاجابة عنه وهو لماذا امتنع الشيخ عبد الظاهر من دعوتك ولماذا صار يعكر عليك درسك وفى النهاية يريد أن يطردك ؟ الجواب ، اذا ظهر السبب زال العجب اعلم يا أخى ان الشيخ عبد الظاهر كان قد خط لنفسه خطة فى الدعوة وهى أنه كان يفرض على كل واحد من السلفيين فى الريرمون أن يبايعه بيعة تشبه فى بعض نواحيها بيعة المريد المتصوف لشيخ الطريقة وكانت شروط هذه البيعة شديدة الى حد أنه لو وقع من أحد الاخوان شىء طفيف مما يخالف ما يريده الشيخ عبد الظاهر، يغضب عليه ويقول له انتقضت بيعتك فتب الى الله وبايعنى من جديد فلا يسعه الا أن يتوب ويبايع من جديد والا طرده الشيخ وأخرجه من حضيرة الاخوان ومن أمثلة ذلك أن بعضهم كان عنده ضيف فصب القهوة وبدأ بالضيف قبل الشيخ فغضب عليه وأمره بتجديد البيعة ، ومن ذلك أن الشيخ عبد الظاهر كان قد بلغ من العمر خمسا وثلاثين سنة ولم يتزوج فعتب عليه بعض الجماعة وقالوا له أنت أستاذنا وامامنا فلا ينبغى لك أن تبقى عزبا وأنت تعلم ما فرض الله على مستطيعى الباءة فقال لهم أنا فقير لا يرضى أحد أن يزوجنى ابنته ، فقال أحدهم أنا أزوجك ابنتى فسكت الشيخ ومضى على ذلك سنتان فجاء خاطب فخطب الفتاة فوعده أبوها خيرا ، فلما سمع بذلك الشيخ غضب عليه غضبا شديدا وقال له انتقضت بيعتك فتب الى الله واعدل عن تزويج الفتاة بذلك الخاطب فقد وعدتنى بها منذ سنتين فكيف تزوجها شخصا آخر فقال أيها الاستاذ حقا عرضت عليك ابنتى فلم تجبنى ببنت شفة ومضى على ذلك سنتان فلم يبق عندى شك أنه لا أرب لك فيها فقال الشيخ كان الواجب يقضى عليك حين جاءك الخاطب أن تأتينى وتسألنى عن رأيى فى التزوج بها فاما أن أتزوج

واما أن أرخص لك فى تزويجها فاختلف الاخوان السلفيون فى هذه القضية فبعضهم صوب رأى الشيخ وبعضهم صوب رأى أبى الفتاة واشتد نزاعهم وكان كثير من الاخوان يشكون فى البيعة ويظنون أنها غير مشروعة وليست من السنة فى شيء لانهم لم يروا أحدا من الدعاة الى السلفية فرضها عليهم قبل هذا الشيخ فهاتان مسألتان معضلتان تحتاجان الى أبى حسن يكشف عنهما ظلام الاشكال ويبين حكم الله فيهما ، ولما رآنى الشيخ عبد الظاهر فى مدينة ملوى ، خاف أن اتصل باخواننا فيسألونى عن القضيتين فأجيب بخلاف رأيه فلذلك فعل ما فعل ليحول بينى وبينهم ولم يدر أنه لا حيلة تنفع فى رد المقدور فوقع ما خافه ولذلك أخذ يعاكسنى فى دروس الوعظ وحاول أن يطردنى .

عودة الى دروس الوعظ

استمرت فى القاء الدروس كل مساء فى مندرة الشيخ اسماعيل الصيفى ونسيت ان أقول ان الشيخ عبد الظاهر الريرمونى رحمه الله بلغ فى المعارضة والمعاكسة الى أن خالفنى فى أمر لم يزل يقرره ويدعو اليه وهو منع شد الرحال الى زيارة قبور الصالحين فقال له اخوانه يا لله العجب أنت بنفسك لم تزل تقرر المنع فقال تغير رأيى وهل أنا معصوم ومن طباع المصريين المحمودة وما أكثرها أن المرؤوس اذا ظهر له الحق لا يفكر فى مذهب الرئيس واعتقاده بل يتلقى الحق بالقبول وان خالف رئيسه ولذلك كان الناس فـى أثناء الوعظ يتوبون الى الله ويعلنون توبتهم من الشرك والبدعة ففى كل ليلة يتوب اثنان أو ثلاثة وفى الليلة السادسة أو السابعة قام شيخ البلد فأعلن توبته وقال أيها الشيخ المغربى انك لم تاتنا بشيء جديد فكل هذه المسائل التى دعوتنا اليها سبقـك اليها الشيخ على التونـى والشيخ عبد الظاهر الريرمونى وفلان وفلان ولكـن الفرق بين دعوتك ودعوتهم أننا اذا جادلناك تصبر على جدالنا وتجيبنا بلطف ولين حتى نقتنع وننتقل الى مسألة أخرى ثم أخرى الى أن يزول ما عندنا مـن الاشكال وأما الدعاة الذين تصدوا للدعوة قبلك فقد كان لهم أسلوب آخر متى جادلناهم وعرضنا عليهم شبهاتنا قالوا لنا كفرتم فنقول لهم وأنتم أكفر ونفترق على اقبح ما يكون ، ثم التفت الى الشيخ اسماعيل الصيفى صاحب البيت وقال له يا شيخ اسماعيل جزاك الله خيرا على دعوة هذا الاستاذ المغربى الذى هدانا

الله الى الحق بسببه ولك الفضل والحق ان تكون الدروس فى مندرتك وأن يكون الاستاذ المغربى ضيفك ولكنى أطلب من فضلك أن تسمح لى بأن يكون هـذا الاستاذ أسبوعا عندك وأسبوعا عندى هذا فى الدروس الخاصة التى تلقى فى المنادر وأنا أطلب من الاستاذ المغربى أن يلقى لنا درسا فى المسجد الجامع يوميا وأن يصلى بنا الجمعة ما دام مقيما عندنا فقال الشيخ اسماعيل انى أقبل هـذا الاقتراح بكل سرور ، فانتقلت الى مضيف شيخ البلد واستمررت على القاء الدروس وأضفت اليها درسا بعد العصر فى المسجد الاعظم واعتذرت الى الشيخ يوسف عن قبول ما عرضه على من صلاة الجمعة اماما وقلت له اننى لا أحب الدعاء للملك فؤاد فى كل خطبة ولا أريد أن أكون سببا فى شر يصيبكم فحسبى أن ألقى الدروس ، فقال رحمه الله أيهما صواب ، الدعاء للملك فى كل خطبة جمعة أم تركه على ما جاءت به سنة النبى صلى الله عليه وسلم فقلت له أنا أرى تركه هو الصواب فقال (أيه ده يا خوى) نحن نعبد الله أو نعبد فؤادا ؟ اذا رأيت الملك فـؤادا أمامك فى الصف الاول فـلا تبال به أنا المسؤول صل كما أمرك الله واخطب كما أمرك الله ، وبعد توبة الشيخ يوسف تاب أهل البلد عن بكرة أبيهم الا بيتين ، أحدهما بيت شيخ الطريقة والثانى بيت العمدة الموفوت ، والمرفوت عندهم هو المعزول وخدامهما وبعدما كان السلفيون ممنوعين من جميع المساجد لانهم وهابيون أهل مذهب خامس تصافح أهل القرية كلهم وزال كلما كان بينهم من العداوة فى الدين والدنيا وانتقلت العزلة التى كانت ملازمة لهم الى شيخ الطريقة والعمدة المرفوت وخدامهما فأخذوا يصلون منعزلين فى زاوية فى وسطها قبر عليه تابوت كانوا يعبدونه وبلغت العداوة بين الفريقين الى أن صار يتهم بعضهم بعضا باحراق الزروع فى البيادر واتهم المبتدعـون السلفيين باحراق تابوت ذلك الضريح الذى كانوا يعبدونه والحقيقة أن امرأة أوقـدت شمعـة تتقرب بها الى صاحب الضريـح وجعلتها عـلى التابوت فلما انقضت الشمعة وصلت النار الى التابوت فأحرقت بعضه وكأنى بعابد القبـر يقول يا هذا لقد أسرفت فى القول فهل يعبد مسلم يشهد أن لا اله الا الله وأن محمدا رسول الله قبرا ؟ فأقول فـى الجواب يمكنك أن تغالط بهذا الكلام غيرى أما أنا فلا تستطيع أن تغالطنى لاننى أنا بنفسى كنت أعبد القبور فهدانى الله الى توحيده وهدى بى خلقا كثيرا ولله الحمد وأزيدك على ذلك ما يخرسك ويلقمك حجرا أن الجهال فى هذا الزمان من أهل البلاد الاسلامية وما أكثرهم

يعبدون القبور والانصاب بل والاشجار ويعبدون كل شيء حتى الحمير ودونك البرهان القاطـــع .

أما عبادة الاضرحة فأمر متواتر مشاهد بالعيان فى أكثر البلدان المنتسب أهلها الى الاسلام كما هو فى بلاد النصارى وهؤلاء يزيدون التماثيل .

وأما عبادة الاشجار فقد حدثت من عهد بعيد فقد ذكر ابن أبى شامه فى كتاب البدع له أن شجرة كانت تعبد فى دمشق فى زمانه وأما فى هذا الزمان فحدث عن البحر ولا حرج فقد شاهدت شجرة عظيمـة وافرة الاغصان تعبـد فى مصر وأخبرنى الشيخ محمد بن عبد الرزاق حمزة أنه هم بقطعها وأخذ فأسا واشتغل طول الليل الى أن كاد الفجر يطلع فلم يستطيع أن يقطع الا جـــزءا يسيرا من أغصانها فجاء عبادها فى الصباح بالنذور فوجدوا بعضها مقطوعـــا فغضبوا غضب العابد لمعبوده واتهموا الشيخ المذكور ورفعوا شكوى الى العمدة فطالبهم بالبينـة فقالوا لا يوجد أحد فى هـذه الناحية يشنع على المتبركين بها الا هذا الرجل ، فقال العمدة اننى لا أستطيع أن أعاقبه بهذه الحجة التـى لا تتجاوز الظنون وأخبرنى الحاج محمد أجانا وهو رجل قضى عمره فى البدع حتى بلغ السبعين ثم هداه اللـه الى التوحيد بدعوتنا أن له شجرتين يعبدهما الفلاحون احداهما اسمها أبو بكر والاخرى نسيت اسمها وان الفلاحين يضعون ادوات الحرث وغيرها مما يثقل عليهم حمله الى جانب احدى الشجرتين فـلا يتجرأ أحد أن يسرق شيئا من ذلك مـع أنهم سرقوا حصر المسجد ولو ذهبنا نعدد وقائـع عبادة الاشجار لطال بنا الكلام ، وأمـا عبادة الاحجار فهى كثيرة اورد بعض وقائعها ، فمن ذلك حجر كبير ناشز فى جبل بالصعيد فى مديرية أسيوط أخبرنى أصحابنا أنه كان يسمى الشيخ دغارا وان جماعة منهم ذهبوا ذات ليلة بمعاولهم واشتغلوا طول الليل فتركوا الشيخ دغارا أثرا بعد عين ومنها أن صخرة فى مرسى مدينة طنجـة داخـل البحر تسمى سيدى ميمونا يعبدها أهل تلك الناحية وسبب اطلاعى على عبادتها أنى كنت راكبا فى سيارة حافلة من طنجة الى تطوان سنة ثلاث وأربعين وتسعمائة وألف بتاريخ النصارى وأتباعهم وكان الى جانبى رجـل معـه امرأة فسلم علي وقال لى أنا ممن يحضر دروسك فى الجامع الكبير وقد هدانى الله الى التوحيد بسبب ذلك ولكـن زوجتى هذه لا تزال متمسكة بالشرك فأرجو من فضلك أن تعظها لعل الله

يهديها بوعظك كما هداني أنا وذكر لي قضية اشتد نزاعهما فيها تتعلق بعبادة الصخرة البحرية المسماة بسيدى ميمون وحاصلها أنهما لا يعيش لهما الاولاد اذا بلغ الصبى سنة يموت فنذرت زوجته أن تذبح عن ولدها فى كل سنة شاة لسيدى ميمون وقد حانت نهاية السنة الاولى من عمر الصبى قال فامتنعت انا من الوفاء بهذا النذر وقلت أن عمر الصبى بيد الله وميمون صخرة لا تضر ولا تنفع فلم تقبل ، فوعظتها من طنجة الى تطوان مدة ساعة ولا أدرى هل انتفعت بوعظى وتابت من الشرك أم بقيت على شركها واكتفى بهذا القدر من الشواهد على عبادة الاحجار ، ومن عبادة المياه أن بئرا بالقصر الكبير يعبدها السفهاء ويسمونها سيدى ميمونا ويزعمون أن ابن أمير الجن شمهروش كثيرا ما يحضرها خبرنى بذلك غير واحد فى البلد المذكور وشاهدت حوادث أخرى من عبادة المياه فلا أطيل بذكرها وأما عبادة الحمير فأذكر فيها قصتين احداهما وقعت فى طرابلس الغرب على ما حدثنى به ثقة وذلك انه كان فى تلك الديار شيخ متصوف اسمه عبد السلام الاسمر كان يرقص مع أصحابه ويضربون بالدفوف حتى يخروا صرعى على الارض ويعتقدون أن الدف الذى كان يضرب به الشيخ عبد السلام نزل من الجنة وكان يضرب به على بن أبى طالب للنبى ، والشيخ عبد السلام والمريدون المنقطعون للعبادة معه لم يكونوا يكتسبون معيشتهم لانهم كانوا بزعمهم متوكلين وكان للشيخ المذكور حمارا يطوف على بيوت البلد وحده كل صباح ومساء وعليه خرج فكلما وقف بباب بيت يضع أهله شيئا من الطعام فى ذلك الخرج فيرجع الى الشيخ والمريدين بطعام كثير غدوة وعشية فلما مات الشيخ وتفرق المريدون بقى الحمار بلا عمل فصار الناس يقدمون له العلف ويتبركون به الى أن مات فدفنوه وعكفوا على قبره يعبدونه ، والقصة الثانية فى المغرب الاقصى قرأت فى سنة ستين وتسعمائة وألف بتاريخ النصارى فى صحيفة العلم مقالا لمعلمة اسمها خديجة النعيمى من الدار البيضاء قالت خديجة خرجت مع نسوة جاهلات نتجول خارج المدينة فمررنا بكوم من حجارة فأخذت النسوة يقبلن تلك الحجارة ويتمسحن بها قائلات (أنتاع الله لله يا للا حمارة) معناه نسألك متاع الله أى ما أعطاك الله من الكرامة يا سيدتنا الاتان ، قالت فأنكرت صنيعهن وقلت لهن ويحكن تتخذن أولياء حتى من الحمير ، فقلن لى أسكتى انك لا تعرفين قدر هذه الولية

فكم قضت من حاجات ونخاف عليك أن تضربك ضربة يكون فيها حتفك فسلمى للفارغ لكى تنجى من العامر (قلت وهذا مثل يضربه المغاربة لمن اعترض على عبادة شخص وقال انه لا ينفع ولا يضر يقول له عباده ، (سلم للخاوى تنجى من العامر) معناه هب أنه فارغ من الولاية فخير لك ان لا تعترض عليه وأن لا تنكر ولايته لانك ان استمررت فى الانكار يخشى عليك أن تصادف وليا حقيقيا فيصيبك بشر ، ثم وجهت الكاتبة المذكورة دعوة الى العلماء وقالت يا علماء الدين اتقوا الله وعلموا الناس توحيد الله وشعائر دينهم فانكم ضيعتم الامانة التى حملكم الله اياها حتى وصل الناس الى عبادة الحمير دون الله . فكتبت ثلاث مقالات تلبية لدعوتها ونشرت فى صحيفة العلم ولم يلب دعوتها أحد غيرى من قراء صحيفة العلم وهم يعدون بالآلاف وأظن أن هذا القدر يكفيك ان كنت منصفا ويقنعك ان كنت متعسفا .

عود الى الريرمون

أول جمعة صليتها اماما فى الريرمون فى المسجد الاعظم كانت يوم عيد عند اهل الريرمون وتمكن السلفيون لاول مرة من الصلاة فى المسجد الاعظم وتعانق الناس وصاروا اخوانا متحابين وكان للسلفيين مسجد بنوه باللبن وسقفوا نصفه بخشب النخل فصلى فى ذلك اليوم الشيخ عبد الظاهر فى ذلك المسجد اماما وقال فى خطبة الجمعة يا اخواننا لا يخفى عليكم (أن المركب اللى فيها ريسين تغرق) يعنى أن السفينة اذا كان لها ربانان فما لها الغرق لان الربانين يختلفان فيؤدى اختلافهما الى اختلاف النوتيه ويفضى بهم ذلك الى الغرق وأن هذا المغربى قد فرق جماعتنا ووالى أعداءنا وأحدث فتنة فى البلد ، فمن كان منكم ثابتا على بيعتى محافظا على عهدى فلا يكلمه ولا يجلس اليه ولا يستمع لحديثه فلما فرغ من الصلاة ولم يصل معه الا الشيوخ الضعفاء الذين شق عليهم المشى للجامع الاعظم غضبوا عليه وزجروه زجرا شديدا وقالوا له ما نظن الا أنك اصبت بالجنون وان هذه الصلاة التى صلينا خلفك مشكوك فى صحتها لانك تكلمت باللغو الذى لا يناسب خطبة الجمعة وهذا الرجل الذى تكلمت فيه بغير حق ما راينا منه الا خيرا وهو يجلك غاية الاجلال فقال لهم هذا فراق بينى وبينكم وقبل ذلك بيوم دعانى أحد الاخوان للغداء ودعا الشيخ عبد

الظاهر فقال لى يا شيخ محمد سمعت بأن المنافق يوسف شيخ البلد جاءك واظهر لك أنه تاب من شركه وبدعته فقبلت توبته وأظنك لا تعلم انـه أكبر عـدو للسلفيين ولى أنا بالخصوص وأنا شيخ هذه الطائفة وامامها فان كان صادقاً فيما يزعم فهلا جاء الى والتمس منى العفو وبايعنى ، بل أنت بنفسك يجب عليك أن تبايعنى وان لا تخرج عن رأيى ، فقلت له يا شيخ عبد الظاهر والله انـى لا لا أحب أن أرضى الله ثم أرضيك ما استطعت الى ذلك سبيلا فهب أن رجـلا فـى الروضة وهى بلدة قريبة من الريرمون يدعو الى مثل ما ندعو اليه من التوحيد وأتباع السنة وهذا الشيخ يوسف عدولى ولك فجاءه هذا الداعى ودعاه فتاب الى الله على يده من الشرك والبدعة وبقى مـع ذلك مصرا على عداوتنا ، الا ينبغى لنا أن نفرح بتوبته لانه أنقذ من شر عظيم يوجب لـه الخلود فى نـار جهنم ، أما عداوتنا نحن فانها معصية لا تخرجه من الاسلام وقد تزول فنصطلح معه ونعود الى الوفاق فقال لى هذا رأيك أنت ، أما أنا فأقول يجب على كل من أراد أن يتوب من الشرك والبدعة أن يرضينى ويبايعنى فقلت له انى أوثر رضى الله على رضاك فقال هذا فراق بينى وبينك وسمعت بأنه كان يتعاطى الافيون وهو مخدر سام الله أعلم بصحة هذا الخبر ، وبقيت فـى الريرمون على تلك الحال نحو ثلاثة اشهر ، ثم حان وقت الحج وكنت فى أثنائها أظهر الغنى ولم أسمح لاحد أن يدفع عنى أجرة البريد لرسالة أرسلها فى البريد فضلا عن غير ذلك حتى صار الناس يعتقدون أننى غنى ولـم يتجرأ أحـد أن يقـدم لى شيئا لا دراهم ولا ثيابا الا شيئا من الخبز اليابس وشيئا من السمن فـى انـاء من خزف انكسر حين ركبت العربة قبل أن أصل الى مستقـرى فـى القاهرة والا كسوة كسانيها الشيخ يوسف رحمه الله بعـد أن قدم لها مقدمات من الالحاح الكثيـــر .

المنـاظـــرة

لما استجاب لى شيخ البلد وتبعه الناس كلهم الا من ذكرت أعنى العمدة المرفوت وشيخ الطريقـة أصاب هذين الرجلين مـن الغم والحزن شىء كثير فبعثا الى الجامـع الازهر ودعيا أحـد كبار الاساتذة المعروفين بغزارة العلـم وطلاقة اللسان لمناظرتى فجاء الاستاذ الازهرى ونزل فى قصر العمدة المرفوت

فجاء أصحابنا وأخبرونى بقدومه وقالوا لى ناظره فستنتصر عليـه يقينـا فان الازهريين ضعفاء فى علم السنة والتوحيد ونحن العوام نغلبهم ، فقلت لهم انى أرى فى هذه القضية رأيا مخالفا لرأيكم وهو أننى لا أناظره فأنا حارث وزارع وقد دعوت أهل البلد فاستجابوا لى فليتقدم وليدعهم هو الى الرجوع الى الشرك والبدعة فان رجع معه أحد فأبعده الله ومن تبعـه فهو له ومـن تبعنى فهو لى والمناظرة تعتريها المشاغبة ثم المضاربة فلا تحق حقا ولا تبطل باطلا فقالوا لى كلامك هذا يسبب لنا الهزيمة ويصدق قول أعدائنا أنك مغربى حاج ما درست فى الازهر ولا عندك الشهادة العالمية فقلت لهم صدقوا أنا جاهل ما درست فى الازهر ولا عندى الشهادة العالمية ولكن هـذه المسائل التى أدعـو اليها لو جاء شيخ الازهر ومعه علماء الازهر كلهم لم يستطيعوا أن ينقضوا منها شيئا غير أننى لا أحب المناظرة ودعوا الاعداء يقولون ما شاءوا ، فلم يعجبهم كلامى وبقى الاستاذ الازهرى فى بيت العمدة خمسة عشر يوما حاول فى أثنائها أن يهجم على فى الدرس الذى ألقيه كل يوم بعد العصر بالمسجد الجامع فنهاه شيخ البلد وقال له نحن نثق بهذا الرجل ولا نشك فى صحة مادعانا اليه والله ان فتحت (بقك) أى فمك بكلمة واحدة لآمرن خفيرين أى حارسين يأخذانك الى محطـة السكة الحديدية لانك تريد أن تحدث تشويشا وفتنـة فبقى شيـخ الطريقـة وصاحبه العمدة حائرين وفى النهاية عمدا الى حيلة مكنتهما مما أراداه وذلك أننا كنا فى شهر رمضان وفى ذات يوم دعانى العمدة الحقيقى وهـو رجل ملحد الى العشاء فأجبته وألقيت كلمة أمامه فقال لى أنا على الحياد لست معك ولا مـع خصومك يعنى شيخ الطريقة والعمدة المرفوت ولكـن عقيدتكم أنتم أقـرب الى العقل من عقيدتهم لان عبادة القبور وشيوخ الطريقة اهانة للكرامة الانسانية.
ولما انصرفت من عنده كان طريقى يمر على باب قصر العمدة المرفوت فلما حاذيت بابه جاءنى شيخ الطريقـة وسلم على وقال ان سعادة العمدة يدعوك الى فنجان قهوة فقلت عندى الآن درس فقال لى لا يستحسن أن ترد دعوته ولا تزيد عـلى خمس دقائق فذهب بى حتى أدخلنى الى مقصورة وجدت فيها شيخا ذا عمامة ولحية فظهر لى أنه هو العالم الازهرى الذى دعى الى مناظرتى وكان ظنى صادقا فلم يكد المجلس يستقر بى حتى هجم على الاستاذ الازهرى وقال لى يا فـلان بلغنى أنك تقول كذا وكذا وكذا وعدد مسائل من التوحيد واتباع السنة فقلت

له أما كذا وكذا فقلته حقا وذكرت له دليلهوأما كذا وكذا فلم أقله ووقعت المناظرة فعلا فحانت منى التفاتة فرأيت حديقة القصر كلها عمائم وقلانس لم يبق أحد من أهل البلد الا حضر وتركوا لذلك صلاة التراويح فلم تزد المناظرة على نصف ساعة وكان الاستاذ الازهرى نسيت اسمه الآن من خيرة علماء الازهر فجعل يقول فى أثناء المناظرة أشهدكم أنى رجعت عن كل ما قلته فى هذا الاستاذ المغربى فان الناس نقلوا لى عنه مسائل مكذوبة عليه وأشهد أنه من العلماء المحققين وان كنت أخالفه فى بعض المسائل فعند ذلك علم العمدة المرفوت أنه اخفق فى سعيه فقال أيها الاساتذة أرجوكم أن تقطعوا هذه المناظرة أنا ما دعوت الاستاذ المغربى الى المناظرة وانما دعوته لاتعرف به ويشرب عندى فنجانا من القهوة فانتهت المناظرة على ما يحبه أصحابنا ويكرهه خصومنا ، ومن رأيى انى أبعد عن المناظرة وأتجنبها فاذا اضطررت اليها استعنت بالله وخضت غمارها ، قال النبى صلى الله عليه وسلم لاتتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية فاذا لقيتموهم فاصبروا

الدعوة الى الله فى تندا وهى قرية تبعد عن الريرمون مسافة لا احصيها وفيها سلفيون واثنان من العلماء

جاءتنى دعوة من السلفيين من أهل هذه القرية فلبيتها وتوجهت اليهم واقمت عندهم ثمانية أيام ألقى الدروس فى المساجد فرجع عن البدعة والشرك خلق كثير قدر عددهم بنصف سكان القرية وعندئذ قال لى بعض أصحابنا اتق الله وامكث هنا فى مديرية أسيوط على الاقل سنة كاملة ، وأقسم بالله أنى لو اقمت سنة ليهدين الله بى أكثر سكان المديرية وقال لى ان هذه الفرصة التى سنحت لك من اقبال الناس على مجالس دعوتك قل ما يسنح مثلها ولا يجوز لك أن تضيعها ، فقلت له يمنعنى من ذلك أن الغرض الذى سافرت من أجله من المغرب هو طلب العلم ولقاء أصحاب الحديث أينما كانوا وأنا لم أؤد فريضة الحج حتى هذه الساعة ، فقال لى أما طلب العلم فهذه المجالس الحافلة بالدعوة الى الله هى من صميم طلب العلم وأنت شاب يمكنك أن تستأنف رحلتك بعد ذلك ، وجاءنى اثنان من اغنياء أصحابنا فقال لى كل منهما أمكث هنا

وأنا مستعد أن أزوجك ابنتيوأكتب لك عند المأذون فدانين غلتهما تكفيك للمعيشة فاعتذرت اليهما عن القبول وقلت لهما ان الشيخ عبد الظاهر الريرمونى عفا الله عنه يظن أننى أقصد الاقامة هنا طلبا للمعيشة لاقصيه وأحل محله ، فقالا معاذ الله أن يظن بك أحد مثل هذا الظن وفى أثناء اقامتى بالريرمون قرأ على أخوان معلمان فى المدرسة نسيت أسماءهما ختمة من القرآن بقراءة ورش وكانت نادرة فى مصر فى ذلك الزمان فلم تلبث أن انتشرت بعد ذلك وأولع بها القراء بقصد الاغراب على السامعين ، واكتساب المعيشة أى التأكل بالقرآن ، وفى صحيح البخارى ، باب من تأكل بالقرآن أو فخر به ذكر البخارى رحمه الله فى هذا الباب حديث على فى الخوارج واستدل به على أنه لا يحل الاكل بالقرآن فراجعه ان شئت

قدم مراد الله يقدم الله مرادك

تقدم أنى تعففت أثناء اقامتى بالريرمون وأظهرت الغنى .

تعفف ولا تبتئس فما يقض يأتيكا

وانما فعلت ذلك لعلمى أن الذى يأخذ من الناس لا يستطيع أن يعطيهم شيئا وان من كان له غرضان متضادان لا يمكن الحصول عليهما جميعا فلذلك وحدت همى ووجهت همتى بعد فتح الله لى قلوب الناس الى الدعوة وحدها كما قال الناصح .

اجعل الهم واحدا وأرض بالله صاحبا

وكنت أظن قبل التوجه الى الصعيد أن ييسر الله لى دراهم أحج بها حجة الفريضة بعدما أقمت فى مصر سنة وشهرا نفد كل ما كان عندى وكنت أنفق على نفسى وأخى الاستاذ محمد العربى الهلالى الذى صحبته معى وكان صغيرا لكن لما حصلت على تلك الغنيمة فوضت الامر الى الله وقلت .

عسى فرج يأتى به الله أنه له كل يوم فى خليقته أمر

وبعد وصولى الى القاهرة ببضعة أيام جاءتنى حوالة من الشيخ يوسف بثلاثة عشر دينارا فكانت كافية لان أحج بها أنا وأخى وهذا ما أردت بقولى قدم مراد الله يقدم الله مرادك .

هل بقى أهل الريرمون ثابتين على الدعوة ؟

الجواب نعم بعدما سافرت الى الحجاز ثم الى الهند ثم الى العراق رجعت الى مصر سنة خمسة وأربعين وثلاثمائة وألف فزرت الريرمون ووجدت الاخوان ثابتين على الحق لم يضرهم من خالفهم وأخبرنى الشيخ يوسف رحمه الله أنه لما شاع فى أنحاء الصعيد أن أهل الريرمون بدلوا الدين وأحدثوا دينا جديــدا بعثت وزارة الاوقاف مفتشا ليعرف حقيقة مــا وقع قال فجاءنا وقال يا شيخ يوسف بلغنا أنكم تركتم الترقية وقراءة سورة الكهف والاذان الثانى فى يوم الجمعة وكذا وكذا قال فقلت له أنت عالم ونحن جهال وسترى صلاتنا وعبادتنا فكلما رأيته مخالفا للسنة المحمدية فاخبرنا به نرجع عنه وكلما رأيته ناقصا من السنة فأخبرنا به نفعله ، فقال لى ياشيخ يوسف السنة على الرأس والعين ولكن لا يخفى عليك أنه قد حدثت أمور بعــد زمان النبوة استحسنها الناس ودأبوا عليها ومن الصعب ازالتها وقد قال العلماء ان البدعــة تعتريها الاحكام الخمسة فقد تكون واجبة أو مستحبة أو مباحة أو مكروهة أو محرمة ، قــال فقلت أنا كما تعلم لست من العلماء ولكنى سمعت غير واحد من العلماء الثقات الذين لا أشك فى علمهم ولا فى صدقهم يقولون ان النبى صلى الله عليه وسلم قال كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار فسروا لنا هذا الحديث كما يــدل عليه ظاهـــره ولم يقــل أحد منهم ان بعض البــدع واجب وبعضها مستحب وبعضها مباح ، فقال المفتش ثم لا يخفى عليكم أن المساجد للاوقاف هى التــى بنتها وهى التى تنفق عليها وهى تريد ان تسير على ما كانت عليه ، قال الشيخ يوسف فقلت له (ايه ده يا خوى بس كدا ؟) أنا أستطيع أن أبنى مسجدا فى سبعة أيام وأترك المسجد الجامع فارغا لا يصلى فيه أحد الا الامام والمؤذن ، قال فقال المفتش يــا شيخ يوسف أو نعمل شيئا آخر قال فقلت هات ما عندك ، فقال أنا مبعوث اليكم من قبل الاوقاف لاقدم تقريرا فيما نسب اليكم مـــن المخالفات فأقترح عليك أن تأمر المؤذن والامام يوم الجمعة باعادة تلــك الامور التى كنتم تصنعونها مــن قبل لاستطيع أن أكتب تقريرا أكذب فيه ما نسب اليكم وبعد أن افارقكم وأعود بالتقرير الى من أرسلنى اصنعوا ما شئتم ، قال فقلت أنا موافق فامرت الامام والمؤذن أن يفعلا تلك البدع المخالفة للسنة

يوم الجمعة ففعلاها وصلينا الجمعة كما أراد المفتش ثم عدنا الى ما كنا عليه وهنا ينبغى أن أقتبس أبياتا من القصيدة التائية التى نظمتها بالهند وذكرت فيها توبتى من الشرك والبدعة ورحلتى فى طلب العلم وأقتصر على ما يخص الدعوة فى الريرمون لانى قد أدرجت القصيدة كلها فى كتاب الهدية الهادية الى الطائفة التجانية والابيات التى تخص الريرمون هى :

أتيت الى مصر لاخبر خبرها ... وأنظر هل فيها شفاء لغلتى
وكنا سمعنا قبل أن فى ربوعها ... رجال لنصر الدين أصحاب شدة
وصلت فلم ألفى سوى أهل بدعة ... وشرك والحاد وشك وردة
سمعت بها الالحاد يعلن جهرة ... بجامعة للشر مع كل فتنة
رأيت بها الاوثان تعبد جهرة ... قبورا عظاما ناخرات أجنت
ويدعون دون الله من لا يجيبهم ... وهم عن دعاء القوم فى عظم غفلة
لهم جعلوا قسما بمال والدة ... فلا عاش من قد ظنهم أهل ملة
حشا ثلة مستضعفين رأيتهم ... تسومهم الاعداء سوء الاذية
وهم صبر مستمسكون بدينهم ... ويدعون ما اسطاعوا لبيضاء نقية
وما صدهم ايذاؤهم عن جهادهم ... لانهم أهل النفوس الابية
اقمت بها عاما الى الله داعيا ... فأرشد رب الناس قوما بدعوتى
يعدون بالآلاف فى الريرمون كلهم ... أهل اخلاص وأهل فتوة

من مخارق شيوخ المتصوفة المبتدعين

حكى لى أصحابنا فى الريرمون أننى بعدما سافرت من بلدهم زارهم شيخ طريقة اعتاد من قبل أن يزورهم الفينة بعد لفينة فاستقبلوه استقبال ضيف عادى ولم يقبلوا يديه ورجليه ولم يخضعوا له الخضوع المعتاد قبل توحيدهم لله ، فأنكر ذلك وقال ما خطبكم أراكم تبدلتم ؟ قالوا ماذا تريد منا نحن مستعدون لضيافتك فاقترح ما تشاء فقال لهم ما هذه الوجوه هى الوجوه التى أعرفها ولا الاستقبال هو الاستقبال الذى عهدته فيكم ، فقال له أحدهم وماذا تريد منا أتريد أن نعبدك من دون الله لقد تاب الله علينا وهدانا الى توحيده واتباع رسوله فنحن لا نريد منك شيئا ولا نسأل حاجتنا الا من الله ولا نتبع

فى الدين الا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له الشيخ وهو غضبان تغلى مراجله يا عكروت (العكروت كلمة شتم فى العامية المصرية بمعنى اللئيم) أنا قتلت نفسا لاجلك وتقابلنى بهذه الوقاحة ؟ فقال الرجل وكيف كان ذلك فقال الشيخ جاء رجل يسرق من مزرعة البطيخ التى زرعتها على شاطىء فرع النيل فوجهت له همتى وقتلته فضحك الرجل وقال له يا سيدنا الشيخ قد أخطأت فى حسابك ان المزرعة التى تعنى جاءها فيضان النيل ، فأتى عليها قبل أن تثمر ، فغضب الشيخ ورحل ولم يقبل ضيافتهم وعلم أن رزقه منهم قد انقطع فذهب يبحث عن غيرهم كما يبحث الذئب عن الحملان . ومن عرف معنى لا اله الا الله محمد رسول الله وعمل بمقتضاهما حفظه الله من شياطين الجن والانس .

وحدثونى عن هذا الشيخ نفسه أنه كان فى ضيافتهم فى مندرة فنظر فلم ير أحدا وأوحى اليه شيطانه أن يأتى بمخرقة ليرهبهم بها ويستدر خدمتهم وأموالهم فنزل من فوق المقعد الخشبى واندس تحته وقد سدل عليه ستار كما هى العادة فى ذلك الزمان فى المنادر فدخل أحدهم فلم يجده وهم يعلمون يقينا أنه لم يخرج فقال يا جماعة قد فقد سيدنا الشيخ فدخلوا كلهم ولم يشاهدوا شيئا ثم خرجوا فلما خلا له الجو خرج من مخبئه وقعد فى مكانه وانطلقوا هم يفتشون عنه فى البلد كله فلم يجدوا له أثرا ثم رجع أحدهم فوجده فى مكانه فأحاطوا به يتمسحون به ويقبلون يديه وهم فى هلع عظيم وقالوا يا سيدنا الشيخ (كرى ايه ؟) ، يعنون ماذا جرى عهدنا بك جالسا على المقعد ثم دخلنا فلم نجدك وانطلقنا نبحث عنك ثم رجعنا فوجدناك ، فقال زرت اخوانكم المجاهدين فى طرابلس الغرب (فى هذا الزمان تسمى ليبيا) فوجدتهم فى معركة عنيفة مع أعداء الاسلام الايطاليين فأكبوا عليه مرة أخرى يقبلون يديه ويتمسحون بثياب هذا البطل المجاهد وما هى من أفعال المبطلين بالشىء الغريب .

الدعوة الى الله فى تطوان

فى شهر آذار «مارس» من سنة اثنتين وأربعين وتسعمائة والف بتاريخ النصارى ، اتفقت مع سماحة المفتى السيد أمين الحسينى على التوجه من برلين الى شمال المغرب وحملنى رسالة شفوية الى الاستاذ المجاهد رئيس حزب الاصلاح الوطنى الزعيم عبد الخالق الطريس رحمة الله عليه تتعلق باصلاح حال المسلمين فى شمال المغرب وكان فى ذلك الزمان القسم الشمالى من المغرب يسمى المغرب الاسبانى لان المغرب كان مجزءا الى ثلاثة أجزاء المغرب الفرنسى وهو القسم الاكبر من المغرب عدد سكانه زهاء أحد عشر مليونا ، والمغرب الاسبانى وعدد سكانه زهاء مليون واحد ، وطنجة ونواحيها وهى دولية ، وكان الجرمانيون فى أوج عزهم فلما وصلت الى تطوان فزع الاسبانيون المستعمرون من قدومى وساء ظنهم ، لانهم وان كانوا مع الالمانيين فى السياسة ظاهرا الا أنهم لا يأمنون جانبهم فظنوا أننى جئت مبعوثا من الالمانيين لاتصل بزعماء المغاربة وأسعى فى اخراج الاسبانيين ليحل الجرمانيون محلهم وهو ظن كاذب فمنعونى من الرجوع الى البلاد الجرمانية ، بتواطىء مع القنصلية الانكليزية فى تطوان فاضطررت الى البقاء فى تطوان ونواحيها زهاء ست سنين وجرت على حوادث ذكرها هنا كلها يخرجنى عن الموضوع وانما أذكر منها ما يتعلق بالدعوة الى الله تعالى وكنت فى ذلك الوقت عديم الجنسية لان الانكليز تواطئوا مع السفارة العراقية فى روما أن لا تجدد جواز سفرى فقدمت الى تطوان بجواز ملفق بعثه الى الاستاذ عبد الخالق الطريس فسهل على الاسبانيين المستعمرين المستعبدين أن ينتزعوا منى ذلك الجواز وأن يجعلونى تحت المراقبة ثم استطعت أن أقنعهم بكذب ظنهم بعدما اقترحوا على كتابة مقال أصرح فيه بأن الجرمانيين لا حق لهم فى استعمار المغرب فكتبت مقالا قلت فيه : ان المغرب للمغاربة لا حق للفرنسيين ولا للاسبانيين ولا للجرمانيين فى الاستيلاء عليه فرضوا بذلك ولكنهم شرطوا على أن لا أكتب مقالا ولا ألقى دروسا ولا خطبة الا بعد اطلاعهم

واستئذانهم وهددونى بأن يسملونى للفرنسيين الذين نفونى قبل من القسم الـذى تحت أيديهم ولو ظفروا بى لانتقموا منـى أشد انتقام ، وبقيت هنالك عاطلا عن العمل فبعد مـدة جاءنى جماعة مـن محبى العلم والاصلاح والتمسوا منى أنأ ألقى دروس وعظ فى المسجد الجامع ويسمى باللغة المغربية الجامـع الكبير فقلت لهـم ان الاسبانيين شرطوا على أن لا ألقى درسا بدون اذنهم ، ثم جاءنى جماعة من طلبة المعهد الاسلامى فالتمسوا منى مثل ذلك فأجبتهـم بالجواب نفسه فقالوا لى كلهم انهم لم يمنعوك منعا باتا وانما علقوا ذلك عـلى اذنهم فاستأذنهم وكان الحاكم المدنى قد عين أحد الضباط اسمه بردا واسطـة بينى وبينهم ، فأخبرت بردا بطلب الجماعتين فبلغ الامر الى سيده فقال له ، لا ما نع عندنا من ذلك ولكن مدير المعارف (وهو اسبانى طبعا) متعصب جـدا ومعتد بنفسه فاذا رأى الدكتور الهلالى يلقى دروسا بـدون استئذانه يخاف أن يكيد له كيدا فيستحسن أن يطلعه ع لىذلك لينجو من شره فشاورت الاستاذ عبد الخالق الطريس رحمه الله وكان قد عيننى أستاذا فى المعهد الحر وهـو مؤسسة وطنية خارجة عـن نفـوذ المستعمرين نوعا ما ، فقال لى اكتف بالقاء الدروس فى المعهد ودع عنك هؤلاء الارذال فصرفت النظر عن ذلك ، ثم عادت الجماعتان الى الالتماس وقلت عسى أن يكون فـى اجابة طلبهم خيرا ، فقلت لبردا أخبر مدير المعارف بأنى أريد زيارته فأخبره فرحب بذلك واجتمعت بـه بحضور مدير المعارف المغربى وكان حضوره صوريا لا حول له ولا قوة ومـع ذلك حاول أن يستغل وجوده فأراد أن يشترط على شرطا يتنافى مع الغرض المطلوب فقال لى ان الاسبانيين يشترطون عليك أن تكون دروس وعظك خالية من السياسة وخالية منالآراء الشاذة يريد بذلك انكار الشرك والبدع فقلت له أنا لا أقبل هذا الشرط وسأتكلم مع المدير الاسبانى فان أصر عليه عدلت عـن القاء الدروس فتكلم المدير الاسبانى وقال لى لقـد فرحت بزيارتك لانى أحب العلماء وخصوصا أمثالك الذين يجمعون بين الثقافتين الاوربية والاسلاميـة وهـم قليل بـل مـا رأينا منهم أحدا قبلك ولكنى أكـره للعلماء أن يشتغلوا بالسياسة لانها تفسد عليهم علمهم وفى رأيى أن على العالم أن ينقطع لخدمـة العلم ويترك السياسة فقلت له يمكنك أنت أن تفعل ذلك أن تنقطع الى العلـم وتترك السياسة لان لك دولة قائمة تغنيك عن ذلك ، أما أنا فلا يمكننى تـرك

السياسة لامرين ، أولهما أن القرآن والحديث كلاهما مشحونان بالسياسة فلا يمكن أن أفسر القرآن وأشرح السنة الا بالخوض فى السياسة ، وثانيهما أن المغرب فى هذا الزمان كالجسم المريض ونحن أبناؤه يجب علينا السعى فى استرداد ما فقد من الصحة والمحافظة على ما لم يفقده منها ، فقال أنا أوافقك على أن المغرب مريض ولكن ينبغى لنا أن نعطيه الدواء اذا أردنا شفاءه بقدر محدود فقلت له مغالطا اذا نحن متفقون على السعى فى علاجه وشفائه وفهمت منه الموافقة على القاء الدروس وبدأت بالقاء ثلاثة دروس فى المسجد الجامع كل أسبوع فأقبل الناس علماؤهم وعامتهم على هذه الدروس اقبالا عظيما مع أن علماءهم الا واحدا وهو الاستاذ محمد الطنجى كانوا معادين ومحاربين للتوحيد واتباع السنة أشد المحاربة وهددوا بأن يعينوا لجنتين احداهما تناظرنى فى الاصول والاخرى تناظرنى فى الفروع فلم أعبأ بهم وأخذت أحطم أصنامهم فى دروسى ولما بدأت دروسى فى الجامع الكبير لم يكن أحد يضع اليمنى على اليسرى فى الصلاة ووضع اليمنى على اليسرى فى الصلاة وقراءة بسم الله الرحمن الرحيم فى أول الفاتحة أعظم شعار للمتبعين للسنة فبدأ العوام يعملون بهذه السنة وغيرها وكان الناس يتعجبون من العاملين بها ولكن باستمرار الدروس بضع سنين كثر المتبعون للسنة فى هذا المسجد حتى صار الناس اذا رأوا رجلا سادلا يديه فى الصلاة لا يرفع عند الركوع ولا عند الرفع منه ولا يجهر بالتأمين يتعجبون منه .

« الحوادث التى وقعت اثناء اقامتى فى شمال المغرب »

الاولى : كان فى طنجة الشيخ أحمد بن الصديق شيخ الطريقة الشاذلية المسماة هناك بالدرقاوية سمعت أن اباه محمد بن الصديق ورد طنجة منذ زمان غير بعيد من قبيلة غمارة فقيرا لا يملك شيئا ودعا الناس الى الدخول فى طريقته فاستجاب له بعضهم ونمت دعوته الى أن أسس زاوية والزاوية فى الحقيقة كالضرة للمسجد فهى بناء قصد به اقامة الصلوات الخمس مع الاذان فى كل وقت وقراءة القرآن والقاء دروس الوعظ فهى الى هذا الحد تشبه المسجد وتكاد تكون اياه ولكن قد قصدبها بالدرجة الاولى اجتماع طائفة مخصوصة لها اسم يعينها كالدرقاوية والتجانية والقادرية والزروقية والناصرية والكتانية

والكرزازية والوزانية وهلم جرا يجتمعون فيها لما يسمونه بالذكر وهذا الذكر يكون جماعة بلسان واحد كترانيم النصارى فى كنائسهم وبالنسبة للدرقاوية التى نحن بصدد الكلام فيها يكون معه غناء ورقص وآلات اللهو كالطبل والدف والمزمار وسائر الآلات ويجتمع فيها رجال ونساء على ذلك وبذلك تخالف المسجد وبعدما استقر الشيخ محمد بن الصديق فى طنجة وانتشرت طريقته بعض الانتشار نشأ أولاده وشبوا فاخذوا يقصدون مصر لطلب العلم وكبيرهم فى السن والعلم هو الشيخ أحمد المذكور آنفا اقام بمصر سنين جادا مجتهدا حتى حصل على نصيب وافر من علوم اللغة والعلوم الشرعية وفتح له فى التأليف فألف كتبا كثيرة ورجع الى طنجة وكان أبوه وأصحاب طريقته الى حين رجوعه مقلدين كغيرهم لا يعملون بالحديث ولو كان مثل الشمس ، فدعاهم أحمد الى ترك التقليد والعمل بالحديث فى الفروع التى لا تمس الطريقة وعقائدها بشىء من التغيير فاستجاب له والده وأتباعه كلهم وبذلك ضرب سورا على أتباعه يحرسهم من فتنة الفقهاء المقلدين فلا يمكن ان يسألوهم عن شىء ولا أن يأخذوا منهم شيئا من العلم ، أما عبادة القبور والرقص واعتقاد وحدة الوجود وتقديس زنادقة الصوفية كابن عربى الحاتمى وتعاطى الاوراد المبتدعة والاستمداد من الشيوخ والاستغاثة بهم فقد ترك كل ذلك على حاله ولم يغير منه شيئا .

ولما استقررت انا فى تطوان وهى شرقى طنجة على مسافة أربعين ميلا وعرفت ذلك كله ظهر لى أن دعوة الشيخ المذكور توافق دعوتى فى جانب وتخالفها فى جوانب فعزمت على أن أدعو الى توحيد الله واتباع السنة دون أن اتعرض للشيخ احمد بطعن ولا بتزكية من الوجهة الشخصية فانا أدعو الى توحيد الله وأُعلم الناس معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله اى جميع مدلولات الكلمتين وابين لهم ان من عبد غير الله بشىء من أنواع العبادت المذكورة أعلاه بعد أن يعرف أن هذا شرك ويصر على عمله فهو مشرك ومن اعتقد وحدة الوجود فهو كافر ومن استمد او استغاث بغير الله فهو كافر ومن ترك الكتاب والسنة وقلد الرجال قلادة سوء فهو ضال وقد يفضى به إصراره على ذلك الى الشرك كما قال تعالى (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب اليم) قال الامام أحمد لصاحبه الفضل بن زياد رحمهما الله : أتدرى ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك لعله إذا ردَّ بعض قوله (يعنى النبى صلى الله عليه

وسلم) أن يقع فى قلبه زيغ فيهلك ، وهذا تفسير للآية فى غاية التحقيق من وجهة الدلالة ومن وجهة العلم والمعرفة الذوقية لا يرتاب فيه الا جاهل غمر ، وانتظرت من الشيخ أحمد بن الصديق أن يسلك معى هذا المسلك نفسه فلا يدعو الى تلك الضلالات ويذم أهل التوحيد بل يتمسك بعقيدة السلف الصالح وذلك لازم لدعوته على سبيل العموم دون أن يسميني ولكنه سلك طريقا آخر فغره استيطانه فى طنجة وما له من أتباع وعلم أنى غريب فى تلك الناحية يحاربنى الاستعمار ولا يخفى ما كان له فى ذلك الزمان من سلطان ويحاربنى جميع الناس تقريبا فبعضهم يحاربنى لانه طرقى لانى أطعن فى الطرائق كلها الا طريقة النبى والصحابة والتابعين وهى الحنيفية وبعضهم يحاربنى لانه مقلد جامد يقلد خليل بن اسحاق مؤلف المختصر الفقهى وشروحه ولا يخجل أن يقول نحن خليليون ان دخل خليل النار دخلناها معه وان دخل الجنة دخلناها معه ، هكذا يقول غلاة السفهاء الذين يسمون بالفقهاء .

حدثنى الشيخ الورع الصالح محمد بن أبى طالب الحسنى الهاشمى أن الفقهاء اجتمعوا فى مدينة فاس فى الضريح الادريسى الذى يكاد يكون كعبة عندهم وكان الشيخ الامام المحدث الداعى الى الله على بصيرة شيخ شيوخنا عبد الله السنوسى نزيل طنجة رحمة الله عليه يطعن فى أولئك الجامدين ويضللهم فجاءه أحدهم بعد انفضاض الاجتماع فى الضريح المذكور فقال له يا سيدى لم لم تشرفنا بحضورك فقال أنت تعلم لماذا فانكم اجتمعتم للصلاة عند القبر وأنتم أسارى التقليد الاعمى فقال له المقلد نحن خليليون ان دخل خليل النار دخلناها معه وان دخل الجنة دخلناها معه فقال الشيخ على البديهة (أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون) فبدأ الشيخ أحمد يطعن فى علمى عندما أخذت أدعو الناس الى اتباع الكتاب والسنة يقول هذا طفيلى جاء من أوربا يتزيا بالزى الاوربى وهو زى الكفار فمن أين جاءه علم الكتاب والسنة وأين درسه أفى برلين أم فى بون ثم بدا للاسبانيين المستعمرين أن يؤسسوا صحيفة عربية يومية جامعة فطلب منى الحاكم الاسبانى بواسطة بردا أن أنشر فيها مقالات فى الدين والعلم والادب دون أن أتعرض للسياسة ، وكأن هذا امتحانا ثانيا أرادوا أن يمتحنونى به فقبلت وكتبت مقالات على شريطتهم منها مقال فى حل حديث المشكل ذكره الامام ابن القيم فى كتابه الطرق الحكيمة وذكر من خرجه مع أسانيدهم وقال

انه على شرط مسلم الا أن بعضهم علله باضطراب متنه ثم أجاب ابن القيم عن ذلك وأثبت صحة الحديث وسأسوق الحديث هنا ليطلع عليه القراء بلفظ النسائي .

قال ابن القيم ص 62 ما نصه : قال النسائى حدثنا محمد بن يحى بن كثير الحرانى ، حدثنا عمر بن حماد بن طلحة ، حدثناأسباط بن نصر عن سماك عن علقمة بن وائل عن أبيه « أن امرأة وقع عليها رجل فى سواد الصبح وهى تعمد الى المسجد بمكروه على نفسها فاستغاثت برجل مر عليها وفر صاحبها ثم مر عليها ذوو عدد فاستغاثت بهم فأدركوا الرجل الذى كانت استغاثت به فأخذوه وسبقهم الآخر فجاءوا به يقودونه اليها فقال : أنا الذى أغثتك وقد ذهب الآخر ، فأتوا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته أنه وقع عليها وأخبر القوم أنهم أدركوه يشتد فقال انما كنت أغيثها على صاحبها فأدركنى هؤلاء فأخذونى . فقالت كذب هو الذى وقع على ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، انطلقوا به فأرجموه فقام رجل ، فقال لا ترجموه وارجمونى فأنا الذى فعلت بها الفعل واعترف فاجتمع ثلاثة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى وقع عليها والذى أغاثها والمرأة ، فقال : أما أنت فقد غفر لك ، وقال للذى أغاثها قولا حسنا ، فقال عمر رضى الله عنه : ارجم الذى اعترف بالزنا فأبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال (لا انه قد تاب) وكان بحثى فى هذا المقال منصبا على الاشكال الواقع فى الحديث وهو كيف أمر النبى صلى الله عليه وسلم برجم الرجل الاول الذى أغاثها دون أن تثبت عليه بينة الزنا وهى الاعتراف أو شهادة أربعة شهداء فما كاد المقال يقع فى أيدى الناس ويقرأ حتى اشتد غضب الشيخ أحمد بن الصديق وكأننى هجمت على بيته ونهبت أثمن ما عنده وقال ما شأن هذا الرجل والحديث هذا رجل متفرنج أقام زمانا طويلا فى أوربا متطفل على الكلام فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم فكتب مقالات هو وأعوانه فى الرد على وكان محرر صحيفة الاخبار شخصا اسمه عرفة الغمارى بينه وبين الشيخ المذكور قرابة فكان اذا جاءه مقال منه أو من أحد أعوانه الذين كانوا يحاربوننى معه يبادر بنشره ويؤخر مقالى بعض التأخير لكنه لا يستطيع أن يترك نشره لان سادته المستعمرين لا يسمحون له بذلك واستمرت المعركة مدة من الزمان فيما بينى وبينهم وكانوا كعادتهم يمزجون الشتم بالعلم فادع

الشتم لا أجيبهم عنه وأجيبهم عن المسائل العلمية فقط فاكتسبت بذلك وبالحجج القوية التي أدليت بها كثيرا من الانصار من قراء صحيفة الاخبار ، وكان مدار رد الشيخ أحمد على مقالي غريبا لا يتلعق بأصل الاشكال بل سلك سبيلا أخرى وهي قوله ان الحديث ضعيف لابالاضطراب في المتن كما قال بعض الحفاظ ولا بالانقطاع في بعض أسانيده كما قال غيرهم ولكن بدعوى أن سماك بن حرب الذي عليه مدار الحديث ضعيف واذا كان الحديث ضعيفا لا يثبت فلا حاجة الى البحث في الاشكال الذي وقع فيه فأثبت في محاجتي لهم أن أكثر النقاد وثقوا سماكا وهو من رجال مسلم ثم وجدت أن الشيخ احمد بن الصديق نفسه يحتج بسماك هذا في أحد كتبه وبينما المعركة جارية قد حمى وطيسها اذا برجل اسمه عبد القادر الجزائري كان من جماعتهم الطرقيين ثم صار من جماعتنا السلفيين يكلمني بالتلفون من طنجة ويقول قد جاءني السيد محمد الزمزمي بن الصديق وأخبرني أن أخاه الشيخ أحمد بن الصديق يريد الاجتماع بك لازالة ما حصل من الخلاف واصلاح ذات البين ولما كانت اقامتك في طنجة لا تطول فهو يرجو أن تعرفه باليوم الذي تتوجه فيه الى طنجة ليتم اجتماعكما وقد اقترحت على السيد الزمزمي أن يكون اللقاء الاول في بيتي فقبل ذلك ولا يخفى على من يعرف الاحوال هناك أن الشيخ الزمزمي لا يتنازل ليذهب الى رجل ليس في مستواه يضاف الى ذلك أنه كان من مريديهم فخرج عن طريقتهم وان تنزل الى أن يكلمه ويوسطه فلا يتنزل الى أن يأتي الى بيته ولكنه فعل كل ذلك رغبة في اصلاح ما وقع بيننا وهذا أمر يدل على عقل وفضل وانصاف لان هؤلاء الاخوة كان لهم مقام مرموق وأتباع وأعوان ، أما أنا فقد كنت غريبا ليس لي أنصار ولا أعوان وعبد القادر الجزائري تقدم ذكر حاله فقلت له لا حاجة الى تعيين اليوم لاني سأقدم طنجة وأقيم فيها ثلاثة أيام وفي أثنائها يمكن الاجتماع بالسيد محمد الزمزمي ولما قدمت اجتمعت فعلا به في بيت الجزائري وتحدثنا ساعتين فقال لي انك قدمت هذه البلاد بزى أفرنجي وهيئة أفرنجية ولم نعهد من أصحاب هذا الزى الا الكفر والالحاد ولم نكن نعرفك من قبل فظننا أن تدخلك في أمور الدين كتدخل كثير من أعدائه المفسدين ثم تبين لنا بيقين علمك وفضلك وصدقك فأراد أخي الشيخ أحمد أن ندعوك الى الصلح والتعاون على ما اتفقنا عليه من دعوة الناس الى اتباع حديث الرسول وترك التعصب للمذهب وكلانا

غريب فى هذه البلاد فى دعوتنا الى اتباع الهدى النبوى وكلاما طويلا فى هذا المعنى فقلت له أنا منذ قدمت هذه البلاد وخبرت أحوالها عرفتكم وعرفت دعوتكم وعزمت على أن أتعاون معكم فيما اتفقنا عليه ، وأما مـا اختلفنا فيه ، فكل منا يدعو الى ما يعتقد ، دون أن يتعرض بعضنا للطعن فى بعض ، فقال لى ان الاخ الشيخ أحمد يدعوك الى الغداء فى بيتنا غدا بعد الظهر فقبلت ، ولما وصلت الى الشيخ أحمد رحب بى واحتفل بى أعظم احتفال ووجدته قد دعا للغداء كثيرا من أعيان البلد ، ووضع لنا ثلاثة عشر لونا من الطعام باعتبار أنواع الحلوى ولم أر فى عمرى كله غداء بلغ ذلك العدد من الالوان ، ولما فرغ الناس من الاكـل دعانـى الى خزانـة الكتب التى يشتغل فيها بتآليفـه الكثيرة وليس فيها الا خزائن الكتب وحصير مفروش فى أرضها يقعد عليه ويشتغل بالتأليف عـلى الطريقة المغربية القديمة وكان فى امكانه أن يؤثث مكتبا كمكاتب الوزراء ولكنه زهد فى ذلك مع أنه كان يعيش معيشة الترف فى قصر فخم ولكنه أراد ان يترك خدمـة العلم تسير فى نهجها القديم وبعد محادثة ودية طويلة افترقنا على أن لا يتعرض بعضنا الى الطعن فى صاحبه ولكن كل منا يدعو الى ما يعتقد أنه حق ويرد ما يعتقد أنه باطل واستمررنا على ذلك مدة اقامتى بتطوان ونواحيها وقد استمرت من ربيع 1942 الى صيف 1947 ، وفى أثناء هذه المدة ألفت كتابا سميته الصراط المستقيم فى صفة صلاة النبى الكريم فقرظه الشيخ أحمد فى صحيفة الاخبار ، وبقى الامر فيما بيننا كذلك الى أن سافرت قافلا الى العراق لم يحـل ولم يتغير ، ولما سمعت وأنا فى تطوان أن الشيخ أحمد أفتى بزيادة (سيدنا) فى الاذان وأن مؤذنه يقول أشهد أن سيدنا محمدا رسول الله أنكرت ذلك ولم أتعرض لشخصه بسوء ، ولما وصلت الى العراق كتب الى أحد الاخوان أنه ألف جزءا سماه احياء المقبور فى استحباب البناء على القبور فأنكرت ذلك ولم أتعرض لشخصه بسوء ، وبذلك تعلم كما يعلم كثير من أهل طنجة وأهل تطوان ومنهم الاستاذ العالم الداعى الى الله على بصيرة ، فخر آل الصديق ورائدهم فى طريق الحق وفرطهم الى الهدى صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد الزمزمى بارك الله فى حياته ونفع بعلمه فتبين بما ذكرناه أن ما سطره هذا الناعق كله افتراء من بنات غيره وهنا أذكر الالفاظ البذيئة التى وصمنى بها كذبا وزورا ثم أنقضها بالتفصيل حتى يعلم من لا يعلم أنـه مفتر يكذب على الحاضرين ويعرض نفسه

قد رد عليه الشيخ الألباني حفظه الله في كتابه تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد فليرجع إليه.

لزيادة سخرية الساخرين ، فقد ألف هذا المسكين كتيبا سماه (التيمم فى الكتاب والسنة) خبط فيه خبط عشواء وملأه بسب العلماء الائمة المتقدمين والمتأخرين وهذا نص ما كتبه فى صفحة (57) فقد جاء الى طنجة رجل من هؤلاء الدعاة مدعيا محاربة البدع فأصبح ذات يوم حليقا فارسل اليه شقيقى الحافظ أبو الفيض من يسأله كيف يتفق حلق اللحية مع أمر النبى صلى الله عليه وسلم باعفائها وزعمه العمل بالسنة والدعوة اليها ؟ فأجاب السائل بقوله معنى الحديث أعفوا لحاكم ان شئتم فقال شقيقى للسائل ولم لم تقل له وأقيموا الصلاة ان شئتم ولا تقربوا الزنى ان شئتم فهذه هى السنة التى يدعو اليها هذا الضال وأمثاله ، وقد انتقل ذلك الضال الى بعض مدن الجنوب عاملا على بذر بذور الشقاق والتفرقة بين المسلمين وانى أعتقد أنه مستأجر من جمعية التبشير الانكليزية أو الامريكية لايقاع التفرقة بين المسلمين لان التفرقة بينهم هى الوسيلة التى ينال بها الاستعمار أغراضه .

فى هذا الكلام أنواع من البهتان . الاول : قوله فأصبح ذات يوم حليقا يواهم أننى جئت الى طنجة بلحية ثم حلقتها وهذا كذب محض يلعنه عليه خلق كثير لا يزالون أحياء يرزقون ، والحقيقة أننى جئت الى طنجة من برلين عاصمة ألمانيا بعدما أقمت فى تلك البلاد زهاء ست سنين لتحصيل العلوم العصرية وشهادة الدكتوراة الجامعية وقد حصلتها ولله الحمد فى مدة لا تزيد على أربع سنين ، وسبب توجهى الى طنجة أن سماحة المفتى السيد أمين الحسينى بارك الله فى حياته يعثنى الى الاستاذ الزعيم المجاهد عبد الخالق الطريس لغرض سياسى فيه خير للمسلمين المغاربة كما تقدم وكنت مدة اقامتى فى ألمانيا أحلق لحيتى متأولا حديث الامر بعفو اللحى على أن الامر للندب وقد خيل الى فى ذلك الزمان أن الاوامر الواردة فى خصال الفطرة كاحفاء الشوارب وعفو اللحى ونتف الابط وتقليم الاظفار ينبغى أن يسلك بها مسلك واحد فاما أن تحمل على الوجوب كلها واما أن تحمل على الندب كلها وأن حمل الامر الوارد فى اللحية وحده على الوجوب وحمل سائرها على الندب تناقض وكذلك قول النبى صلى الله عليه وسلم فى صبغ الشعر خالفوا اليهود والنصارى فانهم لا يصبغون ، واستأنست بأقوال بعض العلماء الذين سلكوا هذا المسلك وقد ذكرهم أخوه عبد العزيز فى تاليفه الذى رد فيه على أخيهما الاستاذ الزمزمى وهو لاشك يعرفه ثم ظهر لى

أن الداعي الى الله لا ينبغي له أن يعتمد على التأويل ولا يكون له عليه تعويل بل يجب عليه أن يكون قدوة حسنة في أقواله وأفعاله وسيرته فعفوتها ولله الحمد لا آخذ منها شيئا على أن حلق اللحية على ما ذهب اليه جمهور الائمة من التحريم لا يتعدى أن يكون من الصغائر ولا يصل الى حد الكبائر وقد بسط القول في ذلك شارح العقيدة الطحاوية انظر كلامه في ص 356 فقد اختار في حد المعصية الكبيرة أنها ما يترتب عليها حد أو توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب وهذا أمثل الاقوال اهـ. والصغيرة ضدها وهي ما لم يترتب عليها حد ولا توعد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب ثم قال وترجيح هذا القول من وجوه أحدها، أنه هو المأثور عن السلف كابن عباس وابن عيينة وابن حنبل (ض) عنهم وغيرهم ، ولا أقول ذلك تصويبا لحلق اللحية أو تهوينا لشأنه فان الواجب على كل مسلم أن تكون له في رسول الله أسوة حسنة وأن يبذل جهده في موافقة قدوته وامامه صلوات الله وسلامه عليه في الظاهر والباطن ولكني أعجب لهذا الانسان الذي يأتي بالطوام الكبرى التي لا تحلق الشعر بل هي الحالقة للدين والمروءة ثم لا يجد ما يطعن به في أحد الدعاة الى الله على بصيرة الا بالتشنيع عليه في معصية من الصغائر قد تاب منها وتركها وهذا من الافلاس .

الثاني زعمه أن شقيقه وهو عوض أبيه وليس له ولا عشر معشار علمه وعقله ، زعم أنه أرسل الى رسولا وهو كاذب مفتر فانه لم يرسل الى قط الا أخاه السيد الزمزمي في طلب الصلح كما تقدم .

الثالث قوله ، أني قلت له معنى الحديث اعفوها ان شئتم ، أقول فيه سبحانك هذا بهتان عظيم ، لو أرسل الى رسولا وأجبته بذلك فان العادة تقضي عليه أن يحضر دروسي في الجامع الكبير بتطوان وكان يحضرها فئام من الناس من الموافقين والمخالفين فلو قلت ذلك لسمعه الحاضرون وقد سئلت عن هذا الحكم في تلك الايام مرارا وتكرارا فأجبت بما تقدم من التأويل وكل من كان يحضر دروسي يعلم ذلك ولايشك في كذب هذا المفترى وسيزداد كذبه وضوحا حتى يصير كشمس الضحى ليس دونها غمام ومن يهن الله فما له مكرم وحينئذ يعلم أنه كان في ذلك كالباحث عن حتفه بظلفه وكالجادع بكفه ما رن أنفه فنعوذ بالله من الخذلان .

الرابع ، قوله وقد انتقل ذلك الضال الى بعض مدن الجنوب عاملا على بذر بذور الشقاق والتفرقة بين المسلمين ، أقول هذا مضرب المثال

رمتني بدائها وانسلت ، أتدرى أيها المأفون الذى يهرف بما لا يعرف لماذا انتقلت الى الجنوب لان الاستعمار الفرنسى كان قد نفانى من وطنى الجنوب ومن الجزائر وتونس أيضا ، ولم نر أحدا من المنفيين نفاه الفرنسيون مثل هذا النفى المشدد وبذلك تعلم ما أدركك من الشقاء حين تجرأت على ذكر الاستعمار بوقاحة ليس لها نظيـــــر .

يـا ليت لى مـن جلـد وجهك رقعـة فاقـــد منهـا حافـرا للادهــــم

مثلك يتجرأ على ذم الاستعمار ، وهل نشأت أنت ومن معك الا فى حجر الاستعمار وهل جلب عليك وعلى اخوتك الشقاء الا تقلص ظل الاستعمار .

الخامس ، أن هذا المفترى لما رأى دعوتى الى توحيد الله والتمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فـى مكناس ونواحيها قد أينعت وآتت أكلها شوى الحسد قلبه فسمى ذلك شقاقا وتفرقة بين المسلمين ولو كان له من الحياء والتفكير فيما يقول مثقال ذرة لاستحى أن يذكر التفرقة بين المسلمين ويرمى بها بريئا حنيفا ويحتمل بهتانا واثما مبينا ، وهل كتابك هذا من أوله الى آخره الذى شتمت فيه الاولين والآخرين لا شتم الاشراف بل شتم أرذال السوقـــة الاشقاق ونفاق وتفرقة بين المسلمين والا فمسألة التيمم واضحة وقـد قتلها الناس بحثا من قبل أن تميز والحق فيها واضح أنا أدعو الناس الى أمرين فى كل مكان دعوت فيه الى الله فى الشرق والغرب وفى أوروبا أولهما ، تحقيق معنى لا اله الا الله بجعل جميع أنواع العبادة ، من دعاء واستغاثة ، واستعانة فيما يخرج عــن الاسباب ، ونــذر ، وحلف ، وتوكـل ، واستعاذة ، واستمـداد ، وعبودية ، وخوف ، ورجاء ، وجعل شيء من الاحكام الخمسة ، وصلاة ، وصيام، وصدقة ، وحج ، وسفر يراد به التقرب الى الله ، وما أشبه ذلك ، لله وحـده لا شريك له لا يجعل شيء منه ولا مثقال ذرة لملك مقرب ولا لنبى مرسل ولا غير مرسل ولا لصديق ولا لصالح ولا لاحد من الجن والانس فهذا مجمل الامـــر الاول .

الامر الثانى ، تحقيق شهادة أن محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن لا يحول دون اتباعه حب شيء من المحبوبات الثمانيـــة المذكورة فى قوله تعالى (قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم

واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين) ويدخل فى العشيرة المذهب والطريقة والحزب ، ومن يعد هذين الاصلين اللذين قامت عليهما الحنيفية السمحة ملة ابراهيم وخير أبنائه بل خير خلق الله على الاطلاق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من يعد ذلك شقاقا وتفريقا بين المسلمين الا شيطان رجيم أفاك أثيم .

السادس قوله : وانى أعتقد أنه مستأجر من جمعية التبشير الانكليزية او الامريكية لايقاع التفرقة بين المسلمين لان التفرقة بينهم هى الوسيلة التى ينال بها الاستعمار أغراضه . أقول :

واذا استوت للنمل اجنحة حتى يطير فقد دنا عطبه

بهذا الكلام أمكن هذا الغبى من نفسه وعرضها للهلاك الا تعلم أيها البليد أن الناس لهم أعين يبصرون بها وآذان يسمعون بها وقلوب يفقهون بها فاقرب الناس اليك من حيث السكنى أهل طنجة يكذبونك ولو استطاعوا لرجموك بالحجارة فاسألهم ماذا صنع السفير الفرنسى حين رجع الحلفاء الغربيون الى طنجة حين دب الضعف الى قوة ألمانيا الهتلرية يخبرونك ويخرجون لك الجريدة الرسمية بالعربية والفرنسية وفيها ما معناه : ان محمدا تقى الدين الهلالى من وكلاء المانيا وقد طلب السفير الفرنسى من السفير الانكليزى والسفير الامريكى يعنى سفير الولايات المتحدة الامريكية أن يوافقوه على القبض عليه متى دخل حدود طنجة الدولية فوافقه السفيران على ذلك وحينئذ انهالت على المحادثات الهاتفية من طنجة تحذرنى من دخولها فهلا سألت الناس يا مغرور قبل أن تسطر ذلك الخزى المبين ؟ ولما أردت السفر قافلا الى العراق كتبت الى السفارة المصرية من تطوان أطلب منها سمة الدخول الى القطر المصرى فبعث الى قنصلها استئمارة طلب منى أن أملأ مواضع البياض فيها وهى مكتوبة بالانكليزية ، ومن جملة ذلك هل عندك سمة تمكنك من الخروج من مصر الى لبنان ولم أجد ما أملأ به هذا الموضع فكتبت الى أمير البيان المجاهد الاكبر حقا وصدقا الامير شكيب أرسلان وكان لايزال منفيا فى جنيف بسويسرا فكتب الى يقول : ان لى فضلا على رئيس الجمهورية اللبنانية (بشارة الخورى) فانى

أنقذت أباه من الموت فى زمان حكم الاتراك العثمانيين ولم أقتصر على ذلك حتى
طلبت له راتبا من الدولة العثمانية فاكتب اليه كتابا وابعثه الىَّ وأنا أشفعه
بكتاب آخر من عندى ليبعث اليك سمة الدخول الى لبنان لتتمكن من الدخول
الى مصر فكتبت اليه الكتاب وبعثه هو الى رئيس الجمهورية اللبنانية فجاءنى
كتاب من وزارة الخارجية اللبنانية موجه الى القنصل الفرنسى فى تطوان
يلتمس منه أن ينوب عن وزارة الخارجية اللبنانية فى اعطاء الدكتور محمد
تقى الدين الهلالى سمة الدخول الى لبنان وكان هذا القنصل قد طلب من
المستعمرين الاسبانيين انزال العقوبة بى ثلاث مرات للمقالات التى نشرتها
فى صحيفة الحرية فى محاربة الفرنسيين ، والدفاع عن الملك المجاهد الراحل
محمد الخامس قدس الله روحه على رغم أنف أصحاب الطرائق المبتدعة الذين
كانوا يعادونه خدمة للاستعمار وخيانة للمسلمين فأخذت كتاب وزارة الخارجية
وتوجهت الى السفارة الفرنسية فى تطوان ولم يكن لهم فى ذلك الوقت سفير
وانما كان لهم قنصل فلما رآنى عبس وبسر ولم يأذن لى فى الجلوس على
الكرسى بل تركنى واقفا انتقاما منى لجهادى الذى أقض مضجعه واسم هذا
القنصل سوفوليس ولما قرأ الكتاب قال لى بعنف وغضب هؤلاء قد استقلوا
ولم يبق بيننا وبينهم علاقة فقلت له اكتب لى هذا الجواب فقال أنا لا أستطيع
أن أكتب حتى اكتب الى المقيم العام فى الرباط فهو الذى يستطيع أن يجيب
فى هذه القضية وسأكتب اليه فانتظر الجواب ، فقلت كم أنتظر ؟ فقال شهرين
فانتظرت شهرين ثم جئته فلقينى بغير الوجه الاول ووضع لى كرسيا للجلوس عليه وقال ان
المقيم العام فى الرباط قد وافق على اعطائك سمة الدخول ولكن بشرط أن
لا تمر لا على الجزائر ولا على تونس أما فرنسا فيمكنك المرور عليها ولكن بشرط
أن نتحقق أن عندك ما يكفى للنفقة على نفسك فى مرسيلية لمدة شهر لان
البواخر التى تسافر منها الى بيروت بعد الحرب قليلة فقلت له أعطنى سمة
الدخول الى لبنان ودعنى أفكر فى طريق سفرى فان قررت السفر بطريق
فرنسة رجعت اليك ، ثم أراد أن يكفر عن ذنوبه السابقة فقال ان أعداء فرنسة
ينفقون الاموال الكثيرة لبث الفتنة والعداوة بين الفرنسيين والمغاربة وينبغى
للفرنسيين والمغاربة أن يتعاونوا على المصلحة العامة ولا يندفعوا مع الاعداء
الذين لايريدون بهذا الوطن الا شرا فقلت له أما قولك ان أعداء فرنسة ينفقون

الاموال الى آخره فأنا لست ممن يشترى بالاموال وانما أنا من المدافعين عن أوطانهم وقد اتفق العقلاء والنبلاء على أن هذا مقصد شريف ثم قلت له ان السفير الفرنسى فى طنجة ذهب الى السفير الانكليزى وسفير الولايات المتحدة الامريكية وقال لهما ان محمدا تقى الدين الهلالى وكيل لألمانيا وطلب منهما الموافقة على نفيى من طنجة وأنا لست وكيلا لألمانية وانما أنا وكيل للمغرب وهو وطنى أدافع عنه فقال لى لست مسؤولا عما يقوله السفير الفرنسى فى طنجة وانما أريد أن تعلم وتقول ان مسيو سوفوليس القنصل الفرنسى بتطوان تلقانى باستقبال حسن فأردت امتحانه وقلت له اننى عازم على السفر الى العراق وانت تعلم أنى منفى من وطنى فى الجنوب منذ زمان طويل فاذا أردت ان اتوجه الى الرباط لأودع أستاذى شيخ الاسلام محمد بن العربى العلوى وغيره من الاصدقاء أتأذن لى فى ذلك فقال ذلك ليس الىَّ ولا هو بيدى وانما هو بيد المقيم العام فى الرباط فان أردت أن أكتب اليه كتبت اليه وتنتظر الجواب ، فقلت لاتكتب اليه الآن حتى أعزم على ذلك فقال لى اذهب الى الكاتب يعطيك سمة الدخول الى لبنان فذهبت اليه فطلب منى ثمانين بسيطة أى درهما اسبانيا فسلمتها له فأعطانى السمة ، هذا ما كان من أمر الفرنسيين معى ومعاملتهم لى فى تطوان وطنجة ونسيت أن أقول ان صحيفة الحرية التى كانت لسان حزب الاصلاح الوطنى عطلت بسبب مقالاتى التى أغضبت القنصل الفرنسى ثلاث مرات كل مرة شهرا وغرمت ألف بسيطة فى كل مرة أما عداوة الانكليز لمؤلف هذا الكتاب فهى كالشمس فى رابعة النهار ولولا أن مؤلف كتاب التيمم يعيش بين جدران الزاوية وفى سطحها للاطلاع على العورات أو فى المقاهى والمتنزهات على خلاف ما يدعيه من التصوف الكاذب ولا يعرف من أخبار الدنيا الماضية والحاضرة شيئا لعرف عداوة الاستعمار ومحاربته لى التى بلغت فى الوضوح عند أهل المغرب والمشرق أنها لاتخفى الا على أعمى البصيرة فمن أدلة عداوة الانكليز ومحاربتهم لى أنهم سبونى مرارا وتكرارا فى اذاعتهم العالمية من أول ابتداء الحرب الى نهايتها والسامعون فى مشارق الارض ومغاربها لذلك لايزالون ، أحياء يرزقون ، وهل علمت يا مسكين أننى أول ما لقيت المجاهد الكبير السيد أمين الحسينى فى برلين نوه بجهادى ومحاربتى للاستعمار بلسانى وقلمى وخطبى المجلجلة فى اذاعة برلين العربية التى كان

يهتز لها طربا كل مجاهد مخلص فى الشرق والغرب وكان يشرق بها كل مدجل من عبيد الاستعمار خائن غدار وبلغ صاحب السماحة الحاج أمين الحسينى بارك الله فى حياته من تعظيمى الى أن قال ذات يوم للزعيم رشيد عالى الكيلانى كبير آل الشيخ عبد القادر الكيلانى ورئيس وزراء العراق سابقا الـذى قـاد ثورة مروعة على الاستعمار البريطانى فى العراق قال له ما نصه أسأل الله أن لا يحرمنا من وجود أمثال الدكتور محمد تقى الدين الهلالى وقال كلامـا أعظم من هذا تركته اقتصادا واستمر على التنويه بجهادى الى يومنا هذا وآخر مرة نوه بجهادى كانت فى قصره بظاهر بيروت فى الصيف الماضى حين دعانى الى مأدبة جمعت كثيرا من أهل الفضل والعلم والادب وأورد لك هنا أيها المسكين شهادة أخرى وزنها عند المجاهدين ثقيل ألا وهى شهادة المجاهد المغربى العظيم السيد محمد بن عبد الكريم قائد ثورة الريف المشهورة التى بهرت العالم لانه حارب دولتين أوروبيتين هما فرنسة واسبانية لمدة سنتين لما ذهبت لزيارتـه بالقاهرة فى صيف سنة سبع واربعين وتسعمائة وألف بتاريخ النصارى كان مريضا فى الطبقة الرابعة ملازما للفراش وجاء خلق كثير الى مقصورة الاستقبال من الصحفيين ورجال الدولة المبرزين فاستقبلهم اخوه وسميه المجاهد محمد بن عبد الكريم واعتذر لهم عن حضور الامير بانه مريض ولكن لما اخبر بوجودى مع الزائرين أمر فـى الحال بـأن أحضر عنده فجلست عـلى كرسى الى جانب سريره فتلقانى بغاية الشوق والمحبة والترحيب وقال لى لم يكن شىء يسلينى فى منفاى وغربتى مثل خطبك البليغة الرائعة التى كنت تلقيها فى اذاعـــة برلين العربية فاثنيت على جهاده وفضله فقال لى انت مجاهد اكثر منى ، وما كنت لأغتر بهذه الكلمة التى صدرت من هذا الرجل العظيم لشدة اعجابه بتلك الخطب فكيف مع ذلك تتجرأ أن تصمنى بخدمة الاستعمار أو اخذ الاجرة من دعاة النصرانية الاوروبية أو الامريكية ومن يصدقك فى هذا ومتى رأيت أنت أو رأى أحد من البشر غيرك جماعة من دعاة النصرانية تبذل الامـوال لدعوة الناس الى توحيد الله واتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد انقلبت هذه الجماعة من دعوتها الى النصرانية الى الدعوة الى الدين الحنيف ملـة ابراهيم ومن كان يعطينى أجرة على الدعوة الى الله فى صعيد مصر حين كنت أنت لـم تخرج الى الدنيا فى سنة 1341 هـ ومن كان يعطينى أجـرة الى الدعوة الى الله

في تطوان ومن كان يعطيني أجرة في الدعوة الى الله في بغداد . أنا لـم أعش بالدين قط مع أني ولله الحمد على دين الحق .

وما أنا بالباغي على الحب رشوة ضعيف هوى يبغى عليه ثوبـــا

ولكنك أنت ومن يحلب فـي انائك تعيشون وتأكلون بدين الشرك وتصـدون الناس عن سبيل الله وتبغونها عوجا وسنرى من يصدق الناس كلامه أأنت أم أنا ولكن كما جاء في المثل بل هو من كلام النبوة القديمة اذا لم تستحي فاصنع ما شئت ونظمه بعضهم فقـال :

فلا والله ما في الديـن خير ولا الدنيـا اذا ذهـب الحيـاء
اذا لـم تخش عاقبة الليـالي ولم تستحي فاصنع مـا تشاء

وقـد سمعت بعدما رجعت مـن العراق الى المغرب بعد الاستقلال أن أخاك العلامة المحقق الشيخ احمد بن الصديق الذي تدعى الاقتـداء بـه زورا وبهتانا وأنت سالك غير سبيله حين رجـع المجاهد الاكبر فـي المغرب العربي محمد الخامس رحمة الله عليه الى عرش آبائه الاكرمين توجه اليه وطلب أن يدخـل عليه للسلام والتهنئة فرفض الملك أن يأذن لـه ثم توجـه الى مصر وسمعت أن الحكومة المصرية اتهمته وأخاه عبد الله بالتجسس فحكمت عليه بسجن طويـل وعلى عبد الله بالسجن المؤبد كما يسمونه وأسفت لذلك لما أعرف فيه من العلم والفضل ولما عاملني به من البر والكرم واني لارجو أن يكون الله سبحانـه وتعالى قد ختم له بالحسنى فتاب من الطريقـة ومن كل مـا كان مخالفا لعقيدة السلف الصالح والله على كل شيء قدير ، أما أنت فـلا أعرفك ولا تعرفني ولكن غلبت عليك شقوتك فتعرضت لشتمي بدون مناسبة ، أما قولك فـي الوهابية فسأفرد له كتابا علميا ليس فيه لغو ولا تهور ولا شتم ولا كذب وسأسميـه : (الدفع بالتي هي أحسن) ، وقد جنيت على نفسك ، وعلى أهلها براقش تجني ، وأقول لك غير مفتخر :

وان لساني شهـدة يشتفي بها وهو على من صبه الله علقـم

وأنشدك أيضا :

دعاني لشب الحرب بيني وبينه فقلت له لا لا هلم الى السلم
فلمـا أبى ألقيت فضـل عنانه اليه فلم يرجع بحزم ولا عزم
فكان صريع الخيل أول وهلـة فبعدا له مختار جهل على علم

وقد تعرض لى لما كنت مقيما فى الشمال زمان الاستعمار رجال لاتساوى أنت قلامة ظفر أحدهم فانقلبوا خائبين لانى بالله استعين واياه استنصر وأستهدى وأدعو الى سبيله على بصيرة لا أريد بدعوتى الا وجه الله ومنه أرجو القبول فقل لى بالله أى فائدة فى الدعوة الى رد التقليد وحده مع نصر الشرك الاكبر وعقيدة الاتحاد وتقديس امامها ابن العربى الزنديق الذى أجمع الائمة على كفره ، ولا يتسع المقام هنا لذكر أسماء الائمة الذين حكموا بكفره فى عصور مختلفة وقد ألف الامام ابراهيم بن عمر البقاعى الحافظ كتابين فى اقامة البرهان على كفر ابن الفارض وابن عربى أحدهما سماه تنبيه الغبى الى تكفير ابن عربى ، والثانى سماه تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد ، أقام البرهان فيه على كفر ابن الفارض وأمثاله من أصحاب وحدة الوجود ونقل فى هذين الكتابين نقولا وافية شافية عن اثنين وثلاثين اماما من بلدان مختلفة فى عصور مختلفة نقتصر على ذكر أسماء اثنى عشر اماما منهم لهم قدم صدق عند جميع المسلمين ، الاول ، سلطان العلماء الامام عز الدين بن عبد السلام ، الثانى الامام ابن دقيق العيد ، الثالث ، الامام الحافظ زين الدين العراقى ، الرابع ، شيخ الاسلام أحمد بن تيمية ، الخامس ، تلميذه الحافظ شمس الدين ابن القيم ، السادس ، الامام أبو حيان الاندلسى ، السابع ، الامام تقى الدين السبكى ، الثامن ، الامام جمال الدين ابن هاشم صاحب المغنى ، التاسع ، الحافظ محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى مؤلف تذكرة الحفاظ ، العاشر ، الامام الحافظ تقى الدين الفاسى مؤلف تاريخ مكة الحادى عشر ، امام الصوفية فى عصره أبو القاسم القشيرى ، الثانى عشر ، الامام السهروردى مؤلف عوارف المعارف ، فأى امرىء عنده ذرة من الايمان والنصيحة لنفسه وللمسلمين يخالف هؤلاء الائمة ويقدس الشيخ الاكفر ابن عربى الحاتمى وشيعته لاجرم أنه لا يفعل ذلك الا زنديق مثلهم ولا يجوز التوقف فى الحكم عليهم ، قال الامام البقاعى فى كتابه ، تحذير العباد المتقدم الذكر ما نصه: ولا يسع أحدا أن يقول أنا واقف أو ساكت لا أثبت ولا أنفى لان ذلك يقتضى الكفر لان الكافر من أنكر ما علم من الدين بالضرورة ومن شك فى كفر مثل هذا كفر ولهذا قال ابن المقرى فى مختصر الروضة . من شك فى اليهود والنصارى وطائفة ابن عربى فهو كافر.

الحدث الثاني فى تطوان و نواحيها

وضعت حاشية على كتاب كشف الشبهات لشيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب وطبعتها ونشرتها ولكنني استعملت فى ذكر اسمه ما يسمى فى مصطلح الحديث بتدليس الشيوخ وهو جائز بل مستحسن اذا أريد به الاصلاح وذلك ان الشيخ يكون له اسمان اشتهر بأحدهما ولم يشتهر بالآخر فيذكره الراوى عنه بالاسم الذى لم يشتهر به لمصلحة فى ذلك اما اذا فعل ذلك ليوهم الناس علو سنده وترفعه عن الرواية عنه ليوهم الناس أنه لا يتنزل للرواية عن مثله لصغر سنه أو عدم شهرته وغير ذلك من حظوظ النفس الامارة فهو مذموم وقد سميت الشيخ محمد بن عبد الوهاب محمد بن سليمان الدرعى فنسبته الى جده ثم نسبته الى الدرعية وذلك حق فهى بلدته ولكن لم يشتهر بذلك وزاد الامر غموضا ان فى المغرب كورة تسمى درعة والنسبة اليها درعى فنجحت فيما قصدته من ترويج الكتاب فقد طبعت ألف نسخة فبيعت فى وقت قصير ولم يتفطن أحد لذلك حتى الشيخ أحمد بن الصديق مع سعة اطلاعه وعلو همته فى البحث وكثرة ما فى خزائنه من الكتب بقى فى حيرة لانه بحث فى تاريخ المنسوبين الى درعة فلم يجد أحدا منهم يسمى بذلك ولا أثر عنه هذا الكتاب فبعث الى يسألنى عن هذا المؤلف من هو فأخبرته بالحقيقة ، ولما اطلع العالم الاجل مفتى المملكة العربية السعودية وشيخ شيوخها الشيخ محمد بن ابراهيم رحمة الله عليه على هذا العمل استحسنه كل الاستحسان . وانما فعلت ذلك لان المتأخرين من رجال الدولة العثمانية حرضوا شرار العلماء فى جميع البلاد الاسلامية على تشويه سمعة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وكذبوا عليه وأوهموا أتباعهم أنه جاء بدين جديد وأنه يتنقص جانب النبى الكريم ويكفر المسلمين الى غير ذلك من الاكاذيب وقد تبين لاكثر الناس بطلان تلك الدعوى وعلموا علم اليقين أن محمد بن عبد الوهاب من كبار المصلحين الذين فتح الله بدعوتهم عيونا عميا وآذانا صما وأنه أحيى العمل بكتاب الله وسنة رسوله فى جزيرة العرب بعدما كاد يندثر والى الآن لا يزال بعض الغربان ينعقون بسبه كالغراب الذى تقدم ذكره وذلك لا يضره ان كانوا مسلمين فان سبهم له يجعل حسناتهم فى صحيفته وان كانوا مشركين فان الله يزيدهم عذابا، ولما طبع هذا الكتاب

غضب عباد القبور وأصحاب الطرائق وخطب كثير من أئمة المساجد خطبة الجمعة ونبهوا المستمعين الى ما فى هذا الكتاب من الضلال بزعمهم لان توحيد الله عندهم أعظم الضلال ولكن لم يستمع لهم أحد ، أما العلماء المحققون ، كالاستاذ محمد الطنجي والاستاذ المجاهد عبد السلام المرابط والاستاذ العبقرى عبد الله كنون فانهم رحبوا بطبع هذا الكتاب وأثنوا عليه وعلى مؤلفه وناشره ولا يضر السحاب نبح الكلاب .

ما ضر بدر السما فى الافق تنبحه سود الكلاب وقد مشى على مهل

ثم طبعت رسالة زيارة القبور مع حواشي قليلة لشيخ الاسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية وسميته احمد بن عبد الحليم الحرانى ولم أذكر لفظ ابن تيمية للعلة السابقة الذكر فراج الكتاب وانتشر ونفع الله به المسلمين ولما بعثت من كل من الكتابين نسخة الى الشيخ محمد بن ابراهيم رحمة الله عليه فرح بنشرهما واستحسن الطريقة التى سلكتها لبعد نظره ووفور عقله وحكمته، وقد جربت فى بلاد المغرب فى الشمال والجنوب أن نشر كتب التوحيد واتباع السنة يتوقف على نجاح الدعوة الى الله فى المساجد فاذا درس الداعى كتابا من كتب التوحيد وبين للمستمعين ما فيه من كنوز العلم والحكمة يرغب المستمعون فى اقتناء ذلك الكتاب وبقراءته تتسع معرفتهم للحق ويزدادون اطمئنانا ويقوى ايمانهم وتندفع عنهم الشبهات فمن ذلك أننى درست فى الجامع الكبير كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد لشيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب وختمته فى ذلك المسجد مرتين فانتشر هذا الكتاب انتشارا عظيما حتى أنى طلبت من جلالة الملك فيصل جزاه الله عنا وعن المسلمين أحسن الجزاء ، بواسطة فضيلة الشيخ عبد الملك بن ابراهيم بارك الله فى حياته أن يمدني بنسخ من فتح المجيد فأمر بارسال ثلاثمائة وثلاث وأربعين نسخة بالبريد الجوى فبدا لى أن لا أوزعها مجانا لامرين أحدهما أننى لا آمن أن تقع بعض النسخ فى أيدى أعداء التوحيد فيحرقوها وقد رأيناهم يفعلون ذلك فى المشرق والمغرب فاذافرضنا أنشخصا أوأشخاصابلغ بهمالتعصب الىأنيشتروا الكتابويحرقوه فان ذلك لا يضرنا لاننا نجمع دراهمه ونطبعه مرة أخرى ولاشك أنه لا يفعل ذلك منهم الا قليل لان الناس مجبولون على حب المال والبخل به ولا يبذلونه الا فيما هو احب منه اليهم ، الامر الثانى ما قاله المؤلف الانكليزى الطائر الصيت

(برنارد شو) ان الكتاب الذى لا يدفع ثمنه لا يقرأ فبيعت تلك النسخ كلها الا قليلا منها منحته للمستحقين ولم آخذ منهم ثمنا لعلمى بفقرهم وصدقهم بيعت فى مدة قصيرة وصار الكتاب فى حكم المفقود وكنت أبيع النسخة بستة دراهم فقط ولم يكن يروج الا فى البلدان التى تلقى فيها دروس التوحيد كمكناس وتطوان وأرفود ، أما مكناس وأرفود فاننى ألقى فيهما دروسا فى التوحيد وأما تطوان فقد تقدم أنى دعوت الى التوحيد فيها وفى هذا الزمان يوجد فيها داع وهو أخى الاستاذ محمد العربى الهلالى وصار الناس فى هذه النواحى يبحثون عن هذا الكتاب ليشتروه بضعف ثمنه فلم يجدوا منه شيئا ، ولما ذكرت ذلك لصاحب السماحة الاستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز أمتع الله المسلمين بطول بقائه وأخبرته أننى جمعت من بيع تلك النسخ ألفا وثمانمائة وخمسين ريالا سعوديا قال لى وأنا أتبرع بستمائة ريال تضاف الى ذلك ونشترك فى طبعه من جديد ، والكتاب الآن تحت الطبع وذكرت ذلك أيضا للعالم الجليل بقية السلف الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ أمتع الله المسلمين بطول بقائه فوعدنى بتحصيل ألف نسخة وهو كريم لاشك أنه يفى بوعده وهذا الكتاب مع وجود الداعى الناجح فى دعوتـه يساعد على نشر الدعوة مساعدة عظيمة لاينقضى منها العجب أما البلد الذى ليس فيه داع فانه لا يروج فيه أصلا فقد بعثت خمس نسخ الى مدينة مشهورة فى المغرب فبيع منها فى سنة ثلاث نسخ فقط .

الحدث الثالث . هم جماعة من الناس بقتلى وهذا الحدث فيه عبرة لمن اعتبر فانى أصبت بداء الربو فى تطوان واشتد على ففرح المشركون عباد القبور وأصحاب الطرائق وقالوا ان الولى الاكبر رئيس الاولياء فى تطوان واسمه السعيدى وله ضريح عليه قبة يعبده كثير من الناس واذا قحطوا يذهبون اليه ويسألونه المطر ويوافقهم سفهاؤهم الذين يسمونهم فقهاء فبينما أنا مريض ملازم للفراش فى بيت منفرد خارج تطوان وزجاج طاقته مكسور فمن أراد أن يرمينى برصاصة لا يحتاج الا الى حجر واحد يضعه الى جانب الجدار فيطل على ويرمينى ، بينما أنا كذلك جاءنى أحد تلامذتى وهو السيد محمد العبودى فقال لى ان فلان جاءنى وقال لى انه هو وأمير قبيلة بنى عروس وجماعة معهم عدد الجميع خمسة وعشرون رجلا قد اجتمعوا فى بيت أحدهم وتعاهدوا على قتلك وجمعوا الدية حتى اذا كان لك ورثة يدفعونها لهم وقال لى

ان صاحبكم فى حكم الاموات فعما قريب نقتله ونريح الناس من شره لان الوقاحة بلغت به الى أن طعن فى جدنا القطب عبد السلام بن مشيش قال لى ذلك وأنا مريض ملازم للفراش كما تقدم فقلت (لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، قل هل تربصون بنـا الا احدى الحسنيين الآية) ولما أصبحت تحملت كلفة المشى الى الزعيم عبد الخالق الطريس رحمه اللـه وأخبرته الخبر فقال لى ان هذا الرجل ومن معه هم أتباع وأقارب خالد الريسونى أمير العرائش وقد أطلق المستعمرون يده يفعل ما يشاء ففوض أمرك الى اللـه وتوكل عليه فقلت لـه هذا هو الرأى الذى عزمت عليه وانما قصدت أخبارك ومضت على ذلك سنتان وأنا أقاسى ألم الربو وأبيت الليالى الطوال جالسا اسعل وألهث وكلما اشتدت نوبة الربو تخور عزيمتى وأقرر فى نفسى أننى متى أقلعت عنى هذه النوبة أذهب الى القنصل الفرنسى وأستسلم وأطلب العفو لانى أعلم بواسطة الاطباء أن دوائى هو الهواء الناشف والاراضى الشمالية التى بأيـدى الاسبانيين كلها رطبة قريبة من البحر الذى كان يسمى بحر الروم ويسمى الآن عند الاوروبيين ومن تبعهم بما معناه البحر الابيض المتوسط وهو الذى عليـه مراسى شمال المغرب والجزائـر وتـونس وطرابلس التى تسمى اليـوم ليبيا والاسكندرية وبيروت ومراسى أوروبا والبلاد التركية فأعرض مكان فى هـذا القسم من المغرب لا يزيد عرضه على ثلاثين ميلا وهو مستطيل مـن الغرب الى الشرق ولكنى حين تزول عنى نوبة الربو تعود الى شجاعتى وتجلدى بقيت على ذلك ثلاث سنين ونصفا الى أن يسر الله لى الرجوع الى العراق ولم أستسلـم وتقدمت محاورتى مع القنصل الفرنسى فى تطوان وقد فررت من الرطوبة الى غرناطة من بلاد الاندلس وأقمت فيها أربعة أشهر ولكنها هى أيضا ليست بعيدة من البحر ثم رجعت الى تطوان وقيل لى ان مدينة شفشاون على جبل عال ثم انها بعيدة من البحر بنحو خمسة عشر ميلا فلو جربت الاقامة بها فسافرت اليها يرافقنى تلميذى الحاج أحمد هارون بارك الله فيه فلما أردنا أن نأخذ غرفة فى الفندق الجميل المخصص للسائحين امتنع صاحبه وهـو نصرانى اسبانى أن يعطينا غرفة لما رآنى أسعل وألهث وأبصق فى كل حين ورأى ان ذلك يتقزز منه النازلون فى الفندق وكلهم من المترفين فبقيت فى مكتب الفندق جالسا على كرسى أفكر أين أنزل فجاءنى رجل أبيض أشيب تدل هيئته على أنه من اعيان البلد

فقال لى تعرفنى قلت لا فقال لى انا أحمد الريسونى وانا من المحبين لك وأنـا مستعد لانزالك فـى بيتى على الرحب والسعة وسأكون سعيدا باقامتك عندى ما شئت من الزمن ولكن الحكومة سنت قانونا يمنعنا من انزال الضيوف عندنا فى الليلة الاولى ويوجد هنا فندق حقير يمكن أن تمضى فيه هذه الليلة وفى الغد تنزل فى بيتى فقلت له جزاك الله خيرا ، فأمضيت تلك الليلة فى ذلك الفندق الذى أخبرنى به ثم نزلت عنده وبقيت عنده بضعة أشهر وأكرمنى غاية الاكرام وحين استقررت فى بيته حكى لى حكايـة المؤامرة على قتـلى بالتفصيل فقال لى بلغنا أنك تطعن فى كرامات الاولياء وولايتهم وتطعن بالخصوص فى جدنا مولاى عبد السلام بن مشيش فغضبنا لذلك وعزمنا على قتلك وجمعنا ديتك أنا وفلان وأمير بنى عروس ومعنا اثنان وعشرون رجلا ولم يبق لنا الا أن نشاور رئيسنا سيدى خالد الريسونى فذهبنا اليه ثلاثتنا وتكلم أمير بنى عروس وهو يبكى وقال يا ابن العم لا خير فى الحياة بعد أن نسمع القدح والطعن فى شيخ الشيوخ وامام العارفين جدنا عبد السلام بن مشيش والذى يطعن فيه وينتهك حرمته رجل غريب حقير وهو فلان وسمانى وقد عزمنا على قتله وجمعنا ديته وما بقى لنا الا اذنك فأيدت أنا وفلان كلامه واذا بالامير خالد يتكلم ويقول ان محمدا تقى الدين الهلالى عالم من خيرة العلماء وأنتم لا تعرفونه وأنا أعرفه وجدنا عبد السلام عالم فاتركوا العلماء اذا تكلموا بعضهم فى بعض فليس للجهال أن يتعرضوا لهم ثم قال لنا أيكم سمع طعنه فى جدنا فقلنا هذا متواتر على ألسنة الناس فقال الناس يكذبون ويفسدون فى الارض ولا يصلحون كل منكم ينصرف الى شأنه واتركوا هذا الامر فهذا ليس من شأنكم قال فأما أمير بنى عروس فقد رضى بقوله ولم يبق فى قلبه شىء وقال يا ابن عمى أنت عالم ونحن جهال اذا أخطأنا تردنا الى الصواب قال أما أنا وفلان ولم أسمه لانه حى يرزق ولم يبلغنى ندمه على ذلك ، فاننا لم نقتنع بما قاله لنا سيدى خالد ولكننا لا نستطيع أن نعمل شيئا بدون رضاه قال فتفرقنا فانطلق فلان الى أهله وتوجهت أنا الى تطوان لا ألوى على شىء حتى لقيت وزير الاوقاف محمد بن موسى فقلت أيها الوزير أما تخاف الله كيف تعطى من أوقاف المسلمين خمسمائة بسيطة لهذا الضال المضل الهلالى الذى ما ترك أحدا الا طعن فيه طعن فى مذهب الامام مالك ورجاله وطعن فـى الاولياء كلهم وأنكر كراماتهم وبلغت به الوقاحة الى أن طعن فى جدنا القطب

عبد السلام بن مشيش قال فقال لى الوزير أنت سمعت منه ما ذكرت قلت لا ولكنه خبر متواتر قال فقال لى لا ينبغى لنا أن نحكم بقيل وقال انه يلقى ثلاثة دروس فى كل أسبوع فماذا يضرك أن تحضر دروسه وتسمع كلامه قال فقلت افعل ان شاء الله قال واقمت أسبوعا فى تطوان حضرت دروسك فيه فما سمعت الا خيرا وندمت على مـا كان منى وقد مضت على سنتان طالما هممت أن آتيك وأطلب منك العفو فلـم اوفق الى أن سنحت لى هذه الفرصة السعيدة فحياك الله وأهلا وسهلا بك. ووجدت أن هواء شفشاون خصوصا فى الصيف أقـل ضررا من هواء تطوان فبقيت فيها خمسة أشهر الى أن حدثت الحادثة الآتـى ذكرها ان شاء الله .

معركة مع شيخ متصوف من أهل تطوان

كان هذا الشيخ ولا أسميه كأكثر متصوفة الوقت آلة بيد المستعمرين يمدحهم ويثنى عليهم وقد ولوه وزارة العدل فى وقت من الاوقات وجعلـوه رئيسا للمجلس الاسلامى الاعلى فى وقت آخر فضيفنى أول مـا قدمت تطوان وأملى على الحديث المسلسل بالاولية الى سفيان الثورى عن عمرو بن دينار عن أبى قابوس مولى عبد الله بن عمرو عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم الراحمون يرحمهـم الرحمن تبارك وتعالى ارحموا من فى الارض يرحمكم من فى السماء أخرجه جماعة منهم البخارى فى الادب المفرد وأبو داود والترمذى وصححه . وفعل ذلك طمعا أن ارويه عنه وأنا لا أروى شيئا عن طرقى وهذا الشيخ المفتون تجانى فنسأل الله العافية ، فلما رآنـى جردت السيف فى الدعوة الى التوحيد ومحاربة البدع ذمنى فى دروس وعظه فهجوته بثلاث قصائد ضاعت منى الاولى وهى التى أقضت مضجعه ومن عادتى اذا أردت أن أهجو أحدا أن أبحث عن عيوبه التى يؤلمـه نشرها وسماعها فأنظمها فى سلك القصيدة ولا أقتصر على الشتم المجرد لان ذلك لا يؤلم كثيرا ولا عبرة بقول من قال أحسن الشعر أكذبه بل أحسن الشعر أصدقه وعدد أبيات هذه القصيدة ستة وعشرون وكان ساعدى الايمن فى نشر قصائد الهجو لمن يستحقه تلميذى البر الحاج أحمد هارون فكان يطبع القصائد فى آلة المعهد الحر ويخرج منها نسخا كثيرة يوزعها على الناس بالقائها فـى

دكاكينهم أو فى جيوب ثيابهم المعلقة حين يتوضؤون وقد قامت هذه القصائد الهجائية اللاذعة لى مقام العشيرة والعصبة المناظرين ؛ وقرض الشعر أمر محمود اذا كان صاحبه لا يظلم الناس ولا يكذب فى مدحهم وذمهم قال ابن الوردى فى لا ميته .

انظم الشعر ولازم مذهبى واطراح الرفد فى الدنيا يجل
فهو عنوان على الفضل وما احسن الشعر اذا لم يبتذل

وقال بعض العلماء وأظنه محمدا الامير الصنعانى رحمة الله عليه ما معناه ، ان من افضل ما يتحلى به العالم أن تكون عنده ملكة قرض الشعر ينتصر به على خصومه ويبين به الحق . والمخازى التى ذكرتها فى القصيدة المذكورة اهمها قصة وقعت له مع شخص محتال لا أسميه لانه لا يزال فى قيد الحياة وكان ذلك الرجل شابا يحسن الاحتيال فجاء الى ذلك الشيخ المتصوف المفتون وكان يعلم أنه يعتقد أن فى كل زمان القطب الغوث الفرد الذى لا تتحرك ذرة فى العالم الا باذنه وهو المتصرف فى السماوات والارض وبه تقوم السماوات والارض وهو محل نظر الحق من خلقه وهو خليفته فى خلقه ولو غفل عن العالم طرفة عين لاندك العالم وصار عدما محضا (انظر كتابى الهدية الهادية الى الطائفة التجانية) ، فجاء ذلك الرجل الى الشيخ المذكور وادعى له أنه القطب فافتتن به وأخذ يخدمه بنفسه مع أن الخادم تجاوز السبعين والمخدوم فى أوائل الشباب وكانت عند الشيخ ابنة استحسنها القطب الكاذب فأمره ان يزوجه اياها فأحضر الشهود فى الحين وزوجه بها وصار أهل المدينة يسخرون منه ودنا وقت الحج .

السفر الى مكة فى لحظة

فقال الشيخ للقطب يا سيدى سمعنا أن بعض الشيوخ يحج بطريق الخطوة بحيث يسافر الى مكة بخطوة واحدة فما رأيكم فى ذلك فقال ذلك صحيح وأنا من الذين يحجون على هذه الطريقة فقال يا سيدنا وهل يمكنك أن تصحب معك أحدا فقال كيف لا يمكن كل شىء عند أولياء الله ممكن قال يا سيدى فهل لك ان تحج بنا فى هذه السنة فقال يكون ذلك قال أريد أن ترافقنا زوجتى

ايضا ، فقال لا بأس وعند ذلك ازداد الشيخ تعظيما لهذا المحتال وبالغ فى عبادته هو وأهل بيته ولما جاء يوم عرفة اغتسل الشيخ وزوجته ولبسا ثياب الاحرام وبقيا ينتظران القطب يأخذ بأيديهما ويطير بهما الى مكة الى أن كادت الشمس تغرب فعيل صبر الشيخ وقال يـا سيدى ان الفقهاء يقولون لابد مـن الوقوف بعرفة قبل غروب الشمس وقد كادت الشمس تغرب فقال بسم الله قومـا فصعد بهما الى السطح ومن عادة أهل تطوان أن يجعلوا فى كل سطح جلاء وهذا الجلاء يكون على قدر ما تدخل الشمس والنور والهواء ويكون مربعا فى كـل ركن من أركانه تبنى سارية قصيرة ويوضع على السوارى سقف فيدخل النور والهواء الى أسفل من أربع جهات ولا يدخل المطر فذهب القطب يتقدمهما حتى وقف على الجلاء وقـال أأنتما أعميان ألا تنظران هذه الكعبة فهلم نطوف بها فطافوا بذلك الجلاء سبعة أشواط ولكن الشيخ لم ير كسوة الكعبة ولا الحجر ولا مقام ابراهيم ولا زمزم ولا أحد يطوف بتلك الكعبة ولكنه لـم يستطع أن يتكلم تعظيما للقطب ولما سمع أهل تطوان بهذا الحج المبرور ازدادوا سخريـة وصار الناس لا يتحدثون ويتفكهون الا بهذه الحكايـة فجاء أصدقاء الشيـخ واخبروه بأنه صار مضغة فى الافواه وأن هذا الشاب قـد جعله اضحوكـة ونصحوا له بطرده فطرده وأجبره على تطليق ابنته ولما شاعت القصيدة عنـد الناس بلغـه خبرها وكان فى ذلك الوقت مشرفا على التعليم الدينى ورئيسا للمجلس الاسلامى الاعلى فبلغه أن نسخة مـن القصيدة فى مكتب مدير المعارف فأمر باحضارها فكذبوا عليه وقالوا ما عندنا شيء فبعث خادمه الى فضيلـة الاستاذ محمد الطنجى رئيس قسم الوعظ والارشاد فى وزارة الاوقاف المغربية فى الوقت الحاضر وكان فى ذلك الوقت تاجرا لأن الاستعمار حرمه من جميع المناصب العلميـة فقال له يسلم عليك الشيخ ويطلب منك نسخة من القصيدة التى هجاه بها الهلالى وهذه ست عشرة بسيطة مع أن القصيدة فى صحيفـة واحدة لا تساوى ربع بسيطة فقال له الاستاذ المذكور سلم عليه وقل له مـا عندى منها شيء والقصيدة الثانية فيها اقذاع ضربت عنها صفحا ، أما الثالثة فقد كانت باذن الله الذى وعـد رسله وأتباعهم بالفتح والنصر المبين ، كانت مقرونة بالقضاء على هذا الشيخ .

عزل الشيخ المتصوف الذى حج على سطح بيته من جميع المناصب العلمية والدينية

كنت قد سميت القصائد الثلاث بأسماء مطابقة لحوادث ذلك الزمان ففى ذلك الزمان كان الجرمانيون فى أوج عزتهم وكانوا قد اخترعوا القنبلة الموسومة برقم (1) ثم القنبلة الموسومة برقم (2) ثم القنبلة الموسومة برقم (3) وكانت هذه القنبلة الاخيرة ترسل من البلاد الجرمانية الى مبنى بعينه فى لندن عاصمة بريطانيا فتصله فى بضع دقائق وتدمره فى أسرع من طرفة عين وقد سمعت رجلا يتحدث فى اذاعة لندن من الذين نجوا من الموت بعدما أرسلت قنبلة رقم (3) على المبنى الذى كان يسكن فيه فدمرته فى لحظة قال الرجل كنت نائما فى غرفتى فما شعرت الا وأنا فى المستشفى لان رجال الاسعاف أخرجونى من تحت الانقاض مغمى على وأسعفونى بالعلاج سمعت ذلك من اذاعة لندن باللغة الانكليزية وبالهام من الله تعالى سميت القصائد الثلاث بالاسماء المذكورة فكانت القنبلة ذات رقم (3) كما أملت مقرونة بالكارثة التى أصابت هذا الشيخ قال تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) والحنفاء أهل لا اله الا الله يتقون الله بتوحيده وترك الشرك به واتباع نبيه الكريم فيجعل الله لهم مخرجا من كل شدة ويرزقهم من حيث لا يحتسبون وينصرهم على أعدائهم . فيا أيها المسلم الموفق حقق التوحيد والاتباع تر العجب العجاب قال تعالى فى سورة غافر (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) .

كان هذا الشيخ أكبر مفت فى شمال المغرب وتقدم انه كان قد تولى وزارة العدل مدة من الزمان وكان كأكثر المفتين من المقلدة الاغمار اذا جاء أحدهم سائل عن حكم قضائى يقول له مثلا ، تعطينى الآن نقدا خمسمائة درهم أجرة البحث فى كتب الفقه فان وجدت لك قولا يمكنك من الغلبة على خصمك تعطينى خمسة آلاف درهم وان لم أجد شيئا لم آخذ منك الا ما تقدم فاذا وجد له قولا من أقوال مجتهدى المذهب ينصر قضيته أخذ منه المقدار المشروط وأعطاه الفتوى وان لم يجد شيئا غنم خمسمائة درهم وصرفه وكذلك خصمه يذهب الى مفت آخر فيعامله بالمعاملة نفسها فاذا اجتمعت الحجج والفتاوى عند القاضى فى مدة سنين طويلة وكان نزيها لا يأخذ رشوة وذلك نادر يرجح احدى الفتويين ويحكم

لصاحبها بغير ما أنزل الله فيحل الفروج ويسفك الدماء فى زمان الاستقلال أما فى زمان الاستعمار فان أحكام القتل والجروح جعلت لها محاكم عرفية وعزلت المحاكم الشرعية عنها وكذلك ينقل الاموال من ملك زيد الى ملك عمرو بآراء الرجال التى ما أنزل الله بها من سلطان فينطبق عليه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون والظالمون الفاسقون وهذا أمر معروف فى بلاد المغرب لا يزال العمل جاريا به .

فتوى الشيخ المتصوف

أما هذا الشيخ العارف باللاهى لا بالله فقد أفتى فتويين متناقضتين غريبتين عجيبتين .

وقعت خصومة على مال بين تاجرين مغربيين أحدهما يهودى والآخر مسلم فانطلق اليهودى الى الشيخ المفتى فعامله بالمعاملة التى تقدم ذكرها وأخذ منه آلافا من الدراهم وأصدر له فتوى تحتم على القاضى أن يحكم له فقال القاضى للتاجر المسلم هات ما ينفعك من الحجج فذهبت زوجته وكانت اسبانية الى المفتى نفسه الشيخ المتصوف العارف وسلمت له ستة آلاف درهم فأصدر لها فتوى تحتم على القاضى أن يحكم لزوجها على خصمه اليهودى وكانت المحاكمات فى زمان الاستعمار كلها تترجم باللغة الاسبانية ويطلع عليها الحكام الاسبانيون قبل اصدار الحكم فترجمت الفتويان المتناقضتان ورفعتا من حاكم الى حاكم حتى بلغتا الى المقيم العام وهو الحاكم الاعلى فغضب غضبا شديدا وكتب الى خليفة السلطان مولاى الحسن بن المهدى يقول نحن لم نرد أن نتدخل فى شريعتكم فتركناكم أحرارا تحكمون فى محاكمكم بشريعتكم وأنتم تزعمون أن هذه الشريعة وضعها لكم محمد وهو أخذها من القرآن الذى هو كلام الله حسب اعتقادكم فانظر الى هاتين الفتويين المتناقضتين الصادرتين من مفت واحد يقول ان الشريعة الاسلامية تجعل الحق لليهودى ولخصمه فى قضية واحدة فاما ان تكون شريعتكم فى أصلها فاسدة باطلة واما أن تكونوا قد كذبتم على الله وعلى محمد هذا معنى ما كتب به المقيم العام الى خليفة السلطان فى شمال المغرب فلما قرأ الخليفة كتاب المقيم أصابه من الغم والحزن ما كاد يقتله فدعا الوزراء والمستشارين وغضب عليهم غضبا شديدا وقال ، ألا ترون الى هذا المجرم كيف

فضحنا عند الاجانب وألصق بشريعتنا كذبا وزورا وطمعا هذا الخزى فماذا يستحق من العقاب فقالوا كلهم الرأى لسيدنا فقال اتقوا الله وقولوا ما أوجب الله عليكم فأعادوا جوابهم فقال أنا أحكم عليه بالعزل من جميع المناصب الدينية والعلمية والدنيوية ولو قدرت على أكثر من هذا لحكمت عليه به فعزل من الامامة والخطابة والوعظ والشهادة ولم يبق له شيآ الامنصبا واحدا وهو رئاسة المجلس الاسلامى الاعلى لان هذه لم تكن بيد الخليفة بل كانت بيد المستعمرين الاسبانيين ولكن الاسبانيين لما رأوا الخليفة قد عزله من جميع المناصب التى فى يده عزلوه هم أيضا من رئاسة المجلس الاسلامى فبقى لا يجد ما ينفق وقد رأيت من المستحسن أن أذكر هنا نخبة من القصيدة الموسومة فاو (3) وهذا لفظ ألمانى وترجمته القنبلة الموسومة برقم (3) وفرق بين هذه القنبلة الحنيفية وبين القنبلة الهتلرية فان العدو الذى كان يحارب بالقنبلة الهتلرية استرجع قوته وانتصر على هتلر أما عدو الحنيفية فكانت تلك القنبلة قاضية عليه ولم تقم له بعدها قائمة وهذه نخبة من القصيدة المشار اليها .

أتشتمنى يا ابن اللئام بلا سبب ... وأنت يمين الله قرد بلا ذنب
فلا أنت ذو علم ولا أنت ذو حجى ... ولا أنت ذو تقوى ولا أنت ذو حسب
ولا أنت ذو عرض مصون موفر ... ولا أنت ذو حلم ولا أنت ذو نسب
شوى الحسد المقوت قلبك فى لظى ... فاصبح يبدو اليوم من فمك اللهب
رأيت صنيع الله بى وهباته ... فنالك منها كالجنون وكالكلب
تريد بقول الهجر تطفىء نوره ... ومن رام يطفى نوره مسه العطب
وذلك فضل الله يؤنيه من يشاء ... فمن ذا الذى يسطيع منعا لما وهب
تحارب رب الناس فى أوليائه ... ومن حارب الجبار أودى به الحرب
وقد وعد الرحمن بالنصر حزبه ... بأن لهم دوما على المعتدى الغلب
ومن يقف سنات الرسول وهديه ... وينصره يصبح ظافرا عالى الرتب
ومن يخلص التوحيد لله وحده ... يكن ممسكا فى دينه أيما سبب
فلا نزغات الشرك توهن عزمه ... ولا نفثات البطل تثنيه ان وثب
ولا هجر دجال مهين يضيره ... متى كان نبح الكلب يستوقف الشهب
وذاك ولى الله جل جلاله ... يدافع عنه ربه حيثما انقلب
ففى يونس فانظر كريم صفاته ... ودع عنك قول المسرفين ذوى الشغب

فايماننا بالله ثم تقاته ولا يتنا لله كل بها اقترب
سلام على أهل الحديث فانهم هم الاوليا حقا وغيرهم كذب
هم حكموا قول الرسول وقد قفوا مناهجه في السر والجهر بالادب
وكل نزاع يرجعون لقوله ويرضون حكم المصطفى حيثما وجب
فما اتخذوا من دونه من وليجة ولا مذهب زيد وعمرو له ذهب
يدينون بالتوحيد في كل مسلك نبي ورب ثم دين له انتسب
فلا رب الا الله ثم محمد امام وأهل العلم في قفوه سبب
له دعوة الحق التي يستجيبها ومن يدع غير الله قد خاب في الطلب
وما كان من أهل الحديث منافق عليم لسان للفضائل ما انتدب
ومن يتركن يوما حديثا مصححا فما له من علم الحديث سوى النصب
دعوا كل قول غير قول محمد أتستبدل الاحشاف يا قوم بالرطب
ومن يعد لن قول الرسول بغيره فقد عدل الهندي والند بالحطب

انتهى المراد نقله منها .

عقيدة الاشعرية المخالفة لعقيدة السلف الصالح

بعدما استقررت في تطوان انشأت هناك مجلة شهرية سميتها «لسان الدين» ونشرت فيها مقالات بينت فيها بطلان عقيدة الأشعرية التي يدين بها أهل المغرب منذ عهد محمد بن تومرت ودولة الموحدين التي هي ثمرة دعوته الى يومنا هذا وكان أهل المغرب قبل ذلك على عقيدة السلف الصالح حتى أنهم لما وصل الى المغرب كتاب احياء علوم الدين لابي حامد الغزالي أجمعوا كلهم على احراقه واتفق علماء العدوتين الاندلسية والمغربية على ذلك لما فيه من علم الكلام المذموم فمن ذلك قوله ليس في الامكان أبدع مما كان يعني لا يمكن أن يخلق الله سبحانه عالما أفضل من هذا العالم قال الغزالي اذ لو كان ذلك ممكنا وادخره لكان ظلما ينافي العدل هذا معنى كلامه نقلته بمعناه ليفهمه عامة القراء فهرب من نسبة الظلم المتوهم الى الله تعالى الى نسبة العجز الى قدرته تعالى الله عن ذلك وآخر الدول المغربية التي كانت متمسكة بعقيدة السلف الصالح هي دولة المرابطين ويسمون أيضا الملثمين واللمتونيين نسبة الى لمتونة وهي قبيلة من قبائل البربر وفي ذلك قلت شعرا من بحر المواليا .

يـا قوم ان اعتقـاد الدهـر لمتونـــى   وان زريتـم عـلى عقـلى ولمتونـــى
(ون   يـــو آ ر   نت   ستسفايد   فجيئونى
(أم دسكو تيرن) كنسوس لبروس أود رأونى

وهذا البيت الثانـى يشتمل على أربـع لغات العربية وهــى فجيئونى ، والانقليزية وهى الكلمات التى قبلها والجرمانية وهى التى بعد فجيئونى ، ثم الاسبانية ثم الجرمانية مرة أخرى ، ومعناه ان كنتم لا تسلمون ذلك فجيئونى للمناظرة بكتبكم أو بدونها .

ونظم الشعر المؤلف من عدة لغات من المستملحات عند اهل الادب وقــد نظم العالم الاديب المشهور الحسن اليوسى المغربى بيتا من هذا القبيل فقال عند وفاتـــه :

(اتدار تنومن) العلوم التى (ديكم) قد اندرست حقا وصارت الى (يركى)

ومعنى هــذا البيت يا دارى أين العلوم التى فيــك قد اندرست حقــا وصارت الى الله وهــذا البيت مؤلف من ثلاث لغات ، البربريـــة ، والعربية ، والفلاتية ، من لغات السودان لان (يركى) هو اسم الله تعالى بهذه اللغة يريد بذلك ان العلوم التى كانت فى داره قد اندرست بوفاته .

وبينت فى تلك المقالات أن الامام أبـا الحسن الاشعرى رحمه الله برىء من العقيدة المنسوبــة اليه ، لانــه رجع عنها وألف كتاب مقالات الاسلاميين واختلاف المصلين وبين فيه أنه على عقيدة أصحاب الحديث والسلف الصالح من الصحابة والتابعين والائمة المجتهدين وسمى منهم احمد بن حنبل رحمــة الله عليه ، وألف أيضا كتاب الابانة عن أصول الديانة ، وألف الحافظ ابن عساكر ، كتاب تبيين كـذب المفترى فيمـا نسب الى ابـن الحسن الاشعرى والطائفة التى تسمى نفسها أشعرية تركت كتبه التى رجـع اليهـا وتمسكت بالعقيدة الكلابية والمعتزلية التى كان عليها وتاب منهـا فلمـا انتشرت تلك المقالات وأضفت اليها كتاب مختصر هدى الخليل فى العقائد وعبادة الجليل ، وهو كتاب مختصر ألفته لاخوانى السلفيين بطلب منهم يشتمل على عقيدة أهل الحق وأحكام العبادات، مأخوذة من نصوص الاحاديث الصحيحة. فظن السفهاء الذين يزعمون أنهم فقهاء أنهم وجدوا فرصة تمكنهم من القضاء على دعوتى فذهبوا الى

الخليفة مولاى الحسن بن المهدى وقالوا له ان الهلالى قد طعن فى عقيدة أسلافك الطاهرين وضللهم وهذا الامير من أهل العقل الثاقب والهمة العالية لذلك توقف فى قبول دعواهم فدعا الاديب العبقرى والمؤلف الموفق فخر المغرب فى هذا الزمان الاستاذ عبد الله كنون عضو المجمع العلمى فى القاهرة وسأله عما نقله اليه أولئك السفهاء ، فقال له يا صاحب السمو لا تسمع لقولهم فان العقيدة التى يدعو اليها الهلالى هى عقيدة النبى صلى الله عليه وسلم والسلف والخلف ومنهم آباؤك الاكرمون وقد بين ذلك الامام محمد بن عبد الله العلوى عالم الملوك وملك العلماء فى كتبه ، فبطل كيدهم .

التعيين فى خزانة الكتب العامة

جاءنى ذات يوم شخص مغربى فدعانى بقوله ان الحاكم الاسبانى فلانا يدعوك للحضور فى مكتبه فانطلقت معه حتى وصلت الى مكتب فخم يجلس فيه شاب اسبانى فقام وصافحنى وأشار على بالجلوس وقال لى أبشرك بأن المقيم العام قد أسند اليك منصبا شريفا وهو ادارة خزانة معهد الباحثين وهذا المنصب عندنا فى اسبانيا لا نولى فيه الاكبار العلماء الذين يعرفون أصناف العلوم والكتب المؤلفة فيها ويرشدون الباحثين والمؤلفين الى الكتب التى تفيدهم فى بحوثهم وجعلنا لك راتبا قدره ثلاثمائة بسطية فباشر عملك على بركة الله فقلت له كيف تسندون الى هذا المنصب دون أن تستشيرونى وتعرفوا رأيى فى قبوله فظهرت على وجهه امارات الاستغراب وقال لى لم نستشرك لانه لم يخطر ببالنا انك تتردد فى قبوله ولو عينا غيرك فيه من المغاربة لتلقاه بفرح عظيم واستبشر وبشر أصدقاءه وأقام مأدبة كوليمة العرس وهذه عادتنا فى اسناد المناصب فقلت له أنا لا أقبل هذا المنصب فقال لى كيف لا تقبله وقد عينك فيه المقيم العام فقلت له ان المقيم العام لا يعرفنى ولابد أن يكون قد استشار ذوى رأيه قبل أن يسنده الى فأشاروا عليه دون أن يعرفوا رأيى فعليهم يقع اللوم ثم أعاد الالحاح فأعدت الرفض وانصرفت من عنده ، وعند نهاية ذلك الشهر كنت فى دكان السيد محمد العبودى الذى تقدم ذكره واذا بموزع الرواتب يقبل على متقلدا حقيبته الكبيرة ويفتحها ويخرج دفترا ويطلب منى التوقيع على قبض الراتب فقلت له أنا لا أقبض هذا الراتب لاننى رفضت المنصب ولم أشتغل فبأى

وجه آخذ راتبا فقال لى من ذا الذى يأتيه راتب ويرده فقلت له أنا ذلك الرجل الذى لا يأخذ شيئا من المال الا بوجه شرعى لا يخل بالمرؤة فانصرف وفى اليوم التالى جاءنى خادم الموظف الاسبانى يدعونى فانطلقت معه حتى وصلت اليه فقال لى حتى الدراهم لا تقبلها فقلت له بأى وجه أقبلها أنا لم أعمل عملا فكيف آخذ أجرا فقال لى نحن لم نطالبك بعمل فقلت له اذا أنا لا آخذ أجرا على عمل لم أقم به ولم أقبله وانصرفت ثم بعد شهرين دعانى ذلك الموظف مرة ثالثة وقال لى الآن نريد أن نتفق معك على اسناد المنصب المتقدم الذكر ونرجو أن تقبله وأن تشترط ما تريد فقلت له ان اسناد هذا المنصب على الوجه المتقدم فيه اهانة عظيمة من وجهين احدهما أنكم لم تستشيرونى ولم تعرفوا رأيى ، والثانى أنكم جعلتم لى راتب بواب فأنتم تعطون فلانا ألفا ومائتى بسيطة وهو شخص توجه الى الازهر فأقام فيه سنتين ورجع بلا شهادة وأنا أحصل على شهادة دكتوراه من جامعة برلين تجعلون لى ثلاثمائة بسيطة فقال لى أنا معترف بالخطأ وأنا ما كنت أعرف رتبتك العلمية والآن نتفق على ما تحب فقبلت ذلك المنصب براتب مناسب .

خمسمائة بسيطة من وزارة الاوقاف

فان قلت اذا كنت عالى الهمة داعيا الى الله تريد وجهه فلماذا كنت تأخذ من وزارة الاوقاف خمسمائة بسيطة على الوعظ والارشاد ، أقول اننى كما قلت من قبل ، شرعت فى القاء دروس الوعظ والارشاد فى الجامع الكبير بتطوان استجابة لطلب أولئك القوم وقياما بالواجب الحتم ولم أطلب على ذلك أجرا الا من الله وبقيت على ذلك سنة كاملة وذات يوم قال لى الزعيم عبد الخالق الطريس رحمة الله عليه أننى قد سعيت فى أمر يخصك دون أن اعرف رأيك فيه اجتهادا منى وأرجو أن أكون مصيبا وذلك أنى رأيت أن دراهم الاوقاف تنفق فى أمور لا تجدى نفعا ، فعزمت أن ألتمس لك شيئا منها تستعين به فكلمت أحمد بن البشير الكاتب العام للخليفة أن يكلم الخليفة ليأمر وزير الاوقاف أن يجعل مكافأة شهرية على دروسك فى الجامع الكبير وقلت فى نفسى أن نجحت فى هذا السعى أخبرتك وان لم أنجح تركت الامر مكتوما عنك وقد نجحت الآن فقد أمر الخليفة وزير الاوقاف محمد بن موسى أن يجعل لك

خمسمائة بسيطة مشاهرة فان قلت فهلا ترفعت عنها ولم تقبل فالجواب أن النبى صلى الله عليه وسلم قال ، ما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه فتموله أو تصدق به ومالا فلا تتبعه نفسك .

غضب رئيس الوزراء احمد الغنمية

لما نشرت كتاب كشف الشبهات ورسالة زيارة القبور وقررت فيما لا يحصى من الدروس أن شد الرحال الى قبور الصالحين حرام شرعا وان اقامة المواسم وتقريب القرابين عند قبورهم وسؤالهم قضاء الحاجات كنزول المطر واعطاء الاولاد للعقيم من الرجال والنساء وغير ذلك مما لا يقدر عليه الا الله شرك يخرج فاعله من الملة خصوصا اذا دعى الى التوحيد وتبين له الحق واصر على ذلك غضب عباد القبور كما تقدم وكان من أشدهم غضبا رئيس الوزراء فى ذلك الوقت أحمد الغنمية وكان متصرف تطوان والمغاربة يسمونه الباشا وكان متولى هذا المنصب فى ذلك الزمان أحمد عشعاش قد أظهر لى المحبة والتعظيم بعدما عقدت الهدنة مع المستعمرين وكان يقول لى لا تسمنى باشا حسبك ان تقول لى اخى أحمد عشعاش فلما رأى رئيس الوزراء قد غضب وضاق ذرعا بدعوتى الى التوحيد قال له لا يهمنك أمره فاننى سأزوده برغيفين مادومين بزيت وسكر وابعثه محروسا مع شرطيين الى الحدود يسلمانه للفرنسيين فأرضاه بذلك الكلام وهو يعلم أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك الا اذا أمره سادته الاسبانيون فلم احفل بذلك وتوكلت على الله .

معركة مع فقيه مقلد مشرك

كان من جملة من عادانى وحاربنى شخص من فقهاء تطوان وكان مستشارا للمستعمرين فى كل أمر يتعلق بالاسلام وكان مشهورا بالخيانة عند الناس كلهم يسمونه بياعا والبياع هو الذى يبيع قومه من المستعمرين ويتجسس على ابناء وطنه ويبلغ سادته المستعمرين اسرار شعبه تزلفا لهم ، وكل ذنب عند المغاربة يمكن أن يغفر الا هذا فان مرتكبه قد اجمع الناس على مقته ولعنه وسقوطه الى الحضيض الاسفل ولا ينفعه مع ذلك نسب ولا حسب ولا علم ولما أنشأت مجلة لسان الدين واعلنت فيها الحرب على المشركين والمبتدعين شرق بها هذا

الرجل فذهب الى الحاكم الاسبانى (بيلدا) وقال له ان الهلالى أنشأ مجلة وأخذ ينشر مقالات يفسد بها عقائد المسلمين ويطعن فى عقائدنا ومقدساتنا وأنا أطلب منك باسم علماء الدين أن تلزمه بعرض المقالات قبل نشرها على لجنة من العلماء فما أذنت له فى نشره نشره وما لم تأذن له فى نشره يلغى ، فدعانى (بيلدا) وأخبرنى بذلك على سبيل العرض ولم يأمرنى بشىء فذهبت الى من هو أعلى منه من الاسبانيين وقلت لهم ان (بيلدا) قال كيت وكيت ونحن مختلفون فى العقيدة اختلافا شديدا فلا يمكن أن يتحكم بعضنا فى بعض وضربت لهم مثلا فقلت لهم ان أهل النصرانية مختلفون فى العقيدة بعضهم كاثوليكيون مثلكم وبعضهم بروتستانتيون فهل يجوز عندكم أن يتدخل أحد الفريقين فى عقيدة الآخر فقالوا لا، اذهب وانشر مجلتك ونحن نتكلم مع (بيلدا) أن يترك هذا الامر فانه ليس من اختصاصه فحبط عمل هذا المبتدع .

ولما اشتد على مرض الربو استأذنت الحكام الاسبانيين فى السفر الى قبيلة تغزوت ببلاد الريف فأذنوا لى وأقمت هناك عند الشيخ محمد بن أحمد وهو من خيرة السلفيين كان يحضر دروسى فى الجامع الكبير كلما ورد تطوان وطلب الشيخ محمد بن أحمد التغزوتى من الحاكم الاسبانى أن يأذن لى فى القاء دروس لتعليم الناس كيف يصومون رمضان لان شهر رمضان كان قريبا فأذن لى وكنت ألقى فى كل يوم درسين فى بيان توحيد الله واتباع الرسول صلى الله عليه وسلم ومحاربة الاستعمار فتاب من الطرائق والبدع كثير من الناس وتنورت أفكار أهل ذلك البلد وأفاقوا من سكرتهم الا القاضى وشرذمة قليلة فان القاضى أكرمنى اكراما عظيما وفرح بى أول ما قدمت ولما سمع دروسى انقبض منها وأعرض أما نائبه فكان على عكس ذلك فانه لم يسلم على أول ما قدمت ولم يتصل بى وكان يقعد وراء سارية من سوارى المسجد ويستمع حتى عرف ما أدعو اليه وتبين له الحق فجاءنى ودعانى الى بيته وأكرمنى ولم يزل محافظا على العهد الى يومنا هذا وأهل تغزوت كسائر أهل الريف يتكلمون بالبربرية وهى أخت قديمة للغة العربية كما أن البربر اخوان قدماء للعرب لايشك فى ذلك من عنده أدنى علم باللغات السامية ولذلك لم ينجح الاستعمار فى التفرقة بين العرب والبربر وحدث يوما أنى كنت جالسا فى دكان عند احد اخواننا الذين تابوا من البدع وأخوه الاكبر كان حافظا للقرآن وحافظا لمختصر

خليل وكان تجانيا فتاب من التجانية وعمره سبعون سنة واغتبط بالعقيدة السلفية فجاء سائل عربى وقال لصاحب الدكان أعطنى صدقة لوجه غياث البر والبحر سلطان الاولياء مولاى عبد القادر الجيلانى فقلت له أنا نحن عبيد الله ولسنا عبيدا لعبد القادر الجيلانى فاذهب الى عبيده فنحن ليس لنا غياث الا الله فى البر والبحر ولا نتخذ من دون الله أولياء فقال لى أنت لا تساوى تراب نعل سيدى عبد القادر الجيلانى فقلت له أنا لا أساويه ولكنى لا أعبده فقال صاحب الدكان للسائل اذهب من هنا وأرنا قفاك فان هذا الرجل عندنا أفضل من عبد القادر الجيلانى فقلت انك أخطأت فقال أمهلنى حتى أشرح لك مرادى ثم أحكم عن فقلت قل فقال أنت مقيم بين ظهرانينا تعلمنا مما علمك الله ونسألك فتجيبنا وعبد القادر ليس كذلك فقلت له أنا ان كان هذا مرادك فهو حق ولما رجعت الى تطوان علمت أن ذلك الفقيه البياع ذكرنى بسوء فى درس وعظه فقال لمستمعيه وهو يحثهم على الصلاة بسدل اليدين وترك سنة وضع اليمنى على اليسرى ماذا تقولون فى سيدى محمد السلاوى أكان عالما بالحديث والفقه أم جاهلا بهما فقالوا كان من كبار العلماء فقال وماذا تقولون فى سيدى أحمد الرهونى وسيدى فلان وفلان فقالوا علماء فقهاء قال فهل كان أحد منهم يضع اليد اليمنى على اليسرى فى الصلاة قالوا لا قال فكيف تخالفونهم لقول شخص مجهول لا نعرف من أين خرج فأنشأت فيه قصيدة دالية أنقل نخبة منها هنا .

تجاهلت يا بن القين فضلى وسؤددى ... ومن شقوة أقبلت بالظلم تبتدى
زعمت بأن لم تدر أصلى ومنشئى ... ولا عجب اذ أنت بالجهل مرتدى
سجلماسة الغراء ياقين موطنى ... وجدى هلال بن الحسين بن أحمد
وجدى هلال صالح وابن صالح ... وجدى حسين سيد نجل سيد
وريحانة المختار جدى يشمه ... وجدك حداد بوجه مسود
ضربنا على الاسلام أسلافك الالى ... قريناهم بالمشرفى المهند
فاما عققت اليوم ساداتك الالى ... حبوك باسلام وفضل ممدد
فيا رب عبد مثلك اليوم آبق ... ويا رب قين ممعن فى التمرد
غدا بعد سندان وكير وحفرة ... وفحم ومطراق على الفقه يعتدى
دع العلم ان العلم لست بأهله ... وخذ من جديد فى الحديد لتهتدى
ففى الحرفة الاولى لقد كنت كاذبا ... لدى بيع مفتاح وقفل ومحصد

وفى الحرفة الاخرى على الله تفترى ... وتلحد فى دين النبى الممجد
ومينك فى دنياك أهون مأثما ... من المين فى أمر به الناس تقتدى
وعيشك من صنع الحدائد طيب ... وان تأكلن بالدين تأكل من الردى
فدونك يا بن القين نصحا مسددا ... ومثلك لا يرضى بنصح مسدد
كذبت على شيخ كريم تحلما ... برؤيا منام فى حديث منضد
على ابن مشيش قد كذبت بلا حيا ... فأخزاك رب الناس فى كل مشهد
وتزعم أن الشيخ جاءك قائلا ... الى القصر فاذهب دون أى تردد
وقل لفلان يشترى بيتك الذى ... بمرتيل ان رمت النجاح بمقصد
فكذبك الشخص الذى قد قصدته ... وبؤت بخزى الله شر مفند
تروم بزعم نصر مذهب مالك ... ومذهبه قفو النبى المؤيد
ومعصية المختار ليست بمذهب ... له أبدا فاقصر عن اللغو والدد
وفرقت بين البعل والزوج ظالما ... بعنف واكراه فهل أنت مهتد
وأنكحتها فى عصمة البعل دون أن ... يصح طلاق فعل أرعن مفسد
أهذا الذى تدعو بمذهب مالك ... كذبت لعمر الله ياقين فاقصد
فهذا الذى من أجله نال مالكا ... نكال ولم يذعن لامر المهدد
ففعلك ذا نقض لمذهب مالك ... وفسق بدين الهاشمى محمد
تكلم فى قبض وسدل مضللا ... وأهملت أصل الدين اهمال ملحد
حرمت وصولا للحقيقة عندما ... اضعت أصولا من يضعها يلدد
فكلمة توحيد بها أبدأ محققا ... فان تدر معناها الى الحق تهتد
فوحد اله الحق لا تدع غيره ... لنفعك أو دفع المصائب ترشد
فمن يدع غير الله يوما لحاجة ... يدنس باشراك ويردى مع الردى
وذلك توحيد العبادة فادره ... فمن يجهلنه فى الجحيم يخلد
سواء أصلى قابضا فى صلاته ... أم اختار سدلاً نقله لم يؤيد
ومن رد قول المصطفى بعد صحة ... فذلك كفار أثيم ومعتد
سيحرم فى يوم القيام شفاعة ... وان يات للحوض المبارك يطرد
ويسود فى يوم القيامة وجهه ... ويثوى ثواء فى الجحيم ويخلد
ويبرأ منه ذلك اليوم مالك ... وكل تقى للاله موحد
وذلك فى أصل الشهادة واضح ... لكل صحيح الفهم لم يتبلد

فدونك يا شيخ القيون فوائــــــدا … مـن العلم ان ترجع لها اليوم تسعد

فدع عنك تقليدا وشركا وبدعـــــة … فذلك ما يرديك فى اليوم والغــــد

صددت الورى عـن قفو سنة أحمد … ولن يفحلوا الا بسنة أحمـــد

فبـوئت بسخـط الله ثـم رسـولـه … وسخط شيوخ كابن جعفر زهـــد

وكان اللـوا جـرى يقليـك كالعمى … متـى جئتـه ياقيـن تصفع وتطـرد

وأسخطت كل الصالحين من الورى … من الجرم والبغى الذى لـم يحـــدد

وانـك وايم اللـه أحمـق من مشى … على الارض طرافى تهوم وأنجــــــد

فخذهـا غـذيت التبن منى قصيـدة … تزدك جنونا مثلها لـم يقصـــــد

فتخرج فـى الاسواق ناتـف لحيـة … ولاطم خـذ عاريا غيـر مرتـد

ولـم يـك قصدى ذكر عيبك كلـه … فذلـك لا يحصيـه ألـف مجلـــد

تـــــمـــــت

وانتشرت هذه القصيدة عند أهل تطوان وأعجبوا بها أيما اعجاب لانهـم كانوا حاقدين على ذلـك الرجل وكانت هذه القصيدة مقرونـة بسوط عذاب من الله تعالى صب على ذلك المشرك فحدثت لـه حوادث من الخزى أذكر هنا بعضهـــا .

الاولى ، أن شخصا من شيوخ الصوفية كان محترما عند أتباعه من أهل تطوان وهو الشيخ الفاسى جاءه ذلك البياع ومد يده لمصافحته فقبض الشيخ يده أمام جماعة من الناس وقال له أنا لا أنجس يدى بمصافحتك فكانت ضربة قاتلة لـــه .

الثانية ، ماتت امـرأة فخرج الناس بجنازتها الى باب المقابر حيث يصلى على الجنائز لان المغاربة لا يصلون على الجنازة فى المسجد ويزعمون أن ذلـك مكروه ويعللونه بنجاسة الميت وذلك جهل ومخالفـة للسنة الصحيحة ، فان النبى صلى الله عليه وسلم صلى على ابن بيضاء فى المسجد .

ولما وضعت الجنازة نظر الحاضرون فرأوا هذا الفقيه بزعمه هو أولى أن يؤم الناس فى الصلاة على الجنازة لسنة وما اشتهر به من الفقه عند العامة فقال له بعضهم تقدم يا فقيه صل بنا وكانت فيه حماقة فقال رافعا صوته أنا لا أصلى بكم أنتم تقولون أنا بياع وخائن فقدموا غيرى وكان يؤمل أنهم يتملقون له ويمدحونه ويقولون حاشا لله ان نظن بك هذا ولكن خاب أمله فان الناس اختلفوا وكثر

القيل والقال حتى بلغ النزاع الى أولياء المرأة فقائل يقول هو أولى بالصلاة وقائل يقول ليس الامر كذلك لانه بياع فاتفق المتنازعون على أن يردوا نزاعهم الى أولياء المرأة ففعلوا فقال أولياء المــرأة لا نرضاه اماما للصلاة على الجنازة فقدموا غيره . ولو انه حين دعى للصلاة تقدم وصلى لم يقع شيء من ذلك ولكن الامر كما قال الشاعر .

لكل داء دواء يستطب بـــه الا الحماقة أعيت من يداويهـــا

فهذه المخزية الثانيـــة .

الثالثة ، اتفق أن هذا الفقيه كان فى مسجد صغير فحانت صلاة العصر وكان امام المسجد قد قـرأ عليه شيئا من الفقه فاستحى أن يتقدم أمامه فقال له تقدم يا أستاذ صل بنا فقال الحاضرون كلهم لا نقبله لانه بياع والصلاة خلفه باطلـــة .

الرابعة ، أنه دعا رئيس البلدية الاسبانى (بيلدا) الى مأدبة اقامها له فى مارتيل وهى قريـــة معدة للاصطياف على شاطىء البحر الابيض المتوسط بينها وبين تطوان ستة أميال أكثر أهل تطوان يملكون بيوتا فيها يهبطون اليها فى وقت الصيف فقط فتكون عامرة وفى شواطئها مسابح للرجال والنساء وفـــى سائر الفصول تكون فارغة تقريبا .

ترف أهل تطوان

كلمة تطوان محرفة عن (تطاون) بكسر التاء وتشديد الطاء وكسر الواو وهى كلمة بربرية معناها العيون ولا يزال جزء من تطوان الى الآن يسمى بالعيون ولم يكن لها شأن يذكر قبل هجرة أهل الاندلس اليها فى أواخر القرن التاسع الهجرى حين استولى النصارى على ما بقى من الاندلس وأجبروا المسلمين على التنصر أو الهجرة ولما جاء الاندلسيون الى تطوان وكان عندهم من الحضارة والمدنية ما لم يكن عند المغاربة أسسوا مدينة تطوان على النحو الاندلسى واستنبطوا المياه وجلبوها من الجبال المجاورة الى المدينة وغرسوا فيها الجنات الجميلة وأسسوا مدينة مارتيل للاصطياف وكان لكل أهل بيت أربعة مساكن كما أخبرنـــى بذلك السيد محمد المؤذن الادريسى رحمة الله عليه وهو من أعيان تطوان فكان

لكل أهل بيت بيت فى تطوان وبيت فى البستان وبيت فى مارتيل وبيت فى ناحية أخرى قد تركت فكانوا يقضون فصل الشتاء فى تطوان وفصل الربيع فى البستان وفصل الصيف فى مارتيل على شاطىء البحر وفصل الخريف فى الناحية الاخرى التى تركت ولا يزالون مستمرين على هذه العادة حتى الآن الا أنهم لا يقضون شهر رمضان والعيدين الا فى تطوان ولو كانوا ساكنين قبل ذلك فى احدى النوحى المذكورة ينتقلون الى تطوان فيمضون فيها تلك الايام ثم يعودون الى مسكنهم خارج تطوان ، قلنا ان ذلك الفقيه أقام مأدبة فى وضح النهار فى بيته فى مارتيل على أعين الناس ولما جاء الضيف الاسبانى تلقاه أمام بيته ولم يكتف بمصافحته بل عانقه فلما رأى ذلك أهل تطوان وهم أهل غيرة وشجاعة اشتد غمهم وحنقهم على الفقيه البياع ففكروا فىعقاب ينزلونه به دون أن يتعرضوا لانتقام (بيلدا) فاتفق رأيهم على أن يجمعوا مقدارا كبيرا من العذرة الطرية ويلصقوه على باب بيته فى جنح الليل ففعلوا ذلك فلما أصبح الناس اجتمع الذباب على باب بيته وجاء الناس يتفرجون وقد كثر عددهم وعادة أهل تطوان أنهم لا يقومون من النوم الا فى الضحى فأخبر بعض الجيران الفقيه وأهله بما جرى فقاموا فزعين وأخذوا ينظفون بابهم والناس تنظر اليهم وبعضهم يضحك وبعضهم يتشفى ويقول هذا جزاءالبياع الذى يوالى أعداء وطنه وينصرهم على قومه .

الخامسة وحقها أن تكون الاولى . أن هذا الفقيه كان تلميذا للشيخ محمد بن جعفر الكتانى الفاسى المغربى الذى قضى شطرا كبيرا من عمره فى دمشق وكان محترما عند المغاربة وأهل الشام ولما استولى الاسبانيون على تطوان وقسم من شمال المغرب استشار الفقيه التلميذ استاذه الكتانى فى الهجرة من دار الكفر الى دار الاسلام فاستحسن الشيخ ذلك وحثه عليه فهاجر الفقيه الى المدينة النبوية وأقام بها مدة فلما خلع الفرنسيون السلطان عبد الحفيظ بن الحسن الاول سافر هذا السلطان الى مصر ثم الى الحجاز فذهب اليه الفقيه المبتدع وشكى له حاله وأنه يريد أن يرجع الى المغرب ويعود فى هجرته فأعانه على ذلك ورجع الى تطوان ولم يقتصر على هذا الذنب حتى صار بياعا فسخط عليه الشيخ الكتانى وهجره واستمر على ذلك حتى مات وقد أشرت الى ذلك فى القصيدة حين قلت :

فـبؤت بسخـط الله ثم رسولـــه وسخط شيوخ كابن جعفر زهـد

السادسة ، كان فـى تطوان فقيـه مشهور بالصـلاح والعفـة والزهـد والاستقامة يقدسه أهل تطوان وهو الشيخ محمد اللواجرى وكان معتكفا فـى بيته لايشهد جماعة ولا جمعـة وعلل ذلك بأنـه يرى المناكر ولا يستطيـع أن يغيرها وكنت أزوره الفينة بعد الفينة فكان يفرح بزيارتى ويأنس لها ولم أر منه معارضة فى التوحيد والذى يظهر لى أنه كان بريئا من الشرك وكان هذا الفقيه من تلامذته ولما أراد الهجرة من تطوان استشاره فاستحسن ذلك فلما رجع من هجرته غضب عليه اللواجرى غضبا شديدا وحذر الناس منه ولاسيما حين صار بياعـا وكان هذا الفقيه يجتهد بكل وسيلـة أن يجد سبيلا لارضاء الشيخ اللواجرى فكان يضرب فى حديد بارد لان اللواجرى أصر على السخط عليـه وبغضه لله فلمـا حضرت الوفـاة الشيخ اللواجرى اغتنم هـذا الفقيه الفرصة وظن أن شيخه وهو فى غمرات الموت لايعرفـه اذا سلم عليـه وودعه وبذلك يخرج من سخطه ولو فيمـا يظهر للناس فقصده وحدثنى أحـد أعيان تطـوان وأشرافها وهو الحاج محمد الشرتى أنـه كان جالسا عنـد الشيـخ اللواجرى رحمـه اللـــه وقـد حضرتـه الوافاة فجـاء هـذا الفقيه وقبـــل رأسه وقال سامحنى أيها الشيخ الصالـح فما كان من الشيـخ المحتضر الا أن استوى جالسا كأن لـم يكن به مرض ورفـع يده ولطم الفقيه لطمة شديدة ، ثم اضطجع فمات فى الحال والى ذلك أشرت فـى القصيدة بقولى :

وكـان اللواجرى يقليـك كالعمـى متى جئتـه ياقين تصفع وتطـرد

فان قيل لماذا سميته قينا وهو فقيه فالجواب أن القين فى اللغة العربية هـو الحداد وكان أبوه حدادا وكان هو يشتغل معه فى صباه ولما تعلم الفقه أعنى فروع المذهب المالكى وليس ذلك بفقـه ولكنه اصطـلاح وعـرف ، كتسمية اللديغ بالسليم ، ترك تلك الحرفة وكان دكان أبيه الذى كان يشتغل معه فيه بهذه الصنعة لايزال تحت تصرفه يكريه فان قيل وهب أنه كان حـدادا فأى نقص فى ذلك وقد كان نبى الله داود يصنع الدروع من الحديد قال تعالى فى سورة الانبيـاء (وعلمناه صنعة لبوس لكـم لتحصنكم من بأسكم فهـل أنتم شاكرون) فمعرفة هذه الصنعة نعمة فكيف يعير بها ، فالجواب : أنها فـى

حق داود عليه السلام نعمة وفضيلة وفي حق غيره أمر مباح لايحمد فاعله ولا يذم فلو كان هذا الفقيه مستقيما فى دينه ولم يبدأنى بالظلم ما عيرته بذلك لان هذه الصنعة لايضيره التعيير بها لو لم يكن موصوفا بتلك الطوام واذ كان مشركا مبتدعا بياعا فانى لم أر حرجا فى تذكيره بحرفته السابقة وحرفته اللاحقة ، قال الشاعر :

ومن دعا الناس الى ذمة ... ذموه بالحق وبالباطل

ولما انتشرت القصيدة وصارت حديث الناس نظم نظما ركيكا هجانى به ولم يجد ما يعيبنى به الا زعمه أن أبى كان حقيرا يكنس الشوارع وأن أمى كانت خادمة فى البيوت وأنى مصاب بداء السل لا أزال أبصق وأسعل والمخاط يسيل من أنفى وأن الشباب الذين صحبونى أصفرت وجوههم فلم يعبأ أحد بقصيدته لركاكتها ولانها شتم وكذب وتناقض فانه قال فى الجامع الكبير على رؤوس الاشهاد فى حقى أننى شخص مجهول لا يعرف من أين خرجت وهذا كذب مفهوم فان كان يجهلنى ففى تطوان من يعرفنى ويعرف أبى وأمى وأن أبى كان عالما وجيها وأمى كانت شريفة عزيزة وقد تقدم أن الهجو بالكذب لايضر فلما رأيت قصيدته وهى فى مائة وخمسين بيتا وكلها هذيان وشتم كما تقدم هجوته بقصيدة أخرى نظمت أربعة أبيات منها فى تطوان وسائرها بالاندلس وينبغى أن أثبتها هنا كلها أو بعضها :

يا أهل تطوان ان الساعة اقتربت ... شدوا حيازيمكم يا أهل تطوان
شيخ الحديد غدا شيخ الحديث لدى ... دار يراد بها تثقيف فتيان
وهل سمعتم بقين صار ذا أثر ... يروى الحديث باحكام واتقان
عن فحمة بن دخان عن أبى شرر ... كير عن الشيخ مطراق بن سندان
يقول لا تثقوا فان صاحبنا ... حديثه مخص تدليس وبهتان
وقيل لا صانع الا ويكذب فى ... قول وأكذبه حديث اقيان
ومن على ابن مشيش افترى كذبا ... لم يحترم جده سليل عدنان
وصح من جالس الحداد سوده ... أو أحرق الثوب منه لفح نيران
فيا تلاميذه أنا النصيح لكم ... فانه فاجر عديم ايمان
ويا تلاميذه كونوا على حذر ... من خبثه فهو شر الانس والجان

فقبلوا يده واحنوا رؤوسكم ... كي لا يصيبكم يوما بعدوان

فان تقبيل كف القين صار له ... كالقوت للطاو أو كالما لظمآن

لا تعجبوا من يد من كيرها انتقلت ... للكتب يعجبها تقبيل فتيان

فالكتب شاكية بالدمع باكية ... تقول يا ذلتي في شر أزمان

ما زلت في ضعة حتى وصلت الى ... قين يبهدلني من بين أقراني

ما كنت أحسبني أبقى الى زمن ... فيه يدنسني قين بأدران

تالله لو كان للتدريس محتسب ... لظل منكمشا في قعر دكان

يروى الحديد ويطويه وينشره ... أولى به ذاك من علم وعرفان

دقق دقو دقق دقق دقق دقق ... دقق دقق فانفخوا بالكير صبيان

لكن ذا زمن به البغاث غدا ... مستنسرا صائلا في زي عقبان

والذئب أصبح مسك الضأن مرتديا ... ليبتغي الصيد من أغرار خرفان

وأصبح الدين للدنيا تعلمه ... وقد تمول منه كل خوان

لو كان يجدي البكا يوما بكيت على ... علم الحديث وتفسير وقرآن

لم يبق منها سوى الاسماء خالية ... من كل معنى سوى تحريف كهان

وكم أهبت بقومي صارخا أبدا ... أوبوا لهدى نبي الله اخواني

دعوا دجاجلة يبغونها عوجا ... فلن يقودكم الا لخسران

أسلافنا ارتفعوا أسلافنا سعدوا ... لقفوهم أحمد الهادي باحسان

قد اقتفوا سنة المختار خالصة ... من غير شوب بزيد أو بنقصان

ومنذ بدل قوم هديه سقطوا ... الى الحضيض ونالوا كل حرمان

أوطانهم بهم والله قد شقيت ... والارض تسعد أو تشقى بسكان

والله لن تسعدوا الا بما سعدوا ... فلا يغرنكم وسواس شيطان

ومن يرد حديث المصطفى سفها ... يا رب فالعنه من جن وانسان

يا رب صل على المختار سيدنا ... ما غنت الورق في دوح بالحان

والآل والصحب ثم التابعين له ... واجعل محبته روحي وريحاني

فرج بها كربي واجمع بها شعثي ... وأصلح الحال في سري واعلاني

وانصر بها حزبنا طول الحياة وفي ... يوم الجزا جدلنا طرا بغفران

السابعة أن هذا الفقيه المتحمس للمذهب المالكى بزعمه كانت له ابنة زوجها بشاب كاتبا فى وزارة العدل التى كان يتولاها أفيلال وكانت بينه وبين الفقيه عداوة لان كليهما فقيه أحدهما محظوظ والآخر محروم فكان الفقيه يسأل صهره عما يجرى فى الوزارة ليتوسل به الى الطعن فى الوزير فلا يكاد يسعفه بشيء مما يريد ولما ألح عليه قال له أيها الفقيه لا تسألنى عن شيء من أسرار الوزارة فانى أقسمت يمينا على الاخلاص فى عملى ؛ وافشاء الاسرار يعد خيانة وعواقبه وخيمة فغضب عليه وقال له هذا قدرى عندك يا ناكر الاحسان زوجتك ابنتى وفضلتك على غيرك ثم أنت تتألب على مع عدوى فسترى كيف يكون عقابى لك فأمر ابنته أن تنشز فنشزت ثم أجبره على تطليقها فطلقها كارها وهو يستغيث بالناس فلم يغثه أحد ولما تزوج شرط على أولياء الزوجة الجديدة أنه متى يسر الله له أن يرجع زوجته ابنة الفقيه فانه سيطلق ابنتهم والى ذلك ؟! أشرت بقولى فى القصيدة الدالية :

وفرقت بين البعل والزوج ظالما بعنف واكراه فهل انت مهتد

الابيات الى أن قلت :

أهذا الذى تدعو بمذهب مالك كذبت لعمر الله ياقين فاقصد

ومن أشهر ما وقع لمالك رحمه الله فى حياته أنه كان يفتى بأن طلاق المكره غير لازم وعلى ذلك ضرب بالسياط فالعجب ممن يريد أن ينصر المذهب المكذوب على مالك ثم يخالف مذهبه الصحيح المتواتر والله لا يهدى القوم الفاسقين .

الثامنة ، أنه كان يريد ولو بجدع الانف أن يكون مدرسا فى المعهد الدينى الاعلى وسعى للوصول الى ذلك سعيا حثيثا واستعان بسادته المستعمرين فلم يصل الى مرامه الا بعد اللتيا والتى ، ولما صار مدرسا فى المعهد صار يفرض على الطلبة كلما رأوه من بعيد أن يهرعوا اليه ويقبلوا يده ويهددهم بان من لم يفعل ذلك يسقطه فى الامتحان والى ذلك اشرت بقولى فى النونية :

فيا تلاميذه أنا النصيح لكم فانه فاجر عديم ايمان

فقبلوا يده واحنوا رؤوسكم كى لا يصيبكم يوما بعدوان

راجع هذه الابيات فى النونية .

التاسعــة ، أنه كان لـه بيت فى مارتيل وكان يريد بيعه فلم يجد من يشتريه منه فسافر من تطوان الى القصر الكبير وقصد المثرى المشهور الحاج عبد السلام حسيسن وقال له ان سيدى عبد السلام بن مشيش رضى الله عنه جاءنى فى المنام فشكوت له تعسر بيع دارى التى فى مارتيل فقال لى اذهب الى خادمنا الحاج عبد السلام حسيسن وبلغه سلامى وأخبره أنى آمره أن يشترى منك تلك الدار وسيشتريها منك قال الحاج عبد السلام فلما جاءنى وقص على الرؤيا قلت له ان أمر سيدى عبد السلام على رأسى وعينى ولكنى أنا بنفسى عندى بيت فى مارتيل لا أحتاج اليه لانى أسكن فى طنجة وفى القصر الكبير وأنا محتاج الى بيعه فكيف أزيد عليه بيتا آخر فرجع خائبا والى ذلك أشرت بقـولى فى الداليــة :

على ابن مشيش قــد كذبت بلا حيــا فأخزاك رب الناس فى كل مشهد

العاشرة ، زيارة الفقيه البياع لاستاذى شيخ الاسلام محمد بن العربى العلوى ، سافر هذا الفقيه من تطوان الى الرباط وزار شيخ الاسلام محمد بن العربى العلوى رحمه الله فلما أخبره أنه من تطوان سأله عنى فقال له تعرف الدكتور محمد تقى الدين الهلالى ؟ فقال له نعم أعرفه وقد هجانى بقصيدتين، ولما تقلص ظل الاستعمار الذى كان حائلا بينى وبين رؤية أستاذى المذكـور واجتمعت به أخبرنى بذلك وقال لى لما أخبرنى أنك هجوته علمت أنه خبيث .

الامير الملالى والاستسقاء

يسمى المغاربة أمير كل بلد قائدا والقائد الملالى حاكم القصر الكبير كان من أقوى الامراء الذين لهم وزن ثقيل عند المستعمرين الاسبانيين وعند رعيته ولكنه لم يكن يقارب منزلة أمير العرائش السيد خالد الريسونى رحمه الله كما تقدمت الاشارة الى ذلك ، لما سمع الامير الملالى بقدومى تطوان ودروسى فيها أراد أن يدعونى الى امارته ليكرمنى وتكلم مع الزعيم عبد الخالق الطريس فى ذلك وسألت عنه فعلمت أنه تجانى متعصب فنشرت فى صحيفة الحرية ثلاث مقالات تحت هذه الترجمة (كيف خرجت من الطريقة التجانية) وذكرت فيها قصــة خروجى وتوبتى من هذه الطريقـة وأقمت البراهين عـلى بطلانها

فغضب غضبا شديدا ورجع عما كان عازما عليه ولما أصبت بداء الربو وقد تقدم أن المشركين فى تطوان زعموا أن الشيخ السعيدى هو الذى أصابنى بذلك المرض لانى أنكرت عليهم عبادته بالذبح والنذر والاستغاثة فقلت على كرسى الوعظ فى الجامع الكبير ان هؤلاء الذين يزعمون أن الشيخ السعيدى هو الذى أصابنى بمرض الربو ليس لهم عقل ولا دين أما العقل فدليل نفيه عنهم أن خلقا كثيرا من سكان تطوان رجالا ونساء مصابون بهذا الداء وهم يعبدون الشيخ السعيدى فمن ذا الذى أصابهم بهذا المرض وأما دليل نفى الدين فان الشيخ السعيدى اما أن يكون مؤمنا بكتاب الله وبرسول الله صلى الله عليه وسلم وحينئذ لابد أن يكون مغتبطا ومسرورا بدعوتى الى توحيد الله واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ساخطا على كل من يعبده بالذبح والنذر والاستغاثة متبرئا الى الله من عملهم ؛ واما أن يكون مشركا يرضى بعبادتهم له اذا فأبعده الله ان كان ذلك والذى نظنه به هو الخير «ربنا أغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان» . لما اشتد على مرض الربو قيل لى لو توجهت الى القصر الكبير فان بينه وبين البحر عشرين ميلا وهواؤه ناشف بعض الشىء يمكن أن يخف عنك بعض ما تعانيه فذهبت الى القصر ونزلت فى فندق وأنا فى حالة يرثى لها فجاءنى رجل يظهر عليه أثر النعمة والغنى ومعه شاب فسلم على ببشاشة فقلت له من أنت فقال لى أنا الحاج عبد السلام حسيسن وهذا ابنى محمد فرحبت بزيارته فقال لى أما تعرفنى قلت لا فقال لى اننى حضرت مجالسك فى طنجة وكنت عازما فى ذلك اليوم أن أدخل فى الطريقة التجانية فسمعتك تشرح ما فيها من الضلالات فعدلت عن الدخول فيها وحمدت الله الذى أنقذنى من الوقوع فى حبائلها فلك على فضل لا ينسى وأنا أدعوك أن تنزل فى بيتى فقلت له انى اخترت هذه المقصورة لانها محكمة النوافذ لا يهب على فيها الهواء البارد فقال لى عندى غرفة أحسن منها ومعها حمامها وبيت الخلاء وأنا أقوم بخدمتك على أحسن وجه فأقمت عنده خمسة عشر يوما ثم سافرت الى طنجة وجئت بأهلى وأقمنا فى ضيافته خمسة عشر يوما فأردنا أن نسكن فى بيت وحدنا فاسكننا فى بيت له خارج المدينة وبقيت هناك أربعة اشهر .

صلاة الاستسقاء

وفي تلك السنة قل المطر وعم الجدب وعادة المغاربة في مثل هذه الحال ان يفزعوا الى أضرحة الاولياء ويذبحوا لهم الذبائح ويستغيثوا بهم ليأتيهم المطر ويزول عنهم الجدب فأمر القائد الملالي مناديا ينادي قائلا بأعلى صوته لا اله الا الله محمد رسول الله لا تسمعون الا خيرا ان شاء الله ان الامير يأمركم أن تتبرعوا بالدراهم لشراء الثيران والكباش وتتهيئوا في اليوم الفلاني للاستسقاء عند أضرحة الاولياء فلما جاء اليوم المعين خرج الامير والقاضي وجميع أهل البلد حفاة حاسري الرؤوس وطافوا على أضرحة الاولياء قائلين بصوت واحد (جئناكم قاصدين ، لا تردونا خائبين ، يا أولياء الله الصالحين) وتوجهوا أولا الى قطب البلد على أبي غالب والثور الاسود أمامهم وهو اكبر الثيران وأسمنها فوصلوا الى ضريحه خاشعين وذبحوا ذلك الثور وذابحه يقول الذبيحة على الله وعليك يا سيدي على أبا غالب ثم طافوا على أضرحة الاولياء الكبار فذبحوا على ضريح كل واحد منهم ثورا وأما الاولياء الصغار فذبحوا على ضريح كل واحد منهم كبشا ورجعوا فنشأ غمام في السماء فسألت الله تعالى أن لا يسقيهم ولا قطرة واحدة فاستجاب الله دعائي وانقشع ذلك الغمام وجاء بعده غمام مرارا ثم انقشع ولم يسقوا قطرة واحدة وعدد جماعتنا الموحدين ومنهم السيد أحمد الجباري رحمة الله عليه والحاج عبد السلام حسيسن فبعضهم اختفى في يوم الاستسقاء خوفا من الامير وبعضهم أعلن معارضته كالحاج عبد السلام حسيسن عددهم لا يزيد على اربعين الا أن أحدهم معلم صبيان وعنده خمسون صبيا يعلمهم القرآن جاء بعض أصحابنا الى وقالوا لي ان الامير والقاضي ومن تبعهما ارتكبوا أمرا شنيعا مخزيا فنريد أن نغسل هذا العار بصلاة الاستسقاء في مصلى العيد خارج المدينة ونريد أن تكون امامنا في صلاة الاستسقاء فان المغاربة يعتقدون أنه متى صليت صلاة الاستسقاء يموت امامها ويموت السلطان ولم يشأ أحد من الفقهاء الموحدين أن يصلي اماما لان أزواجهم وأولادهم اذا سمعوا أن أحدهم يريد أن يصلي صلاة الاستسقاء اماما يفزعون ويبكون خوفا عليه ويمنعونه فقلت لهم ان المرض علي شديد ولكني أرجو من الله أن يقويني حتى أصلي بكم صلاة الاستسقاء وأنا لا أخاف الموت فاتفق الجماعة على يوم معين فجاءوني بسيارة وتوجهنا الى مصلى

العيد ورأيت الزرع بـدأ ييبس فرقيت المنبر وخطبة خطبة غلبني فيها البكاء وصليت بهم ركعتين وفي اليوم التالي أذن الله للسماء أن تمطر فأمطرت مطرا غزيرا غدقا أحيى الله به الارض بعد موتها واستبشر الناس وفرح أصحابنا بنصر الله لنا على القوم المشركين .

الاجتماع بالامير الملالي

بعد ذلك المطر كان الامير المـلالي يتحدث مع جلسائه فقال أحدهم أيها الامير ، على هذا الغيث ينبغي أن نعمل مأدبة كبيرة شكرا لله تعالى فقال ، أي والله فقال أحدهم أنا أصنع لكم مأدبة ثم قال آخر ينبغي أن يدعى الى هذه المأدبـة الدكتور محمد تقي الدين الهلالي لانه هو الذي صلى صلاة الاستسقاء التي على اثرها جاء المطر فقال الامير لا بأس ندعوه ثم قال لاحد جلسائه من سوء حظي أنني نسيت اسمه وسأصفه بما لايلتبس به مع غيره فهو رجل مـن أعيان القصر الكبير وقـد كان قبل الاستعمار سفيرا للجزائر في المغرب حسب ما سمعت وهو من جماعتنا الموحدين فقال له الامير أنت من أصحابه فاذهب اليه وادعه فجاءني رحمة الله عليه وقـال لي ان القائد الملالي يـدعوك لحضور المأدبة التي ستقام شكرا لله على المطر وكنت في أشد ما يكون من الضعف وكان مرض الربو علـيّ شديدا فسألت الله أن لايشمت بـي أعدائـي وأن يمنحني خفة وقوة لكي أستطيع أن أتحدث وأشرح حقيقة دعوتي أمام هـذا الرجل وجلسائه وهم أعيان البلد فاستجاب الله دعوتي وخف المرض قليـلا فركبت السيارة وتوجهت الى المكان المعد فسلمت عليـه وأجلسني الى جانبه وكان فقيه القصر الكبير ابن عبد القادر الطود حاضرا فبقيت ساكتا أنتظر أن تسنح لي فرصة للكلام فجرى ذكر اللحوم وما يستحسن أكله منها واختلاف أذواق الناس في ذلك فقال الامير يا عجبا لاهل سجلماسة يأكلـون الجراد وهو ضرب مـن الخنافس ويشمئزون كـل الاشمئزاز مـن أكل الحلزون ، (ويسمى باللغة المغربية ببوش) ثم قال ، ولي أصدقاء من شرفاء سجلماسـة اذا زاروني وأردت أن أغضبهم على سبيل المداعبة أقول لهم غـذاؤنا اليـوم ببوش فيتقززون ويغضبون فقلت ، أيها الأمير كيف تعيب أكل الجراد على أهل بلادنا وقد أكله النبي صلى الله عليه وسلم وتمدح أكل الحلزون وهو دود مائع

ولم يأكله النبي صلى الله عليه وسلم فالنبي معنا وبه ننتصر عليكم فقال الهلالي اذا كان النبي صلى الله عليه وسلم معكم وجب علينا أن نكون نحن أيضا معكم واستمر الحديث في ذكر ما يؤكل من الحيوان حتى ذكر أكل سباع الوحش كالذئب والكلب والنمر والاسد فاندفع الفقيه الطود يسرد ما قاله خليل في مختصره ومختصر خليل عند المغاربة هو كل شيء هو القرآن والحديث والعلم متى جرى ذكر مسألة فقهية فالسعيد منهم هو الذي يورد عليها نص مختصر خليل وحين يسمع نصه فهو القول الفصل عندهم فقال الطود قال صاحب المختصر وكره هر وذئب ونمر وأسد وانطلق بسرعة السهم يسرد مختصر خليل فسنحت حينئذ فرصة أخرى للكلام فقلت له اتقوا الله ولا تكذبوا على مالك فانكم أبحتم أكل لحوم السباع مع الكراهة التنزيهية ونسبتم ذلك الى مالك ومالك بريء من ذلك فقد روى في موطئه بسنده الى أبي ثعلبة الخشني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن أكل كل ذي ناب من السباع ثم روى بسنده المتصل الى أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال أكل كل ذي ناب من السباع حرام قال محمد بن الحسن في موطئه عقب هذا الحديث بهذا نأخذ ، يكره أكل ذي ناب من السباع وكل ذي مخلب من الطير وهو قول أبي حنيفة والعامة من فقهائنا وابراهيم النخعي انتهى ، أبعد ما يصرح مالك في روايته عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال أكل كل ذي ناب من السباع حرام تنسبون اليه القول بالاباحة مع الكراهة التنزيهية وتزعمون أنه هو مشهور مذهبه وقد جلبتم بذلك سبة على مذهبكم حتى نسب اليكم خصومكم أنكم تبيحون أكل لحوم الكلاب وهم في ذلك صادقون لان شراح المختصر ذكروا أن الكلب من جملة السباع ثم خرجت من الكلام في هذه المسألة الى الكلام في وجوب اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وترك تحكيم الرجال وآرائهم المخالفة لما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وذكرت حديث عدي بن حاتم حين جاء الى النبي صلى الله عليه وسلم وفي عنقه صليب فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ألق عنك هذا الوثن وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ سورة براءة حتى انتهى الى قوله تعالى (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم وما أمروا الا ليعبدوا الها واحدا لا اله الا هو سبحانه عما يشركون) فقال عدي يا رسوله الله انا لم نكن نعبدهم فقال

النبى صلى الله عليه وسلم أليس يحلون لكم ما حرم الله ويحرمون عليكم ما أحل الله فتتبعونهم قال بلى قال النبى صلى الله عليه وسلم فتلك عبادتهم أو كما قال ثم خرجت من ذلك الى الدعوة الى توحيد الله تعالى وترك البدع فى الدين وتحدثت زهاء ساعة والامير يسمع وكان يحب الخوض فى النوادر والضحكات ومع ذلك صبر الى أن أنهيت كلامى وكان رجلا عاقلا من أهل المروءة ومن الامثال (عدو عاقل خير من صديق جاهل) ولما انتهيت من كلامى قال لى الفقيه ابن عبد القادر الطود أيها الاستاذ اننى أكن لك الحب والاجلال فكيف هجمت على بمثل هذا الهجوم الشديد لعلك لا تعلم أنك لما رقيت المنبر لخطبة الاستسقاء بحذائك أنكر ذلك كثير من الناس فدافعت عنك وقلت لهم ان فقهاءنا قالوا لو انتقض وضوء الخطيب وهو فى خطبة الجمعة ثم دعا بماء فتوضأ واستأنف خطبته جاز ذلك فأيهما أعظم انتقاض الوضوء أو الخطبة بالنعلين فقلت له أنا ما قصدت الاساءة اليك ولكنى كنت أنتظر فرصة للكلام فهيأتها لى بسردك كلام خليل فى أكل لحوم السباع وجزاك الله خيرا على دفاعك عنى أما الذين انتقدوا على خطبة وأنا منتعل فهم أجهل من حميرهم لان الصلاة فى النعل سنة النبى صلى الله عليه وسلم فكيف بالخطبة .

الاستسقاء بذبح الخيل

وفى تلك الايام المجدبة بلغنا استسقاء آخر عجيب وغريب وذلك أن أهل سريف وهى قرية فى شمال المغرب أشار عليهم أحد الدجاجلة بمازعم أنه قرأه فى كتيب من كتب الخرافات والاساطير يسمى خزينة الأسرار وذلك أنه اذا وقع الجذب وانقطع المطر وأراد الناس الغيث يعمدون الى مهر من الخيل فيكتبون على جبهته قوله تعالى من سورة الشورى « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد » ثم يذبحون المهر ويعلقون رأسه فى فرع شجرة عالية فانهم يمطرون فعل ذلك أهل سريف فخيبهم الله وفى ذلك قلت القصيدة التالية :

بكى قوم على جاه ومال ... وأعول آخرون من الهزال
وبعضهم بكى فى اثر خل ... بعيد الانس آذن بارتحال
وبعضهم ينوح على شباب ... تولى ثم بدل باعتلال

ودين الله أصبح فى ضياع ... ولا بـاك عليه ولا مبـال
بدهـر صار فيه العرف نكرا ... ونـور الحـق غطى بالضـلال
وسنة خير خلـق الله أضحت ... تنادى أيـن أنتم يـا رجالى
طغى وبغـى عليها ذو ابتداع ... خبيث سالك سبل الخبـال
متى مـا شاهـد الغرباء هبوا ... لنصرتهـا تـوعـد بالقتـال
وغـرتـه جمـوع وافـرات ... حواليه تـوالى مـن يـوالى
وساعـده عمـوم الجهـل حتـى ... لقـد شمـل الاسافـل والاعـالى
وحزب الله يغلب كل حـزب ... وينصره المهيمن ذو الجـلال
فيصلت مـن كتاب الله بيضا ... مهنـدة تضىء دجـى الليـالى
ومـن سنن الرسول لـه سهام ... ومن حجج الاصول لـه عوالى
وأهـل الـرأى كلهـم بغـاث ... يتامى في الحديث ذوو اختبال
ومـن يعرض عـن السنـن العوالـى ... يذق مـر الهزيمة فى النـزال
ويكسى الخـزى فـى دنيـاه دومـا ... وفى أخراه يقرى بالنكـال
ومـن سنـن الرسول وتابيعـه ... سؤال الغيث من مولى النوالى
مـن الرحمن لا يدعون شيئـا ... سـواه مخلصين فـى الابتهـال
الى أن جـاء بعدهم خلـوف ... دعـوا أهـل المقابـر باهتبـال
وقد ذبحوا لهم بقرا وشـاء ... وقـد نحروا السمان من الجمال
ومن يذبح لغير الله يلعـن ... مقال المصطفى خير المقـال
وأعجـب بدعـة فيمـا سمعنـا ... وأعـرق فـى الجهالـة والخبال
أمور عن سريف قد أتتنـا ... تواتر نقلها بين الرجـال
فقـد عملوا الى مهر كريـم ... من الخيل المطهمة الغـوالى
فحـزوا رأسـه بالسيف ظلمـا ... ولم يذنب الى أحد بحـال
وقـد كتبوا بجبهتـه سطـورا ... من القرآن يـا لك من ضلال
وتلـك اهانـة للذكـر جلـت ... صفات الله عـن هـذى الخلال
ولـو تبعـوا الكتاب وعظمـوه ... مـع السنـن المطهـرة العـوالى
لاسقاهـم الـه الناس غيثـا ... بلا ذبح لخيل أو بغـال
ومن يعرض عن القرآن يسلك ... عذابا قـول ربـك ذى التعالى

والاستسقا بذبح الخيل بــدع غريب لــم نــر لــه من مثال
أهل سريف اتئدوا وتوبـــوا الى الرحمن من هذا المحـــال
فرب الناس صدقا وحـــدوده وقفـــوا للنبـــى بحـر الكمـال

« تـــمــت »

الاستسقاء بالحصى

ووقـــع فى تلك السنة استسقاء آخر لايقـل غرابة عما تقدمه وذلك ان دجالا من الدجاجلة اشار على أهل بلده أن يجمعوا سبعين ألف حصاة ويوزعون الحصى على سبعين شخصا من القراء فينال كل واحد ألف حصاة فيدنى كـل حصاة من ذلك الحصى من فمه ويقرأ عليها مرة الآية التى تقدم ذكرها (وهـو الذى ينزل الغيث الخ) ثم يضعون ذلك الحصى فى أكياس ويشدون كل كيس بحبل طويل ثم يدلونها فى نهر الى أن يصل كل كيس الى قرار النهر ويربطون راس كل حبل بشجرة قال لهم ذلك الدجال حين تستقر الاكياس فى أسفـل النهر يبتدىء الغيث ينزل ويستمر أبدا ما دامت الاكياس فى مكانها ولو بقيت سنين حتى اذا رأى الناس أن الارض قد اصابها من المطر ما فيه كفايتها ينزعون تلك الاكياس لانهم لو تركوها لاستمر المطر بدون انقطاع حتى يعـم الطوفان ويهلك الناس بالغرق ففعلوا ذلك فلم ينالوا قطرة : ـ ألا ترى أيها الموحد الموفق لاتباع كتاب الله وسنة رسوله المتجنب للبدع كلها أن اللـه سبحانه اذ خيب سعيهم وحرمهـم المطـر وحبسه حتى توجه اليه حزبه المفلحون وهم فئة قليلة لا يبلغ عددهم مائة وعملوا بسنة نبيهم ووجهوا وجوههم الى الله وحده فسقاهم ذلك المطر الغزير أراد أن يجعلها كرامة ظاهرة لاهل الحق نصر بها أولياءه وكبت بها أعداءه وبين لهم أن الذين يعبدون من دون الله لا يملكون لهم رزقا وأن الرزق بيد الله لا حيلة لمحتال فى جلبه وانما ينال بتقوى اللـه التى رأسها وسنامها توحيده واتباع سنة رسوله ؟

هجو فقيه مبتدع مر علينا و لم يسلم

كان هذا الفقيه ولا أسميه ـ ابقاء عليه ـ من أنصار البدعة والشرك فمر على ومعى جماعة من الموحدين فلم يسلم فأصلت عليه سيف الهجو جهادا فى سبيل الله ليذوق وبال أمره . وهجو المشركين من أعظم القربات وكان هذا الفقيـــه

السفيه قد بلغ به الجهل الى أنه كان فى سفر من تطوان الى القصر الكبير فصلى بمن كان معه المغرب ركعتين ظانا أنها تقصر كالرباعية فهجوته بهذه القصيدة وذكرت تلك الحادثة العجيبــة .

أبا مــرة ماذا التعاظم والكبـر وأنت حقير مائــق أرعــن غمر
أبا لعلم ان العلم عنك بمعزل كما لا يكون الدهر فى المغرب القصر
ولم نر فى أرض المغارب قاصرا كقاصر فرض للنهار هو الوتـــــر
متى رمــت أن تضحى فقيهــا محققا فقد رمت أمرا دونه الانجم الزهــر
ولا فضل ان الفضل لست بأهله ... ولا حسب يلفى لديك ولا قـــــدر
وحظك فى التدريس حظ موفـــــر فباقل ان ينسب اليك هو الحبـــر
ولو كنت من أهل السلام عرفتـــــه وأديت حقــا واجبــا تركــه وزر
ولــو ذقت للايمــان أدنى حـــلاوة لاخــرج منك الغش وانشرح الصدر
وما يستقيم الظل والعود أعـــوج ولا يثمرن الشهدة الحنظل المـــر
جهلت لحاك الله ما فى ابن عاشـــر أمن بعد هذا الخزى ينفخك الكبـر
قضاؤك يا شيخ التيوس جنايـــــة على الدين ان الدين قــد مسه الضر
اذا كــان رب الجهــل ميتــا فانمــا ثيابـــك أكفــان ومكتبــك القبـــر

انتقام المستعمرين مني

تقدم أنى سافرت الى شفشاون للبعد من شاطىء البحر طلبا لخفة مرض الربــو وبها لقيت الحسيب النسيب الكريم السيد أحمد الريسونى وضيفنى واعترف لى بأنه كان مع تلك الجماعة عازما على قتلى حتى نهاهم عن ذلك الامير العبقرى السيد خالد الريسونى رحمــة الله عليه بقيت فى شفشاون خمسة أشهر أكثرها فى بيت السيد أحمد الريسونى ثم تزوجت بفتاة من قرائب أحد اخواننا وكنت ألقى دروسا منتظمة فى الجامع الكبير دون أن أطلب اذنا مــن المستعمرين كما اتفقت عليه معهم فــى أول الامر وكانوا قد شرطوا على أن لا أسافر الى المدن الصغيرة والقرى الا باذنهم فسافرت الى شفشاون باذنهم ولكنى شرعت فى القاء الدروس بغير اذن يضاف الى ذلك ما يأتى .

الاتصال بالوطنيين المقاومين للاستعمار

كان من أشد الناس اقبالا على دروسى ومرافقتى رجال حزب الاصلاح الوطنى أذكر منهم الحسيبين النسيبيين السيد عبد الله قريش والسيد العياشى العلمى .

تأليف مختصر هدى الخليل

قال لى أولئك الاخوان ان الله قد هدانا بدعوتك الى توحيده واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم ونحن ضعفاء فى العلم لا نستطيع أن نغوص فى بحور كتب السنة على دلائل المسائل ومعرفة ما يوافق السنة لنتجنب مخالفتها ولا نأمن أن تفارقنا بالموت أو بحادث آخر فنرجوا من فضلك أن تؤلف لنا كتابا يحتوى على مسائل العقائد والعبادات مجردا عن الادلة مطابقا للسنة المحمدية فأجبتهم الى ذلك وصرنا نجتمع فى بيتى كل ليلة الى منتصف الليل أحدهم يكتب وأنا أملى والباقون يطالعون كل واحد فى يده كتاب من كتب الحديث حتى أتممنا فى مدة قصيرة كتاب مختصر هدى الخليل فى العقائد وعبادة الجليل وتبرعنا جميعا بالدراهم اللازمة لطبعه حتى تبرعت النساء المحتجبات فى بيوتهن بدون أن تذكر أسماءهن وهكذا تكون الدعوة الكاملة الصافية الخالية من الاغراض الدنيوية فتخالط بسببها بشاشة الايمان قلوب المستجيبين لها وكان الحاكم الاسبانى يبعث عيونه يتجسسون علينا فيرجعون اليه ويخبرون بأننا نجتمع كل ليلة الى ما بعد منتصف الليل فيعد ذلك من الائتمار بالحكم الاسبانى والسعى فى القضاء عليه ويبلغ ذلك الى اخوانه المستعمرين فى تطوان .

التعاون مع الامام الشهيد حسن البناء رحمة الله عليه

وبينما المستعمرون الاسبانيون مغتاضون على لانى نقضت العهد الذى بينى وبينهم لامرين أحدهما الاتصال بالوطنيين والتعاون معهم والثانى القاء الدروس بدون اذنهم وهناك نقض ثالث وهو نشر المقالات فى صحيفة الحرية لسان حزب الاصلاح الوطنى اذا بهم يكتشفون أمرا عظيما له بال هو أشد خطرا من كل ما تقدم وذلك ان الامام حسن البناء رحمه الله ورضى عنه كتب

الى يقول ان صحيفتنا (الاخوان المسلمون) بلغت من الرواج والانتشار ولله الحمد الى أن صارت فى مقدمة الصحف اليومية التى تصدر فى القاهرة ولنا مكاتبون فى جميع أنحاء العالم الا فى المغرب فليس لنا مكاتب يبعث لنا بأخبار اخواننا المسلمين فى هذا القطر المهم فأرجو من فضلك أن ترشدنا الى مكاتب تختاره لنا وتخبرنا بما يطلب من المكافأة وان سمحت لك صحتك بأن تكون أنت بنفسك ذلك المكاتب فهو أحب الينا فأجبته .

لبيك يا لبيك يا لبيكا ها أنذا منطلق اليكا

أنا الذى أتشرف بأن أكون مكاتبا لصحيفة الاخوان المسلمين ولا أريد على ذلك أجرا الا من الله تعالى .

وما أنا بالباغى على الحب رشوة ضعيف هوى يبغى عليه ثوابا

فشرعت فى كتابة المقالات وكتبت الى الصحيفة المذكورة عدة مقالات باسم مستعار وظننت أن هذا العمل يبقى سرا مكتوما وكان ذلك غفلة منى ليقضى الله أمرا كان مفعولا فقد كانت الامتيازات التى اشترطها البريطانيون على المستعمرين الاسبانيين والفرنسيين فى المغرب تقضى على الفريقين بأمور ، منها أنهم لا يتعرضون لمن له حماية انقليزية من المغاربة ، ومنها أن يكون للبريطانيين فى كل مدينة من كبريات مدن المغرب بريد لا يدخل تحت مراقبة المستعمرين وغاب عنى أن القنصل الانقليزى من أشد أعدائى وقد ائتمر مع مع الاسبانيين على فمنعونى من الرجوع الى البلاد الجرمانية وقد احتج على مقالاتى فى صحيفة الحرية عند الاسبانيين وعاقبوا الصحيفة مرات بالغرامة والوقف الموقت كما فعل القنصل الفرنسى وسيأتى مزيد بيان لهذه العداوة ان شاء الله عند ذكرزيارتى للسفارة الانقليزية قبل سفرىالى الشرق أضف الىذلك أن الموظفين فى البريد البريطانى فى تطوان كلهم مغاربة وهم رعايا للاسبانيين بحكم الاستعمار وقد أكد عليهم الاسبانيون بالرهبة والرغبة ألا يروا رسالة فيها مساس بالاسبانيين الا أطلعوهم عليها فكانوا يطلعونهم على تلك المقالات قبل ارسالها وأنا غافل عن ذلك فأجمع المستعمرون على أن ينزلوا بى عقابا صارما فأوعزوا الى جنودهم من عبيد الاستعمار ومنهم وزير العدل فى ذلك الزمان وأمير شفشاون ونائب قاضيها الحسن العمرتى أن يدبروا لى مكيدة

يوقعونني بها في شرك العقاب دون أن ينكشف أن الدافع لها هم الاسبانيون ففكروا ودبروا وقدروا فظنوا أنهم وجدوا ضالتهم المنشودة في أمر اسلامي اصلاحي وذلك أنهم علموا أني حين أقمت بشفشاون وعظت قراء القرآن جماعة بلسان واحد أن يتركوا ذلك العمل لانه مخالف للسنة وذكرت لهم حديث أبي داود عن أبي سعيد الخدري قال اعتكف صلى الله عليه وسلم في المسجد فسمعهم يجهرون بالقراءة : فكشف الستر وقال ألا ان كلكم يناجي ربه فلا يؤذين بعضكم بعضا ولا يرفع بعضكم على بعض في القراءة وروى مالك في الموطأ عن فروة بن بياضة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج على الناس وهم يصلون وقد علت أصواتهم بالقراءة فقال ان المصلي يناجي ربه فلينظر بما يناجيه به ولا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن قال ابن عبد البر حديث البياضي وأبي سعيد ثابتان صحيحان . فاستمعوا لنصحي وتركوا القراءة على تلك الصورة ثم تبعهم أهل المساجد الاخرى فوجد أمير شفشاون ونائب قاضيها باتفاق مع الوزير الوازر أنهم يدخلون علي من هذا الباب فأعد الوزير وأعوانه فتوى في صحيفة طولها نحو ذراعين أراني اياها الوزير فيما بعد وزعموا أن الراجح في مذهب مالك أن القراءة برفع الصوت جماعة في المسجد وان كان الناس في كل لحظة يدخلون ويصلون تحية المسجد جائزة بل مستحبة وكل من درس مذهب المالكية في هذه المسألة يعرف أنهم كاذبون وقد نص خليل على ذلك بقوله وجهر بها في مسجد كجماعة وأقيم القارىء في المسجد يوم الخميس أو غيره وبسط القول في ذلك شراحه خصوصا المواق فضربوا بذلك عرض الحائط واتبعوا بنيات الطريق ولما أعدوا الفتوى وأطلعوا على ذلك سادتهم المستعمرين رضوا عنهم وقالوا لهم لله دركم من عبيد ناصحين مخلصين فان هذه المكيدة لم تخطر لنا على بال وبها يبقى أمرنا سرا مكتوما فاتفقوا مع أمير شفشاون أن يأمر القراء بالعود الى تلك المخالفة لانهاهم أنا فيتخذ ذلك وسيلة للقبض علي وايداعي السجن بدعوى التشويش في أمور الدين فجاءني النذير من أصحابنا وأخبرني بأن الامير ونائب القاضي وأعوانهما سينصبون هذا الفخ الشيطاني في الجامع الكبير يوم الجمعة وسيأتي الامير بالشرطة معه ليقبضوني وكنت في ذلك الوقت أقاسي من شدة الربو والضعف الشيء الكثير فقال لي وازع النفس الامارة بالسوء اترك صلاة هذه الجمعة وأنت مريض عذرك

معك ولا تجعل لهم سبيلا عليك فما بك قدرة على السجن والتعذيب ، فقال لى وازع الله فى قلبى أنت خضت هذه المعركة منذ زمان طويل ولم تبال بما يصيبك فى سبيل الله فكيف تجبن اليوم فغلبت النفس اللوامة على النفس الامارة وذهبت وأنا أظن أننى لا أتم صلاة ركعتين تحية المسجد حتى يصعد الخطيب على المنبر ولا يبقى مجال لتغيير المنكر ولكن ما كتب على المرء لابد من وقوعه فتوجهت الى الجامع الكبير ووجدت جماعة القراء قد عادت الى القراءة جماعة رافعين أصواتهم بأقوى ما يستطيعون فصليت ركعتين ثم ذهبت اليهم ووقفت على حلقتهم ورفعت صوتى وقلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم كلكم يناجى ربه فلا يجهر بعضكم على بعض بالقرآن ولا يؤذ بعضكم بعضا فما كدت أنتهى من هذا الحديث حتى سمعت صوتا وهو صوت الامير يقول اشت اسكت فقلت أسكت أنت يا جاهل يا ظالم اما تستحى من الله أن تقابل حديث رسول الله بمثل هذا من سوء الادب فما شعرت الا وخمسة من الشرطة يدفعوننى الى باب المسجد فمروا بى على نائب القاضى الحسن العمرتى فقام واقفا وقال بأعلى صوته اضربوا الكلب الكافر هذا أمر من الخليفة ففضح سرا دون أن يشعر ولم يمهلونى أن أبحث عن حذائى فقلت لهم أنا لا أمشى حافيا فذهب بعضهم وجاءونى بأحذية متعددة حتى وجدت من بينها حذائى فاحتذيته فصار أحدهم يدفعنى فى كتفى ويقول (زيد زيد) ومعنى ذلك باللغة المغربية امش امش فقلت يا هذا هون عليك فانك لا تستطيع أن ترعبنى ولست بنادم على ما صنعت ولا خائف مما تبيتونه لى والله غالب على أمره ولكنكم قوم تجهلون قلت معنى ذلك باللغة المغربية حتى أوصلونى الى غرفة التوقيف التابعة لمكتب الامير وأدخلونى وأغلقوا على الباب وكان معى مصلاى فبسطته وصليت الظهر أربع ركعات وكانت رائحة كريهة تنبعث من أركان تلك الغرفة وان كنت لم أر نجاسة فيها وبعد نصف ساعة أى بعدما رجع الامير من الصلاة وعلم أن أعوانه حبسونى فى غرفة الموقوفين وهو يعلم خبثها تحركت فيه عاطفة الرفق فأمر أحد الكتاب أن ينظم الى موظف آخر ويترك غرفته حسب ما سمعت وأمرهم أن ينقلونى الى غرفته فسمعت صلصلة المفتاح فى القفل ففتح الباب ودخل شرطى وقال لى قم واتبعنى فانطلق بى الى غرفة نظيفة فيها مقعد خشبى فجلست عليه وأغلق على الباب بالمفتاح فبعد قليل فتح الباب ودخل على أحد

الموظفين وهو من أقارب الامير وهو المسمى ابن اليمانى وجاءنى بطعام فأكلت منه قليلا وقال لى ان الامير نادم على عمله ولكنك أهنته أشد الاهانة على رؤوس الاشهاد فصار مضطرا الى أن يعاملك بمثل هذه المعاملة فقلت له اعملوا على مكانتكم انا عاملون وانتظروا انا منتظرون ثم علمت زوجتى بما وقع فبعثت لى فراشا وطعاما مع أخيها فلم أستطع أن آكل شيئا فقلت له رده وائتنى بالمصحف لانى أحب ان أقرأ فيه لاكون أقوى على التدبر منى لو قرأت من حفظى فجاءنى به وفى تلك الايام كان المجاهد العظيم أمير البيان الامير شكيب أرسلان قد توفى الى رحمة الله فأردت أن أنظم قصيدة فى رثائه وطلبت أداة كتابة فلم يأذن بذلك الامير فأخذت انظم القصيدة بدون كتابة بيتا فبيتا حتى أكملتها ستة وعشرين بيتا لانشدها فى يوم تأبينه ان أطلق سرا حى أو أبعثها لتنشد فى ذلك اليوم ان بقيت فى السجن فقضى الله سبحانه أن أخرج من السجن وأحضر يوم التأبين وأنشدها فيه ولم أر مناسبة لذكرها هنا لانها لا تتعلق بالدعوة وقد نقلها المجاهد الكبير محمد على الطاهر فى كتابه ذكرى الامير شكيب أرسلان فليرجع اليه من شاء الاطلاع عليها وعند منتصف ليلة السبت وهى الليلة الاولى التى قضيتها فى السجن أو التوقيف كما يسمونه سمعت صلصلة المفتاح فى القفل ففتح الباب وجاءنى ذلك الشرطى الذى كان يدفعنى أمس ويقول امش امش فأخذ يقبل يدى ورجلى ويقول سامحنى يا سيدى ولا تواخذنى بما فعلت فان هذا الامير الظالم أمرنى بذلك وان شئت أن تخرج الى صحن الدار لاستنشاق الهواء النقى فأنا فى خدمتك وان أردت طعاما أو شرابا أو فراشا فأمرنى به فدعوت له بخير وعفوت عنه وقلت لا أحتاج الى شىء.

الاجتماع بالحاكم الاسبانى

وفى ضحى يوم السبت فتح الباب وأمرت بالخروج فلقيت شرطيا عند باب المبنى ينتظرنى فقال لى أنا رسول المراقب المدنى اليك لتأتى الى مكتبه ولاجل أن لا يراك الناس فى هذه الحال سأخرج بك خارج المدينة ونسير فى طريق البساتين الى أن نصل الى مكتب المراقب فقلت له انت مخطىء فى ظنك أتظن أنى أستحى أن يرانى الناس ويعلموا أنى مسجون على يد المستعمرين انى أرى ذلك شرفا وأحب اعلانه فقال لى على كل حال الافضل أن لا نمر بالسوق

فقلت له ان امرك المراقب بذلك فلا بأس فانطلقت معه الى المراقب فأجلسنى اولا فى مكتب فقيه المراقبة فسلم على الفقيه سلام اجلال وتكريم وقال لى جزاك الله خيرا لقد شرفت أهل العلم بصبرك وجهادك وشجاعتك ان الناس كانوا يقولون ان العلماء جبنا، فأقمت أنت البرهان على كذبهم وأهل هذه المدينة اصبحوا يجلونك ويحبونك حتى الذين كانوا يعادونك من قبل وفى هذا اليوم ظهر لك مقال فى صحيفة الحرية فتخطف الناس أجزاءها وقراوا مقالك بشوق فجاء الشرطى ودعانى الى مكتب الحاكم الاسبانى وكان من فضل الله على أننى ما هبت احدا منهم ولا ناظرت احدا منهم الا ظهرت عليه فدخلت المكتب وجلست على كرسى مواجه له فافتتح الحديث بقوله اننا متأسفون على ما وقع بينك وبين الامير ونائب القاضى ولما كانت هذه المسألة دينية لم يكن لنا ان نتدخل فيها ونحن نكرم اهل العلم ورجال الدين ونرى أنه ينبغى لهم أن يكونوا حلماء ويصفحوا عن المسيئين اليهم ولذلك اقترح عليك أن تجتمع مع الامير وتتصالح معه ليتمكن من اطلاق سراحك وكلاما من هذا القبيل فقلت له بواسطة الترجمان مع أنى كنت افهم ما يقول لانى كنت فى برلين قد دفعت أجرة مائة ساعة لتعلم اللغة الاسبانية فحضرت منها ستين ساعة اضف الى ذلك انى اقمت فى غرناطة اربعة اشهر كما تقدم ، قلت له هذا الاقتراح الذى اقترحت على يتفق عندكم مع تعظيم الدين والعلم وحرمات المساجد أرأيت لو أن قسيسا كان يعظ الناس فى الكنيسة فقام رجل من الحاضرين واساء الادب مع الدين ومعه واسكته فقال له القسيس الواعظ أنت أحق بالسكوت يا جاهل يا ظالم وكنت أنت حاكم تلك المدينة ثم رفع الامر اليك فبأى حكم تحكم أتحكم بحبس القسيس والزامه بطلب العفو من ذلك الظالم الذى أمر بحبسه وأساء الادب مع الدين وانتهك حرمة الكنيسة أم تأمر بحبس ذلك الجانى واطلاق سراح القيسيس والاعتذار له وارضائه فقال لى حائدا عن الجواب مقصودى أن العلماء من شأنهم أن يكونوا حلماء فقلت أرنى حقى ثم أطلب من الحلم أما قولك انها مسألة دينية فليس بصحيح فانى اقمت هنا أكثر من خمسة أشهر والامير ونائب القاضى يعاديانني ولم يتجرآ على الاساءة الى حتى حرضتموهم على ذلك وهما عبدان خاضعان لكم لا يتجرآن أن يحبسا نملة الا بأمركم وأنا لست من الغفلة بالمكان الذى يروج على فيه اعتذارك هذا فهو مردود عليك فقال لى أنا متأسف

وما أردت لك الا الخير وأنت حر فى تصرفك وكان مما قاله لى ونسيت ذكره فى موضعه ان الامير كان مكرها على حبسك لانك شتمته أمام رعيته فلو لم يحبسك لم يبق له حرمة عندهم فلا يستطيع أن يحكم على أحد بعد ذلك فقلت له أهكذا تكون العدالة عندكم فى اسبانيا يتجرأ أمير قرية على اسكات واعظ فى الكنيسة والامر بحبسه ولا يعد ذلك ظلما ولا اهانة للدين والعلم ثم يعتذر للظالم بهذا العذر البارد فهب أنه لم تبق له حرمة عند رعيته ولا يستطيع أن يحكم عليهم فهناك حكم آخر هو أحسن وأعدل وهو أن يعزل ذلك الحاكم ويعاقب على عمله ويستبدل بغيره فانصرفت من عنده والترجمان يرافقنى وهو متأسف على فقال لى ماذا صنعت بنفسك يا أخى أنت مريض ولا قوة لك على البقاء فى السجن ولا تظن أن هذا الذى أنت فيه هو السجن انما هذا هو توقيف وتمهيد وسيحكم عليك بالسجن والمكث فيه صعب ولا تغتر بما يظهره لك الناس من المحبة فانه يمكن أن تبقى فى السجن حتى تموت فقلت له كما قلت للاسبانى قبله أتريد منى أن أذهب الى الامير وأتذلل له وأكذب على نفسى وأقول انى كنت مخطئا فى جوابى لك فأسألك العفو فقال هذا الذى يحتمه الحال التى انت فيها فقلت لن أفعل ذلك أبدا ان شاء الله وليكن ما عسى أن يكون فقال لى أرجو أن توافقنى على لقاء الامير فقط فقلت أنا موافق عليه فقال انتظرنى هنا فرجع الى الحاكم فقال انه قبل أن يجتمع بالامير فأذن لى أن أرافقه وكان هذا الرجل ناصحا لى ولم يكن يدرى أن الامر ليس بيد الامير ولا بيد حاكم شفشاون وانما جاء من الدائرة العليا فى تطوان وهو أمر بيت بليل فلم يأذن له الحاكم بل قال له الشرطى الذى جاء به يرده فقال الترجمان للشرطى اذهب به الى الامير فذهبت الى الامير فى مكتبه وقلت السلام عليكم فقال وعليكم السلام اجلس وأشار الى كرسى فجلست وبقينا ساكتين ثم قال أيها الاستاذ أنت قلت فى المسجد أمام الناس انى جاهل وأنت صادق ولكن لو قلت ذلك وصفحت عنك لسقطت فى أعين الناس ولم يبق لى عندهم احترام فقلت له ماذا تريد بهذا الكلام لعلك تريد اظهار الندم وفتح باب الصلح فقال نعم فقلت له لى شرط واحد ان أنت قبلته سامحتك فى الدنيا والآخرة وان لم تقبله فردنى الى السجن وقبل ذلك قلت له لماذا كنت قبل أن أجيء الى بلدك كلما رأيتنى فى تطوان أسرعت الى السلام على ببشاشة وتودد ولما جئت الى بلدك لم تسلم على

ولا مرة واحدة ولا ضيفتنى فقال لى لم أستطع ذلك معناه أنه يخاف من الاسبانيين ثم قلت له وهذا هو الشرط أن تقف فى المسجد الجامع قبيل أن يرقى الخطيب على المنبر وتقول أيها الناس اشهدوا على انى كنت ظالما حين أسكت الدكتور محمد تقى الدين الهلالى يوم الجمعة الماضى وانى أشهدكم أنى تبت الى الله وأننى ألتزم نصرة سنة النبى قولا وعملا حتى ألقى الله فقال لى دعنى أفكر فى هذا الامر فقلت اذا أرجع الى السجن حتى تفكر وكان الشرطى عند الباب فذهبت معه الى السجن ،أما أهل شفشاون فانهم استنكروا هذا العمل كل الاستنكار ولم يخافوا سطوة الامير ولا سطوة الاسبانيين واجتمع خلق كثير منهم فتوجهوا الى مكتب الامير ليبدوا له استنكارهم ويطلبوا منه اخراجى فأمر الشرطة أن يصرفوهم فصرفوهم ومن شدة اعجابهم بموقفى وثباتى أشاعوا أن الامير عرض على أن يطلق سراحى فامتنعت ولعلهم فسروا اشتراطى ذلك الشرط عليه بالامتناع ووجدت بخط يدى ما نصه أن سكان شفشاون قد قاموا وقعدوا لهذه الحادثة وأقاموا القيامة وبلغ بهم الامر الى أنهم هجروا الجامع الاعظم فى الجمعة التالية فلم يصل فيه أحد الا الغرباء الذين يأتون الى السوق وذهب جماعة من المواطنين الى طنجة واحتجوا على هذه الحادثة عند السفير الاسبانى وأذاعت اذاعة لندن وقاطعوا الامير بقدر جهدهم فقد كانت لهم عادة فى أوائل ربيع الاول أن ينادى المنادى فى الناس بأمر من الامير أن يجمعوا النقود لشراء ثور يذبحونه فى اليوم الثانى عشر من هذا الشهر على القبة المدعوة سيدى على بن راشد ويبيتون ليلة الثانى عشر مع أمير المدينة ينشدون القصائد فى المدح النبوى فى تلك القبة الى أواخر الليل وبعد هذه الحادثة دخل ربيع الاول ونادى المنادى وكان شابا فذهب الناس الى أبيه وقالوا له كيف تترك ابنك يعين هذا الظالم الذى قبض على الدكتور يوم الجمعة بالمسجد الاعظم فلام الرجل ابنه فقال انى فعلت ذلك خوفا منه فقط وأنا أقول للناس بصوت منخفض لا تفعلوا لا تفعلوا ولم يتبرع أحد بفلس واحد لشراء الثور فاضطر الامير أن يشتريه من ماله الحرام وما ذبح لغير الله فهو جدير أن يشترى بمال حرام ولم يشاركه أحد من أعيان البلد فيما يسمى عندهم باحياء الليلة وهو فى الحقيقة اماتة لها وهذا فى زمن الاستعمار عمل عظيم ولا يستغرب مثله من سكان الشمال فان لهم مواقف مشرفة فى محاربة الاستعمار لا يتجرأ

عليها سكان الجنوب ولولا خوف الاطالة لذكرت أمثلة من ذلك .

وفى عصر ذلك اليوم وهو السبت 24 صفر 1366 هـ الموافق 17 يناير 1947 م جاءنى السيد عبد السلام بن محمد المؤذن ، والسيد محمد العبودى وهما من خاصة تلامذتى من الشبان فدخلا على فى معتقلى وقال لى السيد عبد السلام اننا جئنا ظهرا وكنا عند الامير وبلغته أن والدى السيد محمد المؤذن ساخط كل السخط على معاملته لك وقال وقلت له أنا أين الصداقة والاخوة التى بينا كيف تقبض على أستاذنا وتخرجه من المسجد وتحبسه بصورة مخزية لك وتبقى بيننا وبينك مودة، فقال لى ياسيدى عبد السلام هذا سر لاأستطيع أن أخفيه عنك ولا أستطيع أن أبوح به لغيرك ان المراقب الاسبانى هو الذى أمرنى بالقبض عليه وقد جاءه الامر من تطوان بذلك وأرجو أن تكتم على هذا الامر ولا تخبره به فان فى ذلك خطرا على منصبى وغدا يوم الاحد ما فيه شغل وفى يوم الاثنين يكون عندكم فى تطوان ، فان قلت لماذا يخاف الامير من السيد عبد السلام ووالده كل هذا الخوف فالجواب ، أنه كان له عيال كثير وكان مفلسا على الدوام فاذا أراد المستعمرون توزيع سلفة من الحبوب على الاهالى يطلبون منه ثمنها نقدا فلا ينقذه الا السيد محمد المؤذن فهو يقرضه المال الذى يدفعه للمستعمرين ثم يأكل هو أكثر تلك الحبوب ويوزع شيئا قليلا على أصدقائه وهذا أمر مألوف بين حكام الشعوب المستعمرة .

الانتقال الى تطوان

مر يوم واحد وهو يوم تعطيل عند النصارى يمنع حكامهم رعاياهم ورعايا البلدان الواقعة تحت حكمهم من العمل من بعد ظهر يوم السبت الى صباح يوم الاثنين حتى المستشفيات يعطل فيها الشغل ولا يفعل الا ما هو ضرورى لانقاذ الحياة وكذلك المدارس والمحاكم ودور التجارة والمصانع الا أن سكك الحديد والطائرات والمطاعم لا تعطل ومن خالف هذا القانون واشتغل يعاقب عقابا صارما وليس العجب من النصارى اذا عطلوا يوم عيدهم المكذوب على المسيح فذلك دينهم ولكن العجب كل العجب من سكان المستعمرات التى كان يحكمها النصارى كباكستان والمغرب والجزائر ثم استقلت منذ زمان طويل ومع ذلك ما تزال محافظة على سنة النصارى فى تعطيل يوم الاحد وتعطيل أيام عيد الميلاد

وكذلك لم يزل هؤلاء وغيرهم محافظين على سنة النصارى فى استعمال تاريخ النصارى وهجر تاريخ الاسلام حتى أن علماء الدين أنفسهم يكتبون الى اخوانهم المسلمين ويؤرخون لهم الكتب بتاريخ النصارى وللكلام على هذا موضع آخر وانما هى نفثة مصدور ، وانما قلت ان جعل يوم الاحد عيدا للنصارى مكذوب على المسيح فى جملة ما كذبوا عليه كأكل لحم الخنزير وقولهم ان الله ثلاثة أقانيم الاب ، والابن ، وروح القدس ، لان المسيح كان يعطل يوم السبت كسائر بنى اسرائيل والاناجيل الاربعة طافحة بذلك فلما تنصر الملك قسطنطين كره موافقة اليهود فنقل العيد من يوم السبت الى يوم الاحد ،،،، أقول مضى يوم الاحد على فى السجن لانه لا عمل فيه وقبل فجر يوم الاثنين سمعت صوت المفتاح فى القفل ثم فتح الباب وقال لى الحارس خذما تحتاج اليه من أمتعتك لانك ستبارح هذا المكان فأخذت اللبدة التى أصلى عليها ولم آخذ شيئا غيرها وخرجت من مبنى مكتب الامير فوجدت حارسا آخر على الباب ينتظرنى فسلم على بلطف وأدب غير معهود من حراس مكتب الامير وقال لى اتبعنى فانطلقت معه الى مكان قريب من شركة بالين سيانا للسيارات فقال انتظرنى هاهنا فتيممت وصليت الصبح لان فرضى فى تلك الايام كان تيمما للمرض الذى كنت مصابا به ثم رجع الى الحارس وأخذنى الى السيارة وركب الى جانبى فتوجهت بنا السيارة الى تطوان ولما نزلنا رافقنى الحارس الى مكتب (كاساس) وهو المراقب الاسبانى الذى كان يتصرف فى جميع شئون الحكم فى تلك الايام وكان شديدا على المغاربة وكنت أقول فيه باللغة الاسبانية ، (كاساس كيقا أدسترويير سوس كاساس) وهذا سجع لان الكلمة الاولى والاخيرة لفظهما واحد ومعناهما مختلف فى الاولى علم على ذلك الحاكم الاسبانى والاخيرة معناها بيوت أو ديار ومعنى الجملة كاساس هو الذى سيخرب بيوتهم أى بيوت قومه الاسبانيين وكذلك وقع فانه بقى يحكم بأمره وأمر رؤسائه حتى فاجأه الاستقلال وخرج من تطوان خاسئا ذليلا (فقطع دابر القوم الذين ظلموه والحمد لله رب العالمين) ولما جلست أمام كاساس قال لى نحن متأسفون لهذا الحادث وقد اشترط عليك الحكام الذين كانوا قبلى ان لا تسكن فى المدن الصغيرة لان حكامها يتصرفون حسبما يظهر لهم ولما كان هذا الحادث من شؤون الدين الاسلامى فنحن لا نحب أن نتدخل فيه وانما ننفذ ما يحكم به القاضى والامير فقلت له اننى لم أبلغ من

الغفلة والجهل الى الحد الذى تظنه فهذا الحادث بحذافيره منكم واليكم وتستركم بدين الاسلام وبالمسجد وبالقاضي والامير لا يجديكم نفعا وبرهان ذلك أن هذه المسألة وهى وعظ قراء القرآن أن لا يرفعوا أصواتهم ولا يقرؤوا جماعة وقعمنذ أكثر من خمسة أشهر واستمع القراء وقبلوا النصح وتركوا القراءة طول هذه المدة والامير والقاضي يسمعان ويريان ولم يحركا ساكنا ولا نسبا ببنت شفة حتى أو عزتم اليهما بنصب هذا الشرك ولم تقتصروا عليهما بل أو عزتم الى وزير العدل أن يحضر فتوى بذلك فقال لى أنا آسف على تصورك هذا الذى هو مما تخيلته ولا نصيب له من الصحة فقلت له أنت حاكم تستطيع أن تجعل الصحيح باطلا والباطل صحيحا بالقول ولا يستطيع أحد أن يعارضك ولكن الحقائق فى نفسها ثابتة لا تتبدل فقال لى نحن لا نمنعك أن تسكن فى شفشاون ولكننا لا نستطيع أن نضمن لك أن لا يتكرر مثل هذا الحادث لاننا لا نستطيع أن نقيد أيدى الحكام المغاربة والاسبانيين عن التصرف طبق ما يرونه صالحا للبلد الذى يدبرون شئونه ثم قال لى أنت حر طليق يمكنك أن تنصرف فكانت مدة اقامتى فى السجن الى أن أطلق سراحى ثلاثة أيام ثم رجعت الى الاستقرار فى تطوان وبعثت أحد تلامذتى الى شفشاون وأرسلت معه رسالة الى اخوة الزوجة أن يأتوا بها وبالامتعة الى تطوان .

لماذا خذلنى خليفة السلطان مولاي الحسن بن المهدي

كان من أسباب انتباه الاسبانيين الى واساءتهم لمعاملتى أن هذا الخليفة بعث الى سيارته فى الاسبوع الاول الذى قدمت فيه تطوان وكنت فى نادى الطالب المغربى مع أن المسافة بين النادى والقصر الخليفى لا تحتاج الى سيارة ولكنه أراد اكرامى فركبت السيارة ووصلت اليه فرحب بى وقال لى ، لى أمنية لم تزل تختلج فى صدرى وهى انشاء معهد للقرآن والحديث ولكنى لم أجد لهذا المعهد رجلا كفؤا أطمئن اليه فى تدبير شئونه حتى قدمت أنت وعلمت ما لك من الفضل والعلم والدين فأنا أرجو أن تقيم عندنا فى تجلة واكرام ولا ترجع الى المانيا لان بلادك فى حاجة اليك فدعوت له وشكرته على حسن ظنه واعتذرت بأننى جئت لزيارة تطوان بقصد الرجوع الى برلين لان لى علائق لابد من انهائها

فعاد الى الالحاح فقلت أفكر فى هـذا الامر ، أما جواسيس الاستعمار فقـد أسرعوا الى الاسبانيين وبلغوهم هذا الاجتماع فحسبوا له حسابا وفكروا وقدروا وكان ذلك سببا لان دعانى مدير الشرطة االعام الى مكتبه واستنطقنى لمـدة ثلاث ساعات كلها سين جيم كما يقولون وعلى اثر ذلك انتزع منى جواز السفر وقال لى سأنقل ما فيه وأرده لك فكان ذلك آخر العهد به ثم تـلا ذلك ما تقدم ذكره من اتهام الاسبانيين لى بأننى مبعوث من الحكومة الالمانية للسعى فـى اخراج الاسبانيين من المغرب ولما رأى الخليفة الاسبانيين عاملونى بتلك المعاملة صرف النظر عما دعانى اليه وتولى الاسبانيون أنفسهم تأسيس المعهد الاسلامى الاعلى وهذا الخليفة وان كان مقيدا بسلاسل الاستعمار فانه كان متصفا بالشهامة والغيرة على الاسلام كما ستعرفه فيما بعد الا أن الوشاة من أعداء التوحيـد والسنة بلغوه أنى صرت من أتباع أمير العرائش السيد خالد الريسونى وكانت بينهما عداوة شديدة وان كان الخليفة فى الظاهر هو نائب السلطان وهـو الرئيس على جميع الامراء الا أن الاستعمار كان يسير على خططه المعوجة ومصالحه المنشودة وهو يعلم أن السيد خالد ادريسى النسب وكان أبوه قد ثار على الدولة العلوية والخليفة علوى وللاستعمار مصلحة كبيرة فى اثارة الحزازات والمنافسة بين الادارسة والعلويين جريا على قاعدة (فرق تسد) فلما بلغ الخليفة هذا الخبر قبله على علاته ولم يمحصه فلذلك خذلنى عندما حبسنى الاسبانيون ولما سمع خبر هذا الحادث الامير خالد الريسونى رحمه الله كتب الى بخط يده كتابا يقول فيه انه قد بلغنى ما جرى عليك مما صنعته أيدى المغاربة والاسبانيين فأسفت لذلك كثيرا فهلم الى فانى مستعد لحمايتك واكرامك مادمت مقيما فى المغرب لا تصل اليك يد مغربى ولا اسبانى وان أردت السفر الى الشرق أوصلتك الى أى مكان تريد . ولم يكن لى أحد أستشيره الا عالم المغرب وأديبه العبقرى فى هذا العصر الاستاذ عبد اللـه كنون لثقتى بحصافـة رأيـه واخلاصه النصيحـة فاستشرته فقال لى لا تفعل ان لك عند أبناء قومك المغاربة من علو المكانة والقدر أكثر مما للامير خالد الريسونى فاقنع بحماية اللـه فأخذت برأيه وكتبت الى الامير خالد وشكرته واعتذرت عن قبول ما دعانى اليه وعلم بعد ذلك الخليفة أن الوشاة خدعوه واننى لم أكن من أتباع أمير العرائش ولا غيره وانما كنت ولا أزال ان شاء الله من المتبعين للنبى صلى الله عليه وسلم ،

طلب أمير شفشاون المصلح مرة اخرى

جاء أمير شفشاون الى السيد محمد المؤذن رحمه الله واعتذر له بأن الاسبانيين أمروه بأن يقبض علي وأنه لم يزد على تنفيذ ما أمروه به وأن ناسا من المشركين والمبتدعين ومنهم الحسن العمرتي طلبوا منه أن يضربني ثلاثمائة سوط لاني أنكرت كرامات الاولياء وطعنت في عقيدة الاشاعرة وأفسدت المذهب المالكي فأبى أن يسمع قولهم احتراما لعلمي وفضلي الذي يعتقده وهو يطلب من السيد محمد المؤذن أن يصلح بيننا فقلت للسيد محمد المؤذن أنا لا أمتنع أبدا من الصلح ولكن بالشرط الذي شرطته عليه في مكتبه بشفشاون فبلغه ذلك فلم يستطع ولكنه بقي مع ذلك مصرا على طلب العفو مني يتحين الفرص لذلك وفي يوم من الايام ذهبت لزيارة الخليفة مولاى الحسن بن المهدي بارك الله في حياته فسجلت اسمي وأمرت بالانتظار في مقصورة تسمى البنيقة وكان هناك أناس غيري ينتظرون لقاء الخليفة فما شعرت الا وقد هجم على شخص وقبل رأسي وقال لي أيها الاستاذ أطلب منك المسامحة فاذا به أمير شفشاون اليزيد بن صالح فلم أجبه بشيء ولاشك أن هذا الرجل لم يكن خاليا من الخير بالمرة وكان صادقا في قوله ان الاسبانيين أمروه بالقبض علي وقد طلب العفو مني ثلاث مرات الا أن شرطي كان شاقا عليه ،،،، وبعد عشر سنين من ذلك فقط جاء الاستقلال وذهب الاستعمار وذل من كان معتزا به ووصل الى الحضيض الاسفل بل قبل ثماني سنين فقط وفي سنة 1957 سافرت الى المغرب ووجدت أميرشفشاون أحد اخواننا وهو السيد العياشي العلمي فأكرمني غاية الاكرام ووجدت الحسن العمرتي قد جلله الخزي ولزم بيته فلا يخرج منه فألقيت درسا في المسجد الاعظم الذي قبض علي فيه افتتحته بقول الله تعالى من سورة القصص (ونريد أن نمن على الذين استضعفوا في الارض ونجعلهم أئمة الوارثين ونمكن لهم في الارض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون) ثم قلت أين المراقب الاسباني أين اليزيد بن صالح وأعوانه أين الحسن العمرتي أخنى عليهم الذي أخنى على لبد فلما فرحوا بما أتوا أخذناهم بغتة فاذا بهم مبلسون فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين قال تعالى في سورة النمل (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون، فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ان في ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين أمنوا وكانوا يتقون) وامتلأ المسجد الجامع

كما يمتلىء يوم الجمعة وأنجز الله سبحانه وتعالى ما كنت أوعدت به الامير السابق فى القصيدة التى ستأتى فى هذا الكتاب قال تعالى فى سورة غافر (انا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا ويوم يقوم الاشهاد) اللهم اجعلنا من الذين آمنوا واتبعوا رسلك فنصرتهم على أعدائهم .

عاقبة أمير شفشاون اليزيد بن صالح

نقل الاسبانيون هذا الامير لاخلاصه فى خدمتهم الى امارة مدينة تطوان وهى عاصمة الشمال مكافأة له على اخلاصه لهم فلما جاء الاستقلال زار الملك المظفر محمد الخامس مدينة تطوان فجاء اليزيد وأخذ يطوف على المستقبلين ويقول أين اللبن أين التمر ، ومن عادة المغاربة أن يستقبلوا كل ضيف عزيز باللبن والتمر فجاء جماعة من الوطنيين المجاهدين وقالوا له أيها الخائن بلغت بك الوقاحة الى أن تأتى الى هنا بأى وجه تستقبل الملك أبالوجه الذى خدمت به الاستعمار، وحملوه فى الهواء وألقوه بعيدا فأصابته رضوض وجروح ودخل بيته ولم يخرج منه الى أن مات وينبغى أن أثبت هنا القصيدة التى أنشأتها فى هجوه لا حقدا عليه لان طلبه المتكرر بالعفو يلين القلب القاسى هذا مع أنه كان أميرا وأنا رجل غريب لا ناصر لى الا الله ولكن لما فيها من العبر فقد أنطقنى الله فيها بأمور وقعت كلها فى المستقبل القريب كأنى كنت أنظر اليها :

يزيد لئيم الطبع خب منافق	على صورة الانسان وهو مريد
من النكر يدنو حيث سارت ركابه	وأما من المعروف فهو بعيد
وما كان يوما زائدا فى فضيلة	ولكن يزيد فى الفجور يزيد
ضعيف متى يدعى الى فعل صالح	ولكنه فى السيئات شديد
فان كان حقا ما دعوه بن صالح	فما رأيه فى الصالحات سديد
يحارب دين الحق من أجل شقوة	ويبدىء فى اجرامه ويعيد
كلام رسول الله أعدى عدوه	متى يسمعنه فهو عنه يحيد
وان قلت قال الله زاد نفوره	وأدبر يدعو ويله ويميد
ولا غرو فالجعلان يجلب حتفها	شذا المسك مما نالها فتبيد
يضل بذكر الله من حان حينه	ويهدى به للصالحات رشيد
ومن رام يطفى بالجهالة نوره	فذلك غمر للمحال يريد
وأهل حديث المصطفى من يعادهم	ينله عذاب واصب ووعيد

فهم أولياء الله والله مؤذن ... معاديهم بالحرب وهو شهيد
وكم جاهل أمسى يحاول حربهم ... فباء بخزى ما عليه مزيد
فقل لشقى بالوعيد مكذب ... أتاك وبال ليس عنه محيد
وكم صالح ولى وخلف خلفه ... غويا صروح الموبقات يشيد
أتغتر بالامهال تحسب أنه ... ـ لك الويل ـ اهمال فأنت بليد
سيأتيك يوم عن قريب حسابه ... عسير وأخذ المجرمين شديد
فأبشر بخزى ما حييت وان تمت ... تلاق الذى لاقى أخوك يزيد
ولو كان ذا فضل لهانت مصيبة ... ولكن جهول فاجر وعنيد
ولولا الشقا ما غره ظل منصب ... ولا عدد من خادميه عديد
فلا منصب الا سراب بقيعة ... وان كان ملكا قد حمته جنود
تفرعنت يا مغرور فى حكم قرية ... غدوت بها للصالحين تكيد
لصيد ضعاف قد نصبت حبائلا ... وكم صائد قد عاد وهو مصيد
ومنذ رآك الناس فيها تشاء موا ... بشر ونحس لا يزال يزيد
ولو كنت برا لم تطل لك مدة ... ولكن عهد المجرمين مديد

بين اليزيد والملالى

بعد حادثة السجن اجتمع اليزيد بن صالح أمير شفشاون بالملالى أمير القصر الكبير زار الاول الاخير فى قصره فقال احد جلساء الامير الملالى يخاطب اليزيد جازاك الله خيرا على ما فعلت بعدونا الهلالى ان عملك معه يعد جهادا فى سبيل الله فانه ينكر على سيدى أحمد التجانى وأهل طريقته ويحكم عليهم بالضلال فسكت اليزيد وقال له الملالى لا تظن أن هذا وان كان من جلسائى يعبر عن رأيى فانى أعتقد أنك قد فعلت أمرا قبيحا شنيعا لا يرضى به أحد له دين أو مروءة ولا ينبغى للامير أن يضعف أمام الاسبانيين الى أن يصير آلة فى يدهم يطيعهم فى كل ما يأمرون فلا بارك الله فى الامارة التى توصل الى مثل ذلك ، لا تظن أنى أقول هذا محبة له فانى أعاديه كما يعاديه كل تجانى قرأ مقاله فى صحيفة الحرية الذى ترجم له بقوله (كيف خرجت من الطريقة) وقد أقام فى القصر الكبير أربعة أشهر فلم أستطع أن أتعرض له بسوء وهو فى قبضتى وتحت يدى لان الذى يقول قال الله قال رسول الله يغلبنى ، كيف سمحت لك نفسك أن تقبض على رجل يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيت من بيوت الله اننى لن أفعل ذلك ولو افضى بى الامر الى أن أتنازل عن الامارة .

شكر أهل شفشاون قصيدة من بحر الطويل

جزى الله شفشاون بخير ونعمة ... ونجاهم من كل شر ونقمة

وصانهم من كيد كل منافق ... لئيم خؤون هاتك كل حرمة

مطاعين فى الهيجا ميامين فى الندى ... أكارم شجعان مصابيح ظلمة

هم نصروا الدين الحنيف وعظموا ... حديث رسول الله خير البرية

وقالو لداعى الحق لبيك اذ دعا ... وقالوا لداعى الشر أبشر بخيبة

ولم يرهبوا فى الله لومة لائم ... ولا بطش خصم موعد بالاذية

اذا سمعوا قول الرسول تفتحت ... قلوبهم للحق فى كل لحظة

أناس تولى الله شرح صدورهم ... وطهرها من كل رجس وبدعة

ومن شرح الرحمن للحق صدره ... فلن يظفر الشيطان منه بنزغة

ومن ينصر القرآن والسنة التى ... أتت عن رسول الله يحظى بنصرة

ولابد أن يلقى شدائد جمة ... كما لقى المختار فى بطن مكة

وأصحابه الغر الكرام ومن قفا ... سبيلهم المثلى بعزم وقوة

وعقباهم فتح ونصر مؤزر ... ومن شك فى هذا اقتفى أهل ردة

وقد مست البأساء خير صحابه ... وقالوا متى يا رب نحظى بنجدة

اجابهم الله الكريم ألا اصبروا ... تنالوا قريبا جل نصر وعزة

وذى سنتى فى الاصفياء جميعهم ... ومن ذا الذى يسطيع تبديل سنتى

ويا أهل شفشاون سلام عليكم ... ستبلغكم طول الحياة تحيتى

وأذكركم بالخير فى كل مجلس ... وان كنت فى بغداد أو أرض بصرة

وان كان فيهم من يخالف نهجهم ... فكل أناس مبتلون بسفلة

ولو كان فى الدنيا أناس جميعهم ... خيار لما كانوا سوى أهل طيبة

ولاسيما والمصطفى فى ديارهم ... سراج محت أنواره كل دجنة

لعمرى لنعم القوم جر عليهم ... بما لا يؤاتيهم تيوس مضلة

أرا ذل عبادون للمال والهوى ... وما وردوا الا موارد حمأة

وقد عجل الله العزيز عقابهم ... فصب عليهم قومهم كل لعنة

بهم تضرب الامثال فى كل مجلس ... فصاروا كبعران أصبن بحكة

وهم يدعون العلم والعلم منهم ... مناط الثريا من كسير بحفرة

وهم يسترون الجهل والجهل فيهم ... مبين وهل تخفى ذكاء بخرقة

فيا معشر الاسلام طرا تمسكوا ... بهدى رسول الله أفضل عدة
فذاكم سلاح لا يفل غراره ... به تهزم الاعداء فى كل وقعة
ولن تسعدوا والله الا بقفوه ... بصدق واخلاص وعزم وقوة
فلو قام كل الناس مثل قيامهم ... لصرنا كأسلاف لنا خير أمة
ونلنا الذى نبغى من المجد والعلا ... وألبسنا الرحمن أثواب عزة
ورد لنا ذو الفضل غابر فخرنا ... وطهرنا من كل رجس ووصمة
ألا فابذلوا الارواح والمال دونه ... وأحيوه تحيوا فى هناء وغبطة
ووالوا عليه من يعظم أمره ... وان كان منكم ذا بعاد وشقة
وعادوا معاديه جميعا وان أتوا ... وأدلوا بقربى أو بعظم مودة
فان شئتم ذا فالمجادلة اقرؤا ... وفى توبة تحظوا بأعظم حجة
وما نحن الاخادمون لسيد ... حباه اله الناس أفضل رتبة
وما قيمة الارواح ان لم تكن له ... فداء وتفدى بعده خير سنة
وما قيمة الاموال ان لم ننل بها ... رضى راحم للخلق فى يوم كربة
فكن عابدا لله لاتدع غيره ... بوقت رخاء أو بأوقات شدة
وسر فى ركاب المصطفى بتواضع ... وصدق تفز منه بقرب وخدمة
فخادمه بالصدق لاشك مفلح ... وتاركه لاشك هاو بهوة
عليه صلاة الله ثم سلامه ... وأصحابه من بعد آل وعترة
صلاة تدوم الدهر ما قال قائل ... حديث رسول الله ذخرى وحجتى

تمت

كيف كانت عاقبة وزير العدل

لما أحس بالاستقلال ضاقت عليه الارض بما رحبت كما قال المتنبىء :

وضاقت الارض حتى كان هاربهم ... اذا رأى غير شيء ظنه رجلا

فدخل بيته واختبأ فيه الى أن مات وقد قلت فى هجوه قصيدة ولكننى لم أنشرها الا بعد أن تولى الاستعمار وهى هذه :

دعوك وزير العدل بل أنت وازر ... ويبرأ منك العدل اذ أنت فاجر
نعم أنت ذو عدل عن الحق والهدى ... الى الزور والبهتان اذ أنت خاسر

وأنـت للاستعمـار خير مطيـة — بخدمته فـى كل حين تجاهـر
ومالك مـن دين متيـن ولا حيـا — ولا شرف يثنيك عما تباشـر
ترأست فى فتوى القراءة عصبـة — دعاكم الى البهتان والزور ماكـر
على الله والمختار والشيخ مالـك — كذبتم وعقبى الكاذبين فواقـر
فضحكتم فى الرد شر فضيحة — فسوآتكم بانت ولم يبق ساتر
الا يـا وزير العدل أصبحت عـادلا — بربك فى الفتوى التى أنت ساطـر
رددت حديث المصطفى أكـرم الورى — وخالفته عمـدا كأنـك كافـر
فقـد قال لا يجهر عـلى غيره امـرؤ — اذا مـا تـلا القـرآن فالكل ذاكـر
رواه أبـو داوود فـى السنن التـى — عـن المصطفى قدمـا روتها الآكابـر
ومثله فى المعنى روى الحبر مالك — باسناده سمطا زهته الجواهـر
وخالفت مـا قـد قالـه قبل مالـك — وأصحابـه فـى كتبهـم ذاك ظاهـر
وأقبح من هـذا وذلك أنـه — دعـاك الى ذاك العـدو المشاجـر
فبدلت ديـن الحق مـن أجل منصب — تخاف عليه ان جدك عاثـر
ظننت للاستعمار خلـدا مؤبـدا — فـلا فجـر يبدو بعدما جـن كافـر
فما هى الا جولة ثمت انجلى — وأشـرق وضـاح مـن الفجر باهـر
فاسقيت كأس العزل وهى مريـرة — وكم بكؤوس العـزل شفت مرائـر
وأصبحت من خزى ببيتك قابعـا — كأنك فى قبر وما ثم قابـر

تبديل الدراهم فى البنك

لما عزمت على السفر الى العراق كنت قد ادخرت عشرة آلاف بسيطة أتزود بها فى سفرى قافلا الى أهلى فى العراق فعرضت لى مشكلة وهى تبديل الدراهم الاسبانية بالجنيه المصرى فقد كان سعر الجنيه الرسمى حسب النقد الاجنبى الذى بيد الحكومة أربعين بسيطة لكل جنيه أمـا فى السوق السوداء فالجنيه الواحد يساوى مائة وعشرين بسيطة .

فى مكتب كاساس مرة ثانية

كتبت عريضة وأخذتهـا الى كاساس ضمنتها طلب تبديـل عشرة آلاف بسيطة فى البنك بالسعر الرسمى ولم أطلب منه احسانا ولا معروفا لان هذا

حق لكل مستوطن من المغاربة فلما قرأ العريضة عبس وبسر وقال لى نحـن لسنا مغفلين تعاقد الناس على السفر الى الشرق ليكتبوا مقالات فى صحف مصر كلها طعن وتشنيع علينا فقلت له أنا مـا ذهبت الى الشرق بعـد ولا كتبت مقالات طعنا فبكم ولكنه كان يعرف ما يقول وكان صادقا فانه كان يشير الى المقالات التى نشرتها فى صحيفة الاخوان المسلمين ثم قال لى لئن لم تفعل ذلك أنت فعله غيرك ولست بخير منه فانصرفت من عنده وذكرت ذلك للاخويـن الصديقين المخلصين السيد محمد المؤذن رحمه الله والحاج عبد السلام حسيسن أطال الله حياته فقال لى الحاج عبد السلام لماذا لا تذهب الى الخليفة وتلتمس منه أن يأمر الاسبانيين أن يبدلوا لك هذه البساسيط بالسعر الرسمى فقال له السيد محمد المؤذن ان الخليفة لـن يصنع شيئا فدعه يبدلها فـى السوق السوداء ويفوض أمره الى الله فقال الحاج عبد السلام حسيسن أما أنا فأنصح له أن يتوجه الى قصر الخليفة ويلتمس منه ذلك فان استجاب فبها ونعمت وان لم يستجب فـــلا ضير عليه فـــى زيارتـــه فتوجهت الى قـــصر الخليفـــة واستأذنت عليـــه فأذن لى قبـــل جميع الحاضرين الذيـــن جـــاؤوا لزيارتـــه وسجلـوا أسماءهـــم فاستأذنته فـــى السفـر والتمست منه أن يكتب الى الاسبانيين ويأمرهم بتبديل مـا عندى من الدراهم بالسعر الرسمى وقلت له هذا الطلب مقيد بشرط وهو أن لا يتعرض مقامكم الرفيع لتنقص عند الاسبانيين فقال لى بانفعال لعنة الله على الاسبانيين أنا لا أبالى بتنقص مقامى عندهم وانما أريد أن يكون مقامى عاليا عند الله وعند المؤمنين ثم ضغط على زر الجرس فجاء حارس فقال أين أبا سيدى يعنى أخاه الكبير السيد محمد فقال له يا مولاى انه ركب منذ ساعة سيارته وخرج فقال ادع لى الكاتب العام أحمد ابن البشير فدعاه فقال لـه اكتب الى المقيم العام ان الدكتور محمد تقى الديـن الهلالى غاب عن أهله فـى العراق مدة طويلة وهو يريد الرجوع الى أهله وعنده عشرة آلاف بسيطة فأبدلها لـه بالجنيه المصرى حسب السعر الرسمى وكان قد قال لى أول ما سلمت عليه واستأذنته فى السفر لن آذن لك حتى تعدنى أنك ترجع الينا فاننى لا أحب أن تكون بلادى خالية من رجل مثلك فشكرته عـلى هذه المجاملة وانتظرت قليلا فى مكان آخر حتى جاءنى الكتاب فأخذته الى المقيم العام الاسبانى فاستأذنت ودخلت على نائبه فقال لى ليس عندنا نقد أجنبى فى

هذه الساعة فان كنت تقدر أن تنتظر نبدله لك وقلت له أنا لا أنتظر اما أن تبدله لى الآن أو أبدله فـى السوق السوداء فقال لى ارجع الى بعد ثلاثة أيام فرجعت اليه فكتب لى كتابا الى كاساس الحاكم الاسبانى الذى تقدم ذكره .

فى مكتب كاساس مرة ثالثة

فلما أخذت الكتاب من نائب المقيم العام وتوجهت الى كاساس قلت فـى نفسى هـل يصر على جوابه الاول ويعصى أمر رؤسائه أو يخضع لهم ويتناقض فلما وصلت اليه قدمت له الكتاب فقرأه وكتب لى كتابا الى البنك يأمره بتبديل الدراهم ولم ينبس ببنت شفه .

فى السفارة الانجليزية

لما حصلت على سمة الدخول الى لبنان بعثتها الى السفارة المصرية فـى مدريد عاصمة اسبانيا فبعث الى اذنا بالدخول الى مصر واقامة خمسة عشـر يوما ويسمى هذا اذن مرور ثم فكرت فى السفر بطريق البحر لان أجـور السفر أقل فذهبت الى السفارة الانكليزية وطلبت لقاء السفير فأعطيت ورقة طلب منى أن أكتب فيها اسمى والغرض الذى جئت من أجله فلم يأذن لى السفير الانقليزى ولكنى دعيت الى مكتب نائبه وكان يهوديا يونانيا فقال لى وكان الكلام بالانكليزية أنت كنت فى اذاعة برلين وقد أذعت أحاديث كثيرة فى محاربـة بريطانيا وكنت تأخذ من الجرمانيين أجرا على ذلك فقلت أما قولك انى أذعت أحاديث كثيرة فى محاربـة الاستعمار البريطانى على منبر اذاعة برلين العربية فهو حق ولست نادما عليه ولا معتذرا منه لانى كنت أدافع عن وطنى كما كان البريطانيون يدافعون عـن وطنهم فان بريطانيا كانت حليفـة لعدوتنا فرنسا وحليف العدو عدو فان كان دفاع البريطانيين عن وطنهم مما يلامون عليه وجب عليكم أن تلوموا أنفسكم قبل أن تلومونى وان كان الدفاع عن الاوطان مـن الواجبات المحمودة فكيف تلومونني عليه ، وأما قولك انى كنت آخذ أجرا على تلك الاحاديث فهو وهم باطل بل كنت أدفع أجورا على تلك الاحاديث وأرتكب أخطارا فى اذاعتها فقال لى كيف تدفع أجورا عليها ومن كان يأخذ هذه الاجور فقلت كان مدير الاذاعة قد اشترط على أن لا أذيع حديثا الا بعد أن أترجمـه

باللغة الالمانية وأعد أربع نسخ من الترجمة تقدم الى أربعة مكاتب فاذا وافق رؤساء تلك المكاتب على اذاعة ذلك الحديث أعطيت اذنا باذاعته وهذه الترجمة وكتابتها على الآلة تحتاج الى كاتبة جرمانية وهذه الكاتبة لابد لها من أجر وأما ارتكاب الاخطار فاني كنت أركب قطار النفق أعني القطار الذي يجرى تحت الارض مسافة نصف ساعة أحيانا في الليل والثلج ينزل وأتعرض للقنابل التي كنتم تلقونها على برلين حينا بعد حين فقال لي وما غرضك فقلت أريد أن تعطيني سمة المرور على جبل طارق لاركب منه في البحر الى الاسكندرية فقال لي ان حكومة جبل طارق هي التي لها الحق أن تسمح لك بالمرور فاكتب الى الشركة التي تريد السفر في بواخرها وائتنا بالجواب فكتبت الى شركة انقليزية فجاءني الجواب فذهبت به اليه وأطلعته عليه فقال لي عين لنا موعد سفر الباخرة من جبل طارق فكتبت الى الشركة فجاءني الجواب بأنها لا تستطيع أن تعين لي يوما بعينه على سبيل التحديد ولكن اذا وصلت الى جبل طارق يمكن أن تسافر في مدة لا تزيد على الاسبوع فامتنع نائب السفير من اعطائي سمة الدخول الى جبل طارق الا اذا عينت له اليوم الذي أسافر فيه وقد ظهر أنه أراد المنع ولكنه أبى أن يصرح به وأراد أن يعذبني بالمماطلة والتردد عليه فعدلت عن السفر بطريق البحر وكان ذلك خيرا فاني سافرت بالقطار الى مدريد وبالطائرة من مدريد الى القاهرة بعد أن أخرت سفري شهرين ولما كنت أتحدث مع نائب السفير كان جالسا الى جانبه رجل مغربي لا يدل زيه وهيئته على أنه يعرف الانكليزية فلم ألق له بالا وبعد أيام أقام الخليفة وليمة عقد نكاح أخته فدعاني لحضورها فرأيت الشخص المغربي الذي كان جالسا الى جانب نائب السفير الانكليزي فسألت عنه فقيل لي هذا السيد أحمد الرزيني وكنت أعرف أخاه السيد عبد القادر الرزيني وبيتهما من أشرف بيوتات تطوان وأهل هذا البيت من أصحاب الحمايات الانكليزية التي وقعت في زمان ضعف الدولة المغربية فان التجار كانوا يخافون على أنفسهم من ظلم الحكام المغاربة فيحتمون بحمايات أجنبية فتكلم السيد أحمد الرزيني أمام الحاضرين وقال لي جزاك الله خيرا على ذلك التوبيخ الذي وبخت ذلك المجرم اليهودي ما أحد شفى قلبي منه الا أنت ثم أطنب في مدحي عند الحاضرين وقال لهم هذا الاستاذ بقي نصف ساعة يوبخ ذلك الخبيث بلغة انكليزية فصيحة فانتم

تعرفوننى أنا لا أخالط الفقهاء ولـم أحترم فقيها مثل مـا احترمت هذا الفقيه فهكذا يكون الفقهاء والا فلا وقال لى اذا عزمت على السفر ولم يبق على سفرك الا ثلاثة أيام أرجو أن تلقانى فظننت أنه يريد أن يبعث معى شيئا لابن أخيه الذى يدرس فى مصر فلما حان وقت سفرى لقيته بالمسجد الاعظم ومعى كاتبى السيد محمد بن فريحة فقلت له أخبر السيد أحمد الرزينى أننى بعد يومين مسافر ان شاء الله فأخبره فجلس وأدخل يديه كلتيهما تحت جلابته وسمعت خشخشة واستمر على ذلك نحو خمس دقائق ثم أخرج يده وفيها ألف بسيطة فناولنى اياها وقال لى هذه هدية للعلم الشريف أرجو أن تقبلها فلما أخبرت الناس بذلك لم ينقض عجبهم منه وقالوا كلهم ان هذا الرجل ما رأيناه يتبرع بشىء لاى مقصد من مقاصد البر ولو سأله السائلون وألحوا عليه هكذا قالوا والعهدة عليهم ولاشك أنه تأثر كثيرا بالجدال الحاد الذى وقع بينى وبيـن نائب السفير الانكليزى .

حادثة أصيلا

كان من عادتى أن أسافر الى أصيلا يوم الاربعاء بعد الظهر وأمكث فيها الى صباح يوم السبت للقـاء اخوانى الموحدين وتذكرتهم وتجديد العهـد بهـم وكانت مجالسنا فى بيوت الاخوان ولم ألق درسا فى أى مسجد من مساجد تلك المدينة خوفا من الدخول فى مشاكل مع المستعمرين يستعصى حلها لانى أعلم يقينا أن صدور حكام تطوان مملوءة حقدا على وأنهم يتربصون بى الدوائر فاذا أصابنى شر من حاكم صغير كالمراقب المدنى فى أصيلا يتخذونه سببا للتنكيل بى ولما دنا وقت سفرى الى مصر توجهت يوم الاربعاء على عادتى الى مدينة أصيلا وفى يوم الخميس قال أحد اخواننا لماذا لا تلقى درسا فى المسجد الاعظم ليعم النفع فاختلف الاخوان بين مستحسن لذلك ومتخوف منه ثم توكلت على الله ورجحت القاء الدرس فلما شرعت فى القائه امتلأ المسجد الاعظم حتى لم يبق فيه مجلس لاحد ولـم ينقطع سيل القاصدين الى المسجد فامتلأ صحـن المسجد فبلـغ الجواسيس حاكم تلك المدينة الخبر وفى صباح يوم الجمعة عزمت على السفر قافلا الى تطوان فى الصباح مبكـرا فبينما أنا واقف أنتظر السيارة اذا بشرطى يمهس الى قائلا ان الحاكم الاسبانى بعثنى لآخذ منك جواز السفر ليطلع عليه

وكان معى أربعة من الاخوان جاءوا لتوديعى فأنفوا لذلك وقالوا له هذا رجل مغربى والمغاربة لا يحملون جواز السفر فى وطنهم وطردوه فحضرت السيارة وسافرت وبعد ذلك علم اخواننا بواسطة شرطى مؤمن أن الحاكم الاسبانى عزم أن يقبض على حين أجىء فى يوم الاربعاء التالى فانطلق الى الاخوان وأخبرهم فبعثوا الى كتابا يحذروننى من المجىء الى أصيلا ويخبروننى بما عزم عليه الحاكم الاسبانى ولم يصل ذلك الكتاب الا فى صباح يوم الاربعاء وكنت أبعث الكاتب كل يوم الى صندوق البريد فيجيئنى بما يجده فيه الا فى صباح يوم الاربعاء فاننى لم أبعثه وسافرت الى أصيلا وأنا جاهل ما يراد بى لكن الاخوان من شدة حزمهم خافوا أن لا يصلنى الكتاب وأتوجه الى أصيلا كعادتى فبعثوا سيارة تنتظر فى احدى محطات الطريق على مسافة خمسة وعشرين ميلا فلما وصل الاوتوبوس الى تلك المحطة رأونى فأشاروا الى بالنزول وأخذوا أمتعتى ووضعوها فى السيارة الصغيرة وكنا فى شهر رمضان فسارت بنا السيارة فى طريق غير الطريق المعهود حتى وصلنا الى بيت أحد الاخوان فى مدينة أصيلا أما الحاكم الاسبانى فقد بعث الى محطة الاوتوبوس بأصيلا ستة من الشرطة ومعهم عريف وأمرهم أن يقبضوا على ويأتوا بى اليه وكان الشرطى المؤمن أحد الستة فلما جاء الاوتوبوس أحاطوا به وراقبوا المسافرين فلم يجدونى معهم فرجعوا الى الحاكم الاسبانى وأخبروه أننى لم أجىء أما الشرطى المؤمن فانه جاءنى فى البيت الذى كنت أفطر فيه وأخبر الجماعة فضحكوا كثيرا وحمدوا الله على سلامتى ولما فرغنا من العشاء وصلينا العشاء أحضروا السيارة فركبتها الى محطة القطار ومنها سافرت الى القصر الكبير فنجوت من تلك المكيدة بفضل الله ثم بحزم الاخوان وشجاعتهم .

السفر الى مجريط ثم الى القاهرة

مجريط هو اللفظ الذى كان يطلقه المسلمون على مدينة مدريد حين كانوا يحكمون تلك البلاد مئات السنين سافرت بالقطار الى مدينة مجريط ونزلت عند صديقى عبد الرحمن ياسين واشتد على مرض الربو فنقلنى الى المستشفى وزارنى فيه اخوانى من المغاربة وزارنى أيضا داعية القاديانية فناظرته وأنا على فراش المرض وبعثت جواز سفرى الى السفارة المصرية لتنظر فيه هل يحتاج

الى تجديد اذن فقال الموظف المختص انه صالح للسفر الى مصر واقامتى خمسة عشر يوما ثم سافرت بالطائرة الى القاهرة ونزلت فى مطار الماظة قبيل وقت العشاء فعرض المسافرون أجوزتهم عـلى الكاتب المختص فختم عليهـا وردها اليهم فلما رأى جوازى قال لى اجلس فجلست حتى فرغ من أجوزة المسافرين فالتفت الى وقال ان مدة السمة التى أعطيتها وهى خمسة عشر يوما قد انقضت فيجب أن ترد الى مجريط فقلت له اننى بعثت جواز السفر أمس فقط الى السفارة المصرية فى مجريط فقال قائلها انه صالح والمدة ينبغى أن تعتبر من يـــوم وصولى لا من يوم تاريخ السمة لانى بعثته من تطوان الى مجريط ثـم بعث الى وهذا وحده يستغرق عشرة أيام فقال لى لا تطل الحديث فانما أحكم برأيـى لا برأيك فقلت له أريد أن أصلى المغرب والعشاء فامر شرطيا أن يرافقنى ويدلنى على مكان الوضوءوالصلاة وتوضأة وصليت المغرب والعشاء ودعوت الله فـى سجودى أن ينقذنى من هذه المحنة الجديدة لاننى اذا رددت الى مجريط لا أجد ما أسافر به من الدراهم ولما فرغت من صلاتى رجعت الى الكاتب فقال لى عندك دراهم قلت عندى حوالة بـ 147 جنيها قال أرنيها فأريته اياها فأخذ يفتح الهاتف على رؤسائه ليستشيرهم فى أمرى فلم يجـد أحدا منهم لان ذلك اليوم كان التاسع والعشرين من رمضان وقد انصرف كبار الموظفين الى اجازة العيد ثم فتح التلفون على موظف كبير حسب ما فهمت من محادثته معه فقال له يا سيدى أرجو المعذرة اذا أزعجتكم لانى لم أجد أحدا من الموظفين فى مكتبه عندى راكب مغربى معه جواز سفر وفيه تأشيرة مرور منتهية ويدعى أنه عرضها على الكاتب المختص أمس فى السفارة المصرية بمدريد فقيل له انها كافية وأنا أعتقد أنه من الصالحين فقال له افتح الهاتف على العروسى فان لم تجده فاعطه أنت فيزة مرور فلما سمعته يقول انه يعتقد أننى من الصالحين استبشرت وأملت خيرا وحسن ظنى به وزاد حسن ظنى حين رأيت شرطيا جاءه بالسحور فعلمت أنه يصوم رمضان والصائمون حتى فى ذلك الزمان قليلون فتح الهاتف على العروسى فلم يجده فأخـذ يكتب لى سمة الدخول وقال لى أريـد منك عشرة قروش فقلت مـا عندى نقود مصرية فدعا شخصا موظفا يبيع الطوابع فقال أعطنى عشرة قروش طوابع مجانا فأبى فقال له هل تريد أن نرد رجلا من هنا الى مدريد لاجل عشرة قروش فقام هو وغاب قليلا وجاء بالطوابع فلا أدرى أدفع ثمنها من عنده أم

وجدها بطريق آخر ثم ناولني الجواز وقال لى أطلب لك سيارة تدفع أجرتها لان سيارة المطار ذهبت من زمان فقلت جزاك الله خيرا فركبت السيارة فلما وصلت الى الفندق قلت لصاحب السيارة ما عندى نقود مصرية سألتمس من صاحب الفندق أن يقرضني ما أعطيك اياه فقال لى تنازلت عن الاجرة فانفرجت الازمة ببركة المحافظة على الصلاة فى وقتها .

الاقامة بالقاهرة

أقمت بالقاهرة اثنى عشر يوما لقيت فى أثنائها كثيرا من الاصدقاء منهم أخونا الداعية السلفى الشيخ حامد الفقيه رحمة الله عليه فأكرمني كعادته ولقيت المجاهد العظيم الامير محمد بن عبد الكريم الخطابى وقد تقدم ذكر ذلك ومن أجل من لقيته فى تلك الايام المجاهد العظيم سماحة الاستاذ السيد الحاج أمين الحسيني وكان آخر عهدى به فى ربيع سنة 1942 حين بعثني الى المغرب لغرض سياسى فيه مصلحة للمسلمين على أن أرجع اليه فمنعت من الرجوع كما تقدم وكانت المراسلة مستمرة بيني وبينه الى أن انهزمت ألمانيا وفر الى سويسرا ثم الى مصر وأنجاه الله من كيد أعدائه كما أنجاه من قبل حين فر من بغداد الى طهران ومن طهران الى اليابان وكان الانكليز ومطاياهم فى العراق قد جعلوا لكل من يأتيهم به حيا أو ميتا عشرة آلاف دينار فنجا بأعجوبة بمساعدة السفارة اليابانية حتى وصل الى برلين ومع أنى كنت فى تطوان أحصل على القدر الذى أعيش به من المال من الاسباب التى ذكرتها من قبل فانه كان يبعث لى النقود الكثيرة مرة بعد مرة فلما زرته فرح بى فرحا عظيما وأقام مأدبة دعا اليها خمسين من رجال العلم والسياسة ولما أردت أن أودعه دفع الى غلافا وقال اقرأه فى منزلك فلما وصلت الى الفندق وجدت فيه مائة جنيه وكان قد عرض على ونحن فى برلين أن يجعل لى كاتبا على نفقته فشكرته وقلت له ان عندى كاتبا وأنا فى سعة من المال فقد كان مجموع الرواتب التى كنت آخذها فى برلين بكدى وعملى ألفا وأربعمائة مارك (1400) وذلك يعادل ألفا وسبعمائة وخمسين ريالا فى ذلك الزمان أى قبل ثلاثين سنة والحاج أمين الحسيني رجل عظيم مهما بالغ أعداؤه فى القدح وخلق العيوب له فلن يستطيعوا أن

ينقصوا شيئا من عظمته وحسبك دليلا على ذلك أن هتلر كان يجله وقد التجأ الى ألمانيا رجل عربى عظيم ومجاهد كبير وعالم متضلع ألا وهو رشيد عالى الكيلانى وأجله الالمانيون وأكرموا مثواه ولكن منزلة الحاج أمين عندهم لم يبلغها أحد .

الصدق منجاة والكذب مهلكة

وقعت لى فى أسفارى الكثيرة حوادث ووقعت فى أزمات لولا خوف الاطالة وكراهية الخروج عن الموضوع لذكرت بعضها وفيه العجب العجاب لكنى أقتصر على هذه الحادثة وليست من أغربها . لم يسمح لى القانون المصرى أن اخرج من مصر أكثر من عشرين جنيها فتركت ما عندى من الدراهم عند الدكتور الحبيب ثامر والسيد حسين التريكى وهما مجاهدان تونسيان وقع بينى وبينهما قصة فى التعاون على محاربة الاستعمار ليس هذا محل ذكرها على أن يبعثا لى تلك الدراهم حين تسنح لهما الفرصة لكنى عندما توجهت الى مطار الماظة أخذت معى خمسين جنيها فناولنى المفتش صحيفة وقال لى اكتب هنا القدر الذى عندك من النقود فكتبت خمسين جنيها فقال لى ان القانون لا يسمح لك الا بعشرين فقلت له قبل اثنى عشر يوما دخلت مصر ومعى 147 جنيها ولم أنفق فى هذه المدة الا قليلا لانى كنت ضيفا عند أصدقائى وهم كثير فهل يعقل انى أنفقت فى هذه المدة القصيرة 127 جنيها ولم يبق لى الا عشرون فنظر الى جواز السفر فوجد مدة الاقامة اثنى عشر يوما كما ذكرت له فقال لى تستطيع أن تثبت أنك دخلت مصر بالقدر المذكور من المال قلت نعم هذه شهادة البنك فى تطوان فلما قرأها سمح لى باخراج خمسين جنيها فقلت له اننى ألتزم الصدق وذلك يوقعنى فى مشاكل فقال لى ان الصدق لا يوقع فى المشاكل واذا وقعت لصاحبه مشاكل فعقباها خير وانما الذى أتعبنا هو الكذب ووقع لى مثل ذلك فى دمشق فانحلت المشكلة بأن كتب المفتش نفسه على الصحيفة أن عندى عشرين جنيها أبيت أن أكذب فكذب هو .

الدعوة الى الله فى العراق

وصلت الى العراق عائدا من سفرى الطويل فى صيف سنة 1947 م من تاريخ النصارى ولما امتنع صالح جبر من الاذن لى بأخذ نسخة من شهادة التجنس بالجنسية العراقية وبقيت بلا عمل اخترت أن أسكن بالموصل لان لى اخوانا صادقين فى تلك المدينة فسكنت فيها سبعة أشهر وبدأت الدعوة الى الله فحصل اقبال عظيم من الناس وفرح بذلك اخواننا السلفيون وكانت السلفية موجودة قبل ذلك فى الموصل وكان امامها الشيخ عبد الله النعمة رحمة الله عليه وكذلك الشيخ صديق الملاح رحمه الله وكان الشيخ عبد الله النعمة اماما وخطيبا فى مسجد وكان يلقى دروس القرآن فى بيته مدة طويلة من الزمان يختمه ثم يبدأه من جديد ويحضره كثير من الناس الى أن توفى رحمه الله أما الشيخ صديق الملاح فكانت مدرسته هى المقهى فى الموصل والمقاهى فى الموصل تختلف عنها فى سائر البلدان ففى كل مقهى من مقاهى المسلمين مسجد وله مؤذن وامام لصلاة المغرب والعشاء اذا حضر وقت المغرب أذن المؤذن وأم الناس المسجد كلهم لا يبقى الا يهودى أو نصرانى وأهل هذا البلد لهم فضائل ومزايا من أخصها الشجاعة والكرم ، وكان فيها أعداء للسنة ولكن لم يستطيعوا أن يمسونا بسوء ، وبعد الوثبة التى تقدم ذكرها انتقلت الى بغداد وبدأت الدعوة فيها وكانت السلفية قد ماتت فى بغداد مع أنها بلد الامام أحمد بن حنبل والامام أبى حنيفة رحمهما الله وكذلك الامام محمد بن جرير الطبرى وقد كانت من قواعد الدعوة السلفية الى زمان السيد محمد شكرى الالوسى رحمة الله عليه أما أنا فلم أجد من السلفيين الا الشيخ عبد الكريم الصاعقة وكان امام مسجد صغير وقد حاربه المتعصبون من المقلدين فلم يكن يصلى فى مسجده الا بضعة أشخاص ولكنه كانت له خزانة عظيمة من كتب السنة كان متمسكا بالعقيدة السلفية راسخ القدم لا يتزحزح عنها وكان ابتداء دعوتى فى مسجد بمحلة الشيوخ بالاعظمية وهو مسجد له وقف خاص كان المتولى عليه الحاج محسوبا رحمه الله وقد جرت العادة بالقاء الوعظ فى كل مسجد كل يوم من أيام رمضان على الاخص

فلما أقبل رمضان ذهب الحاج محسوب ببحث عن عالم من العلماء ليستأجره للوعظ فى مسجده مدة شهر رمضان فاتفق مع أحدهم ولا أسميه ابقاء عليه ثم وجد ذلك الشيخ أجرا أعلى مما اتفق عليه مع الحاج محسوب فأخبره بفسخ الاجارة وذهب الى عالم آخر لا أسميه أيضا ابقاء عليه فاتفق معه أن يعطيه عشرة دنانير فلما أقبل رمضان ولم يبق الا يوم واحد من شعبان جاءه ذلك العالم وأخبره بفسخ الاجارة لانه وجد من يعطيه أكثر من ذلك فأصاب الحاج محسوبا من الحزن والغم والغيظ على جميع المعممين وهكذا يسمى علماء الدين عندهم لانهم يلتزمون لبس العمامة والجبة وذلك زى العلماء عندهم فكل من لبس عمامة وجبة يحسبه الناس عالما وان كان أجهل من حمار أهله فما شعرت الا والحاج محسوب يطرق الباب فرحبت به وجلسنا نتحدث فاشتكى الى مما أصابه من المعممين وذمهم ذما شديدا وقال لى يا ليت الواحد منهم حين استولى عليه الطمع وأراد الزيادة جاءنى فاستشارنى قبل أن ينقض العقد ويتفق مع غيرى كان ينبغى أن يقول لى قد وجدت من يعطينى أجرا أكثر مما اتفقت عليه معك فاما أن أزيده واما أن أفسخ العقد معه قال واليوم جاءنى أحد الاصدقاء وقال لى عليك بالدكتور محمد تقى الدين الهلالى يعظ فى مسجدك ثلاث مرات فى الاسبوع فانه يعظ لله ولايطلب أجرا قال فجئتك وأنا مستعد أن أقدم لك ماتطلب فقلت له يا حاج محسوب أنا لا آخذ شيئا على الوعظ لانه فرض فرضه الله على لانه من الجهاد والجهاد واجب بالنفس والمال فوعظت فى مسجده كل يوم وأقبل الناس شبابا وشيوخا فاغتبط الحاج محسوب واطمأنت نفسه وبعد رمضان استمرت على دروسى فى ذلك المسجد وكان يحضرها الشباب من تلامذة المدارس والشيوخ من أهل تلك المحلة فغاظ ذلك أعداء السنة وزعموا أننى أردت أن أهدم مذهب أبى حنيفة فقلت مرارا فى دروسى انكم تكذبون على أبى حنيفة رحمه الله وأنا أتبعه حقا وصدقا فان أبا حنيفة كان على عقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين كان يصف الله تعالى بما وصف به نفسه فى كتابه أو وصفه به رسوله صلى الله علية وسلم ويثبت العلو لله تعالى ويكفر من يتأول الاستواء بالاستيلاء كما فى الفقه الاكبر وفى الطحاوية وشرحها وأنتم تعتقدون عقائد المتأخرين من الاشعرية نفاة الصفات وأبو حنيفة يكفر النفاة ثم تتعصبون فى الزام الناس بفروع الحنفية وهذا خلاف ما كان عليه أبو حنيفة رحمه الله فقد صح أنه قال لا يجوز لاحد أن يقول بقولنا حتى يعلم من أين

قلناه أى حتى يعرف دليله وأنتم تقولون على الله بلا علم بل بالتقليد الاعمى ولعمر الله ليس هـذا مذهب أبى حنيفـة ومما يدل على مخالفتكم لمذهبه أن صاحبيه محمدا وأبـا يوسف خالفاه فى ثلث المذهب وقـال بعضهم فى ثلثى المذهب ولو كان أبو حنيفة يعلم أصحابه أن يكونوا مقلدين لما خالفه أقرب الناس اليه وأفضل تلامذته الذين نشروا مذهبه وهذه القبة التى بنيتم على قبره هل أباح لكم أن تبنوها وهذا المسجد الذى بنيتم الى جانبها هل أباح لكم أبـو حنيفة أن تبنوا المساجد على القبور وتصلوا فيها وهذه البدع التى ترتكبونها هل رويتموها عن أبى حنيفة فضاق المتعصبون ذرعا بدروسى فأوعزوا الى أربعة من تلامذتهم مـن المعممين الشباب أن يحضروا درسى ويجادلونى فاذا عارضهـم تلامذتى يقتتلون معهم حتى يجىء رجال الامن الى المسجد ويقبضوا على المقتتلين فيتوصلوا بذلك الى وقف دروسى بادعاء أنها تثير الفتنة ولكن خاب سعيهم لان تلامذتى تفطنوا لذلك فالتزموا الصمت والهدوء فلما رآهم الشيوخ خرجوا عن حـدود السوآل بأدب الى اساءة الادب غضبوا عليهم وأسكتوهـم وأرادوا أن يضربوهم وفى مقدمتهم الحاج محسوب رحمه الله فخافوا وذلوا وطلبوا منـى العفو فبطلت هذه المكيدة وكنت أسكن بقرب المسجد المنسوب الى أبى حنيفة ويمسى عندهم جامع الامام الاعظم وهذا اللفظ أطلقه الاتراك فى زمان حكمهم على أبـى حنيفة رحمه الله ولا شك فى امامته ولا فى عظمته ولكن هـذا اللفظ مبتدع يشبه ملـك الملوك وشاهن شاه وقاضى القضاة وقـد جاء فى الحديث الصحيح أخنع اسم عند الله رجل تسمى بملك الاملاك وكره الائمة كل ما كان قريبا من هذا المعنى فكنت لا أصلى فى ذلك المسجد لا جماعة ولا جمعة أمـا الجماعة فكنت أصليها فـى مسجد الحاج محسوب وأمـا الجمعة فكنت أركب السيارة من الاعظيمة الى بغداد وأصلى فى أحد المساجد الخالية من القبـور فاشتد انتقادهم لهـذه الخطة ولاسيما حين كانـوا يرون تلامذتى من الشباب يقتدون بى ولا يصلون فى المسجد المبنى على القبر بقيت على ذلك مدة سنتين

جامع الدهان

كان جماعة من أهل الخير قد اشتركوا فى بناء مسجد يبعد عن جامـع أبى حنيفة بنحو ميل واحد الى ناحية بغداد وعجزوا عن اتمامه فجاء الحاج عبد الحميد الدهان وهو من أهل الثراء والاحسان ومن وجهاء التجار فى بغداد فأكمل

بناء ذلك المسجد وفتحه للصلاة وفى يوم من الايام جاءنى الحاج عبد الحميد وسلم على وقال لى انى بنيت هذا المسجد بين بغداد والاعظمية وأهل الاعظمية يصلون فى مسجد الامام الاعظم وأهل البيوت القريبة من مسجدى أكثرهم شيعة وأنا خائف أن لايجتمع لى العدد الذى تصح به صلاة الجمعة وقد استنصحت الحاج طه الفياض صاحب صحيفة السجل فقال لى ان أردت أن يمتلىء مسجدك بالمصلين فعليك بالدكتور محمد تقى الدين الهلالى فالتمس منه أن يكون اماما وخطيبا لصلاة الجمعة فأرجو أن تقبل منى هذا العرض فقلت له أنا لا ألبس زى العلماء كما ترى فقال لى أنا أقبلك على أى حال كنت فقلت له خيرا وشرعت أصلى الجمعة فى جامع الدهان فما مرت ثلاث جمعات الا وقد ضاق المسجد عن المصلين وصار الناس يقصدونه من جميع أرجاء بغداد وحتى أهل الاعظمية كان كثير منهم يمرون على مسجد أبى حنيفة ويتركونه ويؤمون جامع الدهان ومن الذين كانوا يواضبون على الصلاة فيه السفير المغربى فى ذلك الوقت الحاج الفاطمى بن سليمان وبلغ الاقبال على جامع الدهان الى أن من لم يتقدم قبل الزوال بساعة أو أكثر لا يجد مكانا .

تطهير الجامع من البدع

كان فى هذا الجامع كغيره من المساجد بدع ، الاولى : قراءة القرآن بالتناوب فى مكان مرتفع مخصص للقارئين وكانوا يشوشون على المصلين بقراءتهم ، الثانية : صلاة ركعتين بعد الاذان الاول . يقوم المؤذن فينادى بأعلى صوته متغنيا فيقول ماكان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شىء عليما) ثم يقول صلاة سنة الجمعة يرحمكم الله فيقوم الناس كلهم ويصلون ركعتين ومن لم يصلهما يعد تاركا للسنة وكان المؤذن يرفع صوته بالتسميع خلف الامام مع وجود مكبرة الصوت وعدم الحاجة الى التسميع كما يفعل اليوم بالمسجد النبوى نسأل الله أن يطهره من المحدثات حتى يعاد الى الحال التى كان عليها فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، الثالثة : الاذان الاول وهو محدث لم يكن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ولا على عهد الخليفتين بعده وهم أولى بالاتباع ولما كان زمان عثمان وكثر الناس فى المدينة أمر عثمان مناديا ينبه أهل السوق بقرب

صلاة الجمعة ليستعدوا لذلك ويؤموا المسجد ولم يكن ذلك أذانا حقيقيا ولا
كان فى المسجد فلما كان زمان عبد الملك بن مروان جعله أذانا لازما وجعله
فى جوف المسجد أنظر كتاب المدخل لابن الحاج وفتح البارى ، وكيف ما كان
الامر فسنة النبى صلى الله عليه وسلم وصاحبيه اللذين قال فيهما اقتدوا
باللذين من بعدى أولى بالاتباع ، الرابعة كان المؤذن بعد السلام يرفع صوته
بأذكار مخصوصة . استعنت بالله وحده أنا وتلامذتى وأخذنا نزيل تلك
البدع واحدة بعد واحدة حتى قضينا عليها ولله الحمد وكان الحاج عبد الحميد
لا يتأخر عن مساعدتنا فى ذلك فبدأنا بازالة القراءة ثم ازالة ما كان يترنم به
المؤذن بعد انتهاء الصلاة وبقى لنا الاذان الاول والركعتان اللتان تفعلان بعده
فألفت كتابا سميته الانوار المتبعة فى سنة الجمعة وأقمت فيه البرهان على أن
صلاة الجمعة ليست لها سنة قبلية وانما لها سنة بعدية ونقلت كلاما لابى شامة
فى كتاب البدع له وكلام غيره فلما عرف الناس ذلك بقراءة ذلك الكتاب وبخطب الجمعة المتوالية
وكانت كلها من صميم السنة خطبا تعليمية ارشادية اتفقت مع تلامذتى ومع الحاج عبد
الحميد الدهان على ازالة الاذان الاول وبازالته تزول الركعتان فأنذرت الحاضرين
فى المسجد فى خطبة الجمعة الاخيرة وقلت لهم لقد علمتم فيما مضى من خطب
يوم الجمعة أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن له الا مؤذن واحد يؤذن أذانا
واحدا عند جلوسه على المنبر حتى اذا فرغ المؤذن من أذانه قام رسول الله
صلى الله عليه وسلم خطيبا ولم يقم أحد لصلاة ركعتين الا من
تأخر حتى شرع الخطيب فى الخطبة فهذا يصلى ركعتين خفيفتين تحية المسجد
كما بينته لكم مرارا وتكرارا بالاحاديث الصحيحة وقد عزمنا على ترك الاذان
الاول وبطبيعة الحال تترك الركعتان المترتبتان عليه فمن شرح الله صدره
لقبول الحق فأهلا وسهلا به وهنيئا له ومن أبى فالمساجد كثيرة فلما كانت
الجمعة التالية دخلت المسجد وذهبت رأسا فصعدت المنبر وجلست عليه فقام
أحد تلامذتى وأذن ثم قمت أنا وخطبت فجعلناهم أمام الامر الواقع وانقطع بذلك
ما بقى من المخالفات ولله الحمد والحاج عبد الحميد الدهان كان موافقا لى على
ازالة تلك البدع حرصا منه على عمارة المسجد وازدهاره ولم يكن يدرك أهمية
التمسك بالسنة وترك المحدثات لانه تاجر لا يعرف الادلة الشرعية ويجيئه
المخالفون للسنة فيزينون له البدع فيبقى متحيرا ويحل المشكلة بارضائنا فى

المسجد وارضاء خصومنا خارج المسجد بأن يقيم لهم مآدب ويعطيهم الحرية فى ارتكاب بدعهم من عمل الموالد وغيرها ولذلك لم يثبت على العهد فبعدما برحت أنا بغـداد طمع فيه المبتدعـون فأقنعوه برد تلك البدع بعدما طهر منها المسجد لمدة نحو عشر سنين ولله الامر من قبل ومن بعد .

هجوم مدير الاوقاف علينا

لما رأى الفقهاء المتعصبون وأصحاب الطرائق المبتدعون نجاح هذا المسجد وازدهاره وقيام دولة التوحيد واتباع السنة شرقوا بذلك ودبروا مكيدة عظيمة فذهبوا الى مدير الاوقاف والاوقاف فى العراق لا يكون لها وزير لانها كلها من وقف أهل السنة ولو كانت لها وزارة مستقلة لامكن أن يكون الوزير شيعيا وذلك يخالف شرط الواقف فكانت مديرية الاوقاف تابعـة لمجلس الـوزراء فذهب المبتدعون الى مدير الوقف ومعهم مفتى بغداد فى ذلك الوقت وقالوا له لماذا لا تستعمل حقك فى تعيين الامام والخطيب فى جامع الدهان وكيف تترك الهلالى ينشر المذهب الوهابى علانية فى ذلك المسجد فاستصدر مدير الاوقاف أمرا ملكيا بتعيين شخص اماما وخطيبا فى جامع الدهان فنال مراده فلما صدر الامر الملكى كتب صحيفة الى يقول فيها بعد السلام انه صدرت ارادة ملكية لفلان الفلانى أن يكون اماما وخطيبا بجامع الدهان وقد أخبرنا الامام أنك لا تمكنه من أداء واجبه فنرجو أن تتخلى عن الامامة فى ذلك المسجد ليتمكن الامام من أداء واجبه وبعث الصحيفة مكشوفة بلا غلاف الى الكلية فسلمها الى البواب ولم تزل تنتقل من يد الى أخرى والناس يقرؤونها حتى وصلت الى يدى فلما فرغت من دروسى ورجعت الى بيتى كلمنى الحاج عبد الحميد الدهان بالهاتف وقال لى ان مدير الاوقاف دعانى الى مكتبـه فلما حضرت عنده تكلم بكلام قبيح لا أريد أن أذكره لك فقلت له وأنا أيضا كتب الى يأمرنى بالتخلى عن عملى فـى المسجد فقال لى استمر على عملك واترك هذا الامر لى فقلت له وعلى هذا أنا عازم أيضـــا .

وقوف فضيلة الاستاذ منير القاضى الى جانب الحق

ذهب الحاج عبد الحميد الدهان الى مدير مجلس الوزراء وأخبره بما قال وفعل مدير الاوقاف فأخـذ التليفون وتكلم مع مدير الاوقاف ووبخـه توبيخا شديدا فاعتذر له بأن الدكتور الهلالى يبث المذهب الوهابى وله معارضون من

أهل السنة ونخشى أن تحدث فتنة في المسجد فقال له فضيلة الاستاذ منير القاضي أأنت مدير أوقاف أو مدير الامن العام وزبره زبرا شديدا فحبط عمله وبطلت هذه المكيدة والاستاذ منير القاضي يعرفني حق المعرفة فاننا كنا نجتمع في الاحتفالات التي تقيمها وزارة المعارف فما كان أحد يقوم لصلاة المغرب الا أنا وهو فكان يقدمني فأصلي به اماما وفي رمضان لم يكن أحد من الحاضرين يصوم الا أنا وهو فكنا نفطر جميعا وفيما عدا ذلك لم تكن بيني وبينه علاقة .

مكيدة اخرى

ذهب أعداؤنا الى القصر الملكي وبلغوا خبرا كاذبا على سبيل الوشاية قالوا ان الهلالي منذ زمان عين اماما وخطيبا في جامع الدهان بدون ارادة ملكية وطرد الامام الشرعي وأعانه على ذلك صاحب المسجد وهو يبث المذهب الوهابي ولا يدعو للملك في خطبة الجمعة لانه عدو للبيت الهاشمي فجاءني أحد اخواننا وأخبرني بذلك فقلت له ان الله الذي خيبهم في الاولى سيخيبهم في الثانية فبعث الوصي من حضر صلاة الجمعة فوجد الخبر غير صحيح وخاب سعيهم وكنت دائما أختم الخطبة الثانية بالالفاظ التالية على عادة المقتصدين غير المتزلفين من الخطباء في بغداد فأقول اللهم وفق وسدد ملك العراق فيصلا الثاني وولي عهده عبد الاله وسائر ملوك المسلمين وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين فان قلت هذه بدعة كنت ترتكبها مع زعمك أنك تحارب البدع أقول انني اجتهدت فرأيت أنني لو لم أفعل ذلك لم أستطع أن أكون اماما في صلاة الجمعة ولا مدرسا وواعظا في ذلك المسجد وان ما يحصل من الخير بنشر التوحيد واتباع السنة يربو على تلك البدعة أضعافا مضاعفة على أن الدعاء لشخص معين في خطبة الجمعة لا بأس به ولكن المداومة عليه فيها ما فيها .

أخذ الاجرة على صلاة الجمعة

في الجمعة الثانية التي صليتها اماما وخطيبا في جامع الدهان دعاني الحاج عبد الحميد الدهان الى الطعام بعد صلاة الجمعة وقال لي أنا مسرور جدا بما وقع من الاقبال على الصلاة في مسجدي بسبب خطبتك ونريد أن نتفق الآن على الراتب فقلت له ان أردت أن يطرد نجاح المسجد فلا تفكر في الراتب فأنا لا

آخذ أجرا على الصلاة أبدا فألح فثبت على الامتناع عن قبول أى شىء فقال نجعله هدية فقلت ان الله لا يخفى عليه شىء فى الارض ولا فى السماء فبعث الى بعد ذلك جماعة يشفعون عندى فى قبول الراتب فرفضت ولم آخذ شيئا طول تلك المدة الا أننى اقترضت منه دنانير مرتين فرددتها له .

ملاحقة الاستعمار الانجليزي لمؤلف هذا الكتاب

كان السفير الانكليزى فى تطوان قد تعاون مع الاسبانيين فى منعى من الرجوع الى برلين وكان قد احتج على الاسبانيين بسبب المقالات التى كنت أنشرها فى صحيفة الحرية لسان حزب الاصلاح الوطنى وتقدم ذكر ما جرى بينى وبين نائبه فى تطوان وكنت أظن أن محاربته لى لا تعدو حدود تطوان واذا به يلاحقنى الى بغداد فقد كتب الى السفارة الانكليزية فى بغداد وأخبرها بحالى وحذرها منى فأوغرت الى مطياها من العراقيين أن يحاربونى ومما دل على ذلك أن السفارة التونسية فى بغداد أقامت احتفالا فدعتنى اليه فالتقيت هناك بصديقى الدكتور عبد الكريم كنونه وهو رفيق لى فى الدراسة فى جامعة بون بألمانيا فأقبل عليه السفير الانكليزى فى بغداد فقال له أعرفك بالدكتور محمد تقى الدين الهلالى وأخذ يثنى على فلم يهش ولم يبش ولم يرحب بل قال له بالانكليزية ما معناه أنا أعرفه جدا مع أنى ما رأيته قبل ذلك اليوم ولما ذهبت الى التحقيقات الجنائية وهو اسم دائرة الشرطة السرية وطلبت اعطائى جواز سفر منعت من ذلك بدون بيان السبب واستمررت على ذلك ثلاث سنين فى كل صيف أتردد على تلك الدائرة مرارا وتكرارا ثم أرجع بخفى حنين حتى رق قلب الموظف المختص ورحمنى وقال لى أيها الاستاذ ان منع اعطائك جواز السفر ليس بأيدينا بل هو فى يد من فوقنا فلا تتعب نفسك بكثرة التردد ، واتفق أننى أطلعت أحد الاخوان على هذه القضية فقال لى حل هذه المشكلة يسير بالنسبة اليك ولكنك لا تعرف طريق حلها فقلت أفدنى يرحمك الله فقال ان مدير الشرطة العام هو ابن عم صديقك الحاج محسوب والحاج محسوب هو كبير هذه العشيرة ومدير الشرطة العام لا يعصى له أمرا فعليك به فذهبت الى الحاج محسوب وأخبرته فقال لى غدا صباحا نلتقى عند باب جامع الامام الاعظم فالتقينا وركبنا سيارة فلما وصلنا الى باب مديرية الشرطة العامة اذا بالمدير خارج فكلمه

الحاج محسوب وقال له اليك جئنا فقال يا حاجى أمهلنى ساعة فان عندى أمــرا مهما لا يمكن تأخيره وبعد ساعة أكون فى المكتب وبعد مضى الساعة دخل عليه الحاج محسوب فلبث عنده نحو نصف ساعة وخرج بكتاب معنون الى مديـر التحقيقات الجنائية ومختوم على غلافه ومكتوب عليه (سرى) فأخبرنى الحاج محسوب أنه عاتبه فى منعى من جواز السفر ثلاث سنين فقال له ان صاحبـك هذا اشتراكى وفى ذلك الزمان كانت بدعة الاشتراكية لا وجود لها فى البلاد العربية ولا يفكر فيها أحد وانما تكلم بشىء لا يعرفه قال الحاج محسوب فقلت له أقسم لك بكل عزيز على أن هذا كذب وافتراء فان هذا الرجل يعظ فى مسجدى منذ ثلاث سنين ومـا عنده الا قال اللــه وقال رسولــه وان شئت أتيتـــك بأربعين من سكان الاعظمية يشهدون بمـا ذكرت قال فكتب لى هذا الكتاب الى مدير التحقيقات الجنائية يأمـره أن يعطيك جواز السفر فـى الحال وأراد أن يبعثه مع شرطى قال فقلت له والله ما يأخذه أحد غيرى فقال لى يا حاجى هذا سرى فقلت له ليكن سريـا أو علانيا لا يأخذه غيرى فسلمنى الكتاب وقال اذهب بـه الى مدير التحقيقات فذهبت اليه واستأذنت عليه شرطيا كان واقفا ببابه فقال له قل له ان قضيته لم تنته بعد فقلت للشرطى قل له جئت بكتاب من مدير الشرطة العام ولا أسلمه الا يدا بيد فأذن لى فسلمته الكتاب فلما رآهمختوما بختم سيده ورأى عليه كلمة سرى قام وقرأه قائما وأبدى لى بشاشة وترحيبا لـم أره من قبل ذلك ودعا بشرطى وقال له رافق الدكتور الى المكاتب المختصة ومرهم أن يهيئوا أوراقه فى الحين فانحلت هذه المشكلة .

الانقلاب

فى أوائل سنة (1958) قام عبد السلام عارف وعبد الكريم قاسم بالانقلاب المشهور والذى قتل فيه الملك فيصل الثانى والوصى عبد الاله وسائر أهــل بيتهما الا امرأة واحدة وقتل فيه نورى السعيد وظن أهل العراق كلهم أن هذا الانقلاب سيأتيهم بخير عميم ويقضى على النفوذ الاستعمارى وحينئذ تفتح لهم أبواب البركات من السماء والارض الا أنه بمضى الايام ظهر لهم خطأ ظنهم لان العهد الملكى كان عهد استقرارورخاء وكان خيره أكثرمن شره بالنسبة الىالخاصةوالعامة والرئيس عبد السلام عارف هو من أخص اخواننا السلفيين وهو وفرقته قاموا

بالانقلاب ولم يشاركهم عبد الكريم قاسم الا بموافقته وقد أخطأ رحمه الله في ذلك الانقلاب وكان أول من صلى بناره فقد حكم عليه بالقتل وسجن سنين وعذب ثم أسعده الحظ حتى تمكن من قتل عدوه فى أواخر الامر وشريكه فى أوله واستولى على الحكم فكتب الى بخط يده وأنا فى المغرب يقول نحن تلامذتك ونحن سائرون على الخطة التى اقتبسناها من دروسك وأبواب العراق مفتحة فى وجهك فأقبل الينا فشكرته على ذلك ولم أقبل دعوته ، ومأأدرى كيف شعر بذلك أخونا السلفى الاستاذ محمود مهدى الاسطنبولى فكتب الى يقول علمت أن عبد السلام عارف من تلامذتك وهذ فرصة لا تضاع فهلم نسعى فى عمل شيء ينفع الاسلام والمسلمين فاعتذرت لـه ولم ينشرح صدرى لذلك لانى لم أتوقع نجاحا ولما استولى عبد الكريم قاسم وأبعد عبد السلام عارف أولا ثم سجنه ثانيا أطلق العنان للشيوعيين يقتلون من شاءوا ويسجنون من شاءوا ويسحلون من شاءوا والسحل هو وضع حبل فى عنق الرجل وجره به على وجهه الى أن يموت وعاث الشيوعيون فى بلاد العراق فسادا فعم الخوف والفزع ولم يبق أحد مطمئنا على نفسه .

ووقعت حوادث فضيعة معلومة لا نطيل بذكرها ولكن على سبيل المثال أذكر حادثا أو حادثين أخبرنى أخونا السلفى الصالح الدكتور وجيه زين العابدين أنه كان نائما فى فراشه وبعد منتصف الليل بساعة ونصف سمع طرقا شديدا على الباب قال ففتحت الباب واذا ثلاثة من الشيوعيين دخلوا على بدون استئذان وفتشوا البيت ثم قبضوا على وتركوا والدى وزوجتى وأولادى يبكون وحملونى فى سيارة الى غرفة من غرف التوقيف كما يسمونه فأدخلونى فيها وأغلقوا الباب وفى أثناء الطريق قالوا لى صدق من قال أنك تبغض الزعيم عبد الكريم قاسم فقد فتشنا بيتك كله وما وجدنا فيه صورة للزعيم قال فقلت لهم هل بعثكم من فوقكم لتحاكمونى أو لتقبضوا على وتقدمونى الى غيركم ليحكم على قال فوجدت فى تلك الغرفة ثمانين رجلا كل واحد منهم ملتف بكساء يقيه البرد وهم قعود ولا مجال للاضطجاع ، قال فقعدت معهم فلما أصبح الصباح وجاء وقت الضحى جاءنى شرطى فدعانى الى مكتب المعاون قال فسلمت عليه فلم يرد على بل قال لى أنت بعثى قال فقلت أنا مسلم فقال لى لماذا تكونون شجعانا حتى اذا وقعتم فى يد العدالة تجبنون قال فقلت له أنا لا أجبن ولا أبالى

بك ولا برئيسك عبد الكريم قاسم أتعرف من هو رئيس حزب البعث قال لا قلت هو مشيل عفلق فكيف أكـون مسلما ويكون رئيسى مشيل عفلق وهـو نصرانى فلو كنت تعرف ما هو الاسلام لم تتهمنى بالبعثية بعدما قلت لك أنا مسلم قال وكان ذلك المعاون من خيار المعاونين فناولنى مقالا مكتوبا بخط يدى عنوانه مضار الخمر وقال لى أنت كتبت هذا المقال قال فقلت نعم فقال لى اقرأه فقلت له أنا كتبته بيدى وأعرفه فاقرأه أنت لتعرفه قال فقرأه فلم ينكر منـه شيئا قال فقال لى أنت مظلوم صدر الامر بالقبض على صاحب الصحيفة التـى كتبت لها هذا المقال فوجدوا بين أوراقه هذا المقال موقعا باسمك فقبضوا عليك قال وكتب أمامى كتابا الى من فوقه وقال فيه اننى أجريت تحقيقا دقيقا مـع الدكتور فلان فوجدته بريئا وهو يحب الزعيم فأرجو الامر باطلاق سراحه قال فبقيت أربعة أيام ثم أطلق سراحى ولا نطيل بذكر الحوادث المؤلمة فان ذكرها أيضا يؤلم ، وفى ذات يوم بعد ما صليت الجمعة اماما فى جامع الدهان جاءنى أحد المصلين فأسرالى أن ابنه سمع معلما شيوعيا فـى ثانوية الاعظمية يقول يزعمون أن حكومتنا ليست ديموقراطية وما عندها حرية وهذا باطل فأى حرية أعظم من أن تترك محمدا تقى الدين الهلالى يسبها فى كل جمعة على المنبر ولم تتعرض له بسوء فقلت له وهل سمعتنى أسب الحكومة فى خطبة من الخطب فقال لى انما أردت أن أبلغك الخبر لتكون على حذر وكان خطباء الجمعة فـى ذلك الزمان أصنافا منهم من يمدح حكومة عبد الكريم قاسم فى خطبه ويطربها غاية الاطراء كما كانوا يفعلون مع الحكومة الملكية ومنهم من يقتصد فى ذلـك ومنهم من يقتصر على الدعاء لها وأنا لم أكن أذكرها أصلا لا بخير ولا بشر لكن كان بعض المتهوسين من تلامذتى يحاولون أن يلقوا كلمات بعد خطبة الجمعة فـى انتقاد الحكومة فكنت أمنعهم خوفا من العواقب الوخيمة على المسجد وأهله وكان عشرات من الشيوعيين يقفون أمام المسجد وقت الخطبة ويكتبون ما تضمنته خطبة الجمعة ويبلغونه الرؤساء وكان رجال المباحث فى كل جمعة يدعون بعض المصلين ويسألونهم عن الخطبة وعن صاحبها وفى ذات جمعة دعوت الناس الى أن يجمعوا تبرعات للمجاهدين فى الجزائر وقلت لهم كل متبرع يعد ما يتبرع به وسيأتى فى الجمعة التالية ممثل الجزائر السيد محمد الروابحية ويتسلم التبرعات فاهتم بذلك رجال المباحث ولكنهم اقتصروا على استنطاق المصلين ولم

يتعرضوا لنا بسوء وتعطلت دروس الوعظ فى المسجد لان تلامذتى صاروا
يخافون الشيوعيين أن يفتكوا بهم وذهبت أنا الى الاستاذ الحاج حمدى
الاعظمى وهو أكبر عالم حنفى فى ذلك الزمان ببغداد وكان اماما وخطيبا فى
مسجد الشيخ عبد القادر الكيلانى المبنى على قبره فقلت له ما تقول فى خطبتك
بالنسبة الى رجال الحكومة فقال أدعو لهم بالتوفيق والتسديد وأن يعينهم الله
على ما فيه الخير لهذا الوطن فمنذ ذلك أخذت أدعو أنا أيضا لهم بمثل ذلك فى
الخطبة الثانية خوفا من شرهم وعزمت على السعى فى الخروج من العراق ولكن
ذلك لم يكن أمرا هينا فكتبت الى رئيس مستشفى العيون الاستاذ (مولر) أن
يأمرنى بالسفر الى ألمانيا ليفحص عينى ففعل وقدمت طلبا لرئاسة الصحة
وأطلعتها على كتاب الطبيب الالمانى فعينت ثلاثة من الاطباء للتحقيق فى القضية
فناقشونى الحساب ولم يأذنوا لى الا بعد اللتيا والتى وكان العراقيون ممنوعين
من السفر الا لغرض فيه خدمة للحكومة أو لعلاج مرض يعجز عنه أطباء العراق
ثم لا يمكن السماح بالسفر الا لمن كانت صحيفته بيضاء بالنسبة الى رجال
الثورة فقدمت الطلب للحصول على الاذن بالسفر ومعه موافقة رئاسة الصحة
وبقيت أنتظر الجواب خمسين يوما حتى درسوا كل ما تحتويه محفظة أوراقى
التى كتب فيها كل ما ينسب الى وفى نهاية المطاف أعطيت جواز السفر ولم
أصدق أننى تخلصت من أظافرهم الا بعد وصولى الى مطار بيروت وكان جواز
سفرى محصورا فى (بن) فلما وصلتها دخلت المستشفى وأنفقت فيه ثلث ما
عندى لارى السفارة العراقية أننى صادق فى دعواى وكان ذلك خطأ لاننى لما
توجهت الى السفارة العراقية فى (بن) وجدت القائم بالاعمال شابا طيبا أبوه
من أعز أصدقائى وقال لى أنا مستعد أن أضيف الى جوازك اذنا بالسفر الى أى
بلده تريده ولو الى مصر وكان السفر الى مصر فى ذلك الزمان من أعظم الجرائم
وفى أول الثورة كانت صورة جمال عبد الناصر أحسن حلية لكل مكان؛ تراها فى
الامكنة الخاصة والعامة أينما سرت فى بغداد ثم مزقت كل ممزق وصار كل
من توجد عنده يستحق العقاب الشديد وبعد ذلك سافرت الى المغرب .

الدعوة الى الله فى الدورة

أول حجة حججتها كانت سنة 1341 على عهد الملك حسين بن على ورافقنى الى الحج بعض اخواننا السلفيين من أهل الريرمون وكان السفر من مكة الى المدينة فيه مخاطرة عظيمة بالنفس والمال فكانت قبائل البدو تتحكم فى الحجيج وتنهب وتسلب وتقتل وقد أخبرنا بعض الحجاج أن كل قبيلة تمر بها قافلة الحجاج يفرض رجالها على الحجاج أن يمكثوا فى بلدهم أياما عديدة الى أن يبيع أهل القبيلة كل ما يريدون بيعه وقد يشترى الحجاج منهم أشياء لا حاجة لهم بها وانما يفعلون ذلك اتقاء لشرهم وطلبا لاطلاق سراحهم وكل من ابتعد من الحجاج عن القافلة ولو لقضاء الحاجة يكون عرضة للقتل والسلب فلا يصل الى المدينة ولا يرجع منها الا طويل العمر هذا مع أن الملك حسينا كان يأخذ من كل قبيلة شابا يكون رهنا عنده الى انقضاء موسم الحج حتى لا تتعدى تلك القبيلة على الحجاج ولم يجد ذلك نفعا ومما يدلك على أن الشرك كان مسيطرا على البدو والحضر فى ذلك الزمان أن الشيخ أحمد الشمس الشنقيطى نزيل المدينة النبوية وهو أحد تلامذة الشيخ ماء العينين وكلاهما شيخ طريقة يسمونها قادرية نسبة الى عبد القادر الجيلانى رحمه الله وأهل هذه الطريقة عندهم غلو عظيم فى شيوخهم قد اتخذوهم أربابا من دون الله يستغيثون بهم فى الشدائد ويزعمون أنهم يغيثونهم واذا جالست أحدا منهم تراه كالمجنون ممسكا سبحة بيده يعد حباتها ويسرد لا اله الا الله بنغمة الغناء واللحن ثم ينشد أبياتا ثم يعود الى سرد لا اله الا الله وفى أثناء ذلك يصرخ صرخات عظيمة يا شيخنا ، فهؤلاء ما لهم عقل ولا دين قال ابن الجوزى فى كتابه تلبيس ابليس ، قال الشافعى رحمه الله لو أن رجلا صحب الصوفية من الصبح الى الظهر لم يبق له عقل قال محمد تقى الدين وأنا أصدقه وأزيد عليه ولا دين ونحن انما نذم الصوفية المبتدعين والمشركين والملاحدة كابن عربى الحاتمى وابن الفارض واذا كان الصوفية فى زمان الشافعى رحمه الله موصوفين بأن من صاحبهم يفقد عقله فما بالك بصوفية الازمنة المتأخرة . واذا أردت أن تعرف طريقه ماء العينين

وتلامذته فعليك بكتابه المسمى «نعت البدايات» فانك ترى فيه عجب العجاب من الضلال والغلو ومن جملة ما قاله بعض الغلاة فى قصيدة له يطرى فيها شيخه ماء العينين .

من فاته المصطفى المختار من مضر ... وفاته الشيخ مالعينين محروم

وقد رددت عليه بقصيدة أنقلها هنا :

من فاته المصفى المختار من مضر ... وقد قفا نهجه ماذاك محروم

ان رد كل نزاع للاله الى ... كتابه فله يحق تحكيم

وللرسول الى حديثه فبذا ... أمر الاله أتانا وهو محتوم

لا للشيوخ ولا للرأى من شيع ... لديهم حبل ذكر الله مصروم

وكم حديث به عرض الجدار رموا ... اسناده مثل شمس الصحو معلوم

اذ خالف الرأى وهو الاصل عندهم ... كأن صاحب ذاك الرأى معصوم

ما للرسول لديهم غير الاسم فقط ... وصاحب الرأى متبوع ومأموم

وآية من كتاب الله محكمة ... تفسيرها عن نبى الله مفهوم

تعمدوا سلب معناها المراد بها ... وحملوها مفاهيما بها ليموا

مضى الصحابة لم تخطر ببالهم ... والتابعون وعقد الدين منظوم

كذا الائمة مثل الشافعى ومـا ... لك وأحمد لم يلمز لهم خيموا

وجاء من بعدهم خلف أتوا بدعا ... قد اقتفوا أثر يونان مشائيم

وحكموا عقلهم فى الله جل وهم ... جهال أنفسهم وذاك مذموم

فوصفوه بما أوحت وساوسهم ... وعندهم وصفه بالذكر تجسيم

ان قصر الله والمختار فى صفة ... وصحبه كيف يرجى بعد تفهيم

أو أنزل الله آيات مكفرة ... فالكفر يحمد والاسلام مذموم

تالله ان أولاء القوم فى عمه ... بنوا على غير أس فهو مهدوم

قد أعرضوا عن كتاب الله وانتبذوا ... ببيداء سالكها لا شك مقصوم

من رام تكذيب قول الله أو سنن ... يقول ذا لازم وذاك ملزوم

والحق أوضح من أن يستدل له ... لكن طرف أخى التقليد مخروم

الله أعطاه طرفا يستدل به ... فسده واقتفى من هو مشؤوم

وقال انا وجدنا الاقدمين كذا ... والاقدمون لهم يحق تقديم

والحق أقدم المختار سابقهم ... لقوله حق تبجيل وتعظيم

نعت البدايات وتوصيف النهايات لمحمد فاضل بن مامين المنفرت بماء العينين وهو مطبوع وبحاشيته كتاب آخر له يسمى فاتق الرتق على الفتق

وليس رب الورى بسائل احـــدا ... عن غيره فعليه دام تسليـــم
يا ويل من لم يكن له بمتبع ... شرابه يـــوم يظما الناس يحموم
وكيف يتبـع ذو التقليد سنتـــه ... وأنفه بحبال الجهل مخـــزوم
اذا عصيتم رسـول اللـه فاتبعوا ... من شئتم جمعكم لاشك مهزوم
ان قلت قـال رسول اللـه ينتفشوا ... وينغضون رؤوسهم وهم بـــوم
وينبزونك بالالقاب من سفـــه ... فعندهم قول خير الرسل مسئوم
كونوا حجـارة أو حديـدا أو خشبا ... وأنفكم أبدا بالترب مرغـــوم
من كان قـول رسول اللـه يغضبه ... فذاك فـى الناس مدحـور ومـذؤم
وان تستـر بالتحريف يخدعنا ... فليس يخفى على العلام مكتـــوم
أمـر النبى وأمر من امامهـــم ... ذا حاكم عندهم وذاك محكـوم
لـو وفقـوا حكموا قـول النبى على ... قول الامام وذا فى الذكر مرقـــوم
فاين الايمان منهم أين آيتـــه ... أين المحبة أين أين تعظيـــم
وهم يقولون نحن الوامقون لــــه ... وخالفوا أمره فالحب مزعـــوم
ان كنت وامقه فتقف سنتـــه ... والحب منك اذا خالفت معدوم
وكل ما كان من نقص فمصدره ... مشايخ دينهم والعرض مثلـــوم
هم زينوا للعوام كل فاحشـــة ... ومنهم نتـن أكـل السحت مشموم
راموا التآكل بالفتـوى فصار لديـــ ... ـــهم بالدراهم تحليل وتحريـــم
لاكسب عندهم الا العمائم كالـ ... ـسيقطين والكم مثل الخرج مرســـوم
يرخون للناس أيديهم تقبلهـــا ... ومـن أبى فهو ملحى ومشتوم
ان كان حال هـداة الناس يـا أسفا ... كما رأيت استوى جهـل وتعليـــم
أما ذوو الطرق من للصوف قد نسبوا ... فـلا تسل عنهم فهم مشائيـم
لم ترضهم شرعة المختار فانتحلـوا ... شرائعـا كلهـا افـك وتأثيـــم
واستبعدوا الناس استتباعهـم سفها ... فالحر مستخدم والعبد مخـــدوم
قالوا عن الله أخذنا الشرائع بـــل ... مـن الشياطين شرع القـوم مفهـوم
هل فى شريعة خيـر الخلق عربدة ... مثل السكارى ورقص ثـم هينـــوم
هل فى شريعة خير الخلق تصديـة ... مـع المكـا وتجنـن وتهويـــم
هـل للخلائـق أرباب تقسمهـا ... كـل لـه جزء فى الناس مقسوم
أم للخلائق رب واحـد صمـد ... وغيره ما له فى الخلق برعـــوم
هـل فـى الشريعة أقـوال تكذبها ... يقول أصحابها ذا السر مكتـــوم

هل فى الشريعة أوثان مقدسة وحولها دم ذبح القوم مسجوم
لا يخشعون لربنا خشوعهم لها لاوجههم ويل وتسخيم
لو آمنوا باله الناس ما قصدوا من دونه من بكل الفقر موسوم
ما قدروا الله حق قدره أبدا اذ كان منهم على المقبور تحويم
اذ كان حيا بكل الفقر متصف فكيف وهو بترب اللحد مغموم
قد أخبر المصطفى بكل ما فعلوا صلاة ربى عليه ثم تسليم
والله أسأل أن الحفظ يصحبنى والعمر بالعمل المرضى مختوم

تمت

كان الشيخ أحمد الشمس يخرج من المدينة ومعه قافلة كبيرة فيتوجه بهم الى مكة ولا يمسسهم أحد بسوء وكلما مر على قبيلة جاءه أهلها وقبلوا يده وتبركوا به وقدموا الهديا فكان ملكا بلا جنود بسبب غلبة الجهل والشرك والبدعة والخرافات على أهل هذه البلاد فى ذلك الزمان فان قبائل البدو كانت ترهب سطوة شيخ صوفى يزعم أنه يقتل من يشاء ويصيب بالامراض والكوارث من لم يخضع الى مخرقته أكثر مما يرهبون ملك البلاد وأمراءه فقلت لمن كان معى من الاخوان اننا قد أدينا فريضة الحج نرجوا الله القبول والصلاة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فضيلة مستحبة ولو كانت فريضة ما ساغ لنا أن نخاطر بأرواحنا لاجلها فان المحصر يحل من حجه فأى واحد منكم يتوجه الى المدينة ويركب هذه الاخطار فتوحيده غير صحيح وكل واحد منكم يترك صلاة الجماعة فى المسجد أحيانا بلا عذر وهى فريضة فكيف يعقل أن يخاطر بروحه لفعل مستحب ان أحيانا الله الى أن تؤمن هذه البلاد فاننا سنعود باذن الله ونصلى فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم والا فقد أدينا فريضتنا فاستمعوا كلهم لقولى وأطاعونى وقد أحيانا الله سبحانه بفضله ورحمته الى أن صلينا فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم ما لا يحصى من الصلوات وهذا ببركة تحقيق التوحيد نسأل الله حسن الختام .

كيف كان حال السلفيين

كان السلفيون فى الحجاز فى ذلك الزمان أضيع من الايتام أما أهل نجد منهم فانهم كانوا ممنوعين من الحج وفى تلك الايام جاء جماعة من حجاج

أندونوسيا وكانوا سلفيين فأعلنوا الدعوة الى التوحيد واتباع السنة فبلغ خبرهم بعض من كانوا يسمون بالعلماء فرفعوا أمرهم الى الملك حسين وأخبروه أنهم يدعون الى مذهب الوهابية فأمر الملك باستتابتهم فاجتمع عليهم العلماء واستتابوهم فتابوا .

مناظرة مؤلف هذا الكتاب لحبيب الله بن مايابا الشنقيطى

كان الشيخ حبيب الله بن مايابا الجكنى من العلماء المقربين عند الملك حسين وكانت له مدرسة تشرف على المسجد الحرام وكان المسجد الحرام فى ذلك الزما محاطا بالمدارس وهذه المدارس كان يستغلها المقربون من العلماء والجهال اذا جاء والى المسجد الحرام يجلسون فيها ويتوضؤون وينامون ويصلون فيها أيضا لان كل واحدة منها كانت لها طاقة واسعة مواجهة للكعبة فقصدت زيارة الشيخ المذكور فى مدرسته وأخذت أتحدث معه حديثا يشبه المناظرة فى التوحيد والاتباع وكان عنده رجل أشيب فلما سمع كلامى ظهرت عليه امارات الحزن وقال لى هذا الذى تقوله تعلمته فى الشرق أم فى الغرب فقلت له بل فى المغرب فقال لا حول ولا قوة الا بالله وصل هذا البلاء الى المغرب يعنى بالبلاء توحيد الله تعالى واتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأخبرنى الشيخ حبيب الله أن ذلك الشيخ كان شنقيطيا كنتيا نسبة الى كنته وهى قبيلة معروفة فى شنقيط فقال الشيخ حبيب الله وأنت وهابى وأنتم معشر الوهابية عندى ثلاثة أصناف وهابية نجد ووهابية مصر والشام وأنت منهم ووهابية الهند فاما وهابية نجد فانهم كفار بيننا وبينهم ما بين اليهود والنصارى والمسلمين هم اليهود والنصارى ونحن المسلمون وأما وهابية مصر والشام فهم ضلال وأما وهابية الهند فهم مخطئون فقلت له اشرح لى ما ذكرته وبين لى سبب هذه التفرقة فقال لى أما وهابية نجد فهم عندى كفار لانهم يقولون ان ربهم فى السماء وأما وهابية مصر والشام فهم ضلال لانهم يدعون الاجتهاد ، وادعاء الاجتهاد ضلال ولا يبلغ الى حد الكفر وأنا بنفسى لا أقول بالتقليد المحض بل أقول بمنزلة بين منزلتين ثم سرد على أبياتا من أرجوزة له لا أحفظ منها الا شطرا واحدا وهو قوله : (وانما أقول بالتبصر) .

فقلت له هذا التفصيل فيه نظر لان جميع السلفيين فى نجد وفى مصر والشام وفى المغرب وفى الهند يقولون ويعتقدون أن الله فى السماء مستو على

عرشه بدون تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ولا تعطيل وأدلة هذا لا تخفى عليك وأما ما سميته بالاجتهاد فنحن نسميه الاتباع والاصناف الثلاثة أيضا متفقون عليه الا أن أهل نجد ينتسبون الى المذهب الحنبلى فى الفروع ونحن لا ننتسب اليه الا فى الاصول ثم قلت له ولماذا خففت الحكم على أهل الهند فلم تجعلهم كفارا ولا ضلالا بل جعلتهم مخطئين فقط فقال لى لانهم يزورون قبر النبى صلى الله عليه وسلم فليس عندهم مما ينتقد الا مسألة الاجتهاد فقلت له فعلام ضللتنا نحن بالاجتهاد وغفرته لهم فقال قلت لك أنهم يزورون قبر النبى صلى الله عليه وسلم فقلت له ماذا تعنى بزيارة القبر أتقصد السلام على النبى صلى الله عليه وسلم فى مسجده أم أمام حجرته أم تقصد شد الرحال فقال أقصد ذلك كله فقلت له ان السلفيين فى الهند لا يقولون بجواز شد الرحال الا الى المساجد الثلاثة فظهر تناقضه ولم أكن أعلم سبب ذلك التناقض حينئذ غير أنى عرفته فيما بعد وذلك أن الشيخ عبد الوهاب الدهلوى التاجر العالم كان بمكة وكان تلميذا له يدرس عليه بعض فروع العلم وكان يحسن اليه فلذلك خفف الحكم على السلفيين من أهل الهند وكان يتبع هواه والهوى يعمى ويصم فقد كان يحرم حلق اللحية ويغلظ فيه القول ويفسق مرتكبه فلما انتقل الى مصر هاربا ممن يسميهم بالوهابية كما سيأتى غير رأيه فأفتى بأن حلق اللحية مكروه كراهية تنزيه فقيل له قد أفتيت زمانا طويلا ابلتحريم والتفسيق فما عدا مما بدا فقال ان أكثر العلماء فى مصر يحلقون لحاهم فكيف يسوغ لى أن أفسقهم ، ولما استتيب الاندونوسيون وكان هذا الرجل من الذين استتابوهم اختفيت أنا ثمانية أيام فى مكة عند بعض المغاربة وكنت أبعثه كل يوم الى المسجد الحرام ليتحسس هل هناك أحد يبحث فلم يجد لذلك أثرا فخرجت من مختبئى وهذه حسنة أعدها له اذ لم يسع فى استتابتى وسوف يرتكب سيئة تمحو هذه الحسنة .

مداهنته لمن يسميهم بالوهابية

لما استولى الملك عبد العزيز على الحجاز بعد هذا التاريخ بقليل أخذ يداهن الملك عبد العزيز وأهل نجد الذين كان بالامس يكفرهم وفى يوم من الايام جاء الملك عبد العزيز رحمة الله عليه الى المسجد الحرام فوجد الشيخ حبيب الله والسيد أحمد السنوسى يملآن الاثر المسمى بموضع قدم ابراهيم بماء زمزم

ويكرعان فيه بأفواههما كالبهائم فوبخهما وقال لهما اذا كنتما تفعلان هذا وأنتما بزعمكما من العلماء فماذا تركتما للجهال وحدث أنه كان ذات ليلة فى مجلس الملك عبد العزيز آل سعود وكان الملك يتكلم فى التوحيد فعارضه فغضب عليه الملك عبد العزيز غضبا شديدا فظن أن حتفه قد دنا فتقدم الى الملك وألقى نفسه بين يديه وأظهر التوبة والرجوع عما قاله وانما فعل ذلك خوفا أن يبطش به ولم يكن الملك عبد العزيز رحمه الله سريعا الى البطش بل كان اذا غضب يقتصر على الكلام ولا يتجاوزه وعلى اثر ذلك أخذ زوجته الى المدينة وتركها فى بيت أخيه الشيخ محمد الخضر وهرب الى مصر وكانت العلاقات بين مصر والمملكة السعودية فى ذلك الزمان سيئة جدا بسبب المحمل الذى كانت تبعثه الحكومة المصرية الى مكة فى كل سنة وهو شيء كالهودج يطاف به فى القاهرة ثلاثة أيام يتمسح الناس به ويتبركون به ثم يبعث مع الوفد المصرى الى مكة فيتمسح به الجهال أيضا فى جدة وفى الطريق الى مكة فأمر الملك عبد العزيز رحمه الله بالمنع من التمسح به والاتيان به الى مكة وأمر أن يترك فى جدة وبعد الحج يرجع به الوفد الى مصر فرأى الوفدالمصرى أن ذلك اهانة له وكانت كسوة الكعبة المشرفة يؤتى بها من مصر يحملها الوفد المصرى كل سنة الى مكة فلما ساءت العلاقة بين المملكتين استغنى الملك عبد العزيز عن كسوة الكعبة التى كان يؤتى بها من مصر وطلب الصناع من الهند وأسس دارا بمكة لصنع الكسوة فاغتنم الشيخ حبيب الله هذا الخلاف والتجأ الى حكام مصر وشكى لهم ما أصابه من السعوديين والحقيقة أنه لم يصبه شيء فرحبوا به وجعلوه مدرسا فى الازهر وفى سنة 1345 توجهت من العراق الى الحج بصحبة الشيخ مصطفى آل ابراهيم ومررنا بالقاهرة وكان الشيخ حبيب الله مستقرا بها فعلمت أن شخصا قال له هل تعرف الهلالى فقال نعم أعرفه فقال له أهو من أهل العلم فقال له لا يصلح أن يكون جليسا لاهل العلم فكيف يكون من أهل العلم فكتبت كتابا اليه قلت له فيه بلغنى أنك قلت كيت وكيت وقد ناظرتك فى مدرستك سنة 1341 من الظهر الى العصر كنت تناضل عن عقيدة أسلافك الارذلين كالجهم بن صفوان والجعد بن درهم وكنت أناضل عن عقيدة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والائمة المجتهدين فما وجدت فى بحمد الله ضعفا ولا ونى وأنشدته فى ذلك الكتاب أبياتا أذكر منها قول الشاعر :

لقد زادني حبـا لنفسي أنني بغيض الى كـل امـرىء غير طائـل
واني شقي باللئام ولا تـرى شقيا بهـم الاكريم الشمائـل

وقول المتنبى أيضـا :

ويظهـر الجهل بـى وأعرافـه والـدر در برغـم مـن جهلـه

وأبياتا أخرى نسيتها وكتبت عليه عنوانه وهممت أن ألقيه فى صندوق البريد ليصل اليه ويشويه ولكن أخانا السلفى الشيخ ابراهيم الوادنونى تلطف وتحيل وقال لى ناولنى هذا الكتاب وأنا أبلغه اليه فناولته اياه وكان مقصوده أن يمنع وصوله اليه حتى لا يسوءه لانه كانت بينه وبينه صداقة مع اختلافهما فى العقيدة فان ابراهيم سلفى العقيدة وحبيبا قد علمت معتقده فيما مضى وبعد ذلك سافرت الى الحجاز للحج وكتب السيد رشيد رضا رحمه الله الى الملك عبد العزيز رحمة الله عليه يرغبه فى ابقائى فى المملكة ويقول له ان محمدا تقـى الدين الهلالى من أفضل من أم بلادكم من أهل العلم وبعد انقضاء الحج تهيأ الشيخ مصطفى آل ابراهيم ليرجع الى العراق فالتمست من اخوانى الشيخ عبد الظاهر أبـى السمح والشيخ محمد عبد الرزاق حمـزة وغيرهما ان يشفعوا لى عنده ليسمح ببقائى وأكدت له أننى ما فارقته الا بقصد البقاء فى هذه البلاد المقدسة للتعاون مع اخوانى على نشر العقيدة الصحيحة وكان الشيخ عبد الظاهر أبو السمح قد كتب الى مرارا يرغبنى فى التوجه الى الحرمين والبقاء فيهما بعدما أصلح الله أحوالهما على يد الملك عبد العزيز آل سعود وكنت فى العراق أعيش أحسن معيشة فقد كان الشيخ مصطفى آل ابراهيم قد انشأ لى مدرسة وجعل لى راتبا طيبا وتزوجت هناك فجاهدت نفسى الى أن أرغمتها على البقاء فى مكـة وترك ذلك كله مع أنى حتى ذلك الحين لم أوعد بشىء وكان معى أخى محمـد العربى الهلالى ولما فارقنى الشيخ مصطفى آل ابراهيم سلم لى مقدارا كبيرا من الدراهم وقال لى وزعه على العلماء وطلبة العلم السلفيين فقلت فى نفسى أنـا وأخى من طلبة العلم السلفيين أفلا يجوز لى أن آخذ لى ولاخى نصيبا من هـذا المال ثـم قلت لنفسى ان المتبرع بهذا المال يعرفك ويعرف أخاك ويعلم أنكما محتاجان فلو أراد أن يجعل لكما نصيبا منه لصرح بذلك فالاحتياط والاخـذ بالعزيمة يقضى بتوزيع المال كله وأن لا تأخذ لنفسك ولا لاخيك منه شيئا فوزعته كله ولم آخذ شيئا وكنت مع الشيخ مصطفى آل ابراهيم فى ضيافة الملك عبد

العزيز رحمه الله فلما سافر أقمت فى الطبقة العليا من البيت الذى كان يسكنه الشيخ عبد الظاهر أبو السمح وتلك الطبقة مهجورة شديدة الحر فجاهدت نفسى على الصبر على تلك الحال وكان مأمور الضيافة يسكن فى الطبقة الارضية فكنت أمر عليه فأسلم فلا يرد على السلام الا فى بعض الاحيان وفى يوم جمعة أردت أن أغتسل للجمعة فذهبت الى المستقى ويسمونه البازان وطلبت من سقاء أن يأتينى بصفيحتين من الماء بعدما كنست الحوض وأخرجت ترابه فلما جاء الى البيت وعلم أننى أسكن فى الطبقة الخامسة امتنع حتى زدته فى الاجرة وصارت نفسى توسوس وتقول كيف تترك راتبا طيبا وبيتا حسنا وتترك أهلك وتصبر على هذه الحال فأدفع هذا الوسواس بمثل قوله تعالى (ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب) فلما اغتسلت وتهيأت للذهاب الى المسجد الحرام اذا بخادم مأمور الضيافة يطرق الباب ويقول ان مأمور الضيافة يسلم عليك ويرجو أن تمر على مكتبه فنزلت اليه فتلقانى بغاية البشاشة والحفاوة وقال لى جاءنى أمر هاتفى من القصر الملكى بأن أنزلك فى الضيافة وأعتذر اليك فى التأخير الى ما بعد العصر كما أرجو أن تتناول طعام الغداء بعد صلاة الجمعة معى وبعد صلاة العصر يكون كل شيء جاهز فجاءنى بعد صلاة العصر وذهبنا الى دار الضيافة وهى دار السقاف فى محلة جياد فوجدت مسكنا طيبا مؤثثا أحسن الاثاث ونزلت فى الضيافة وانفرجت الازمة وبقيت أربعة أشهر فى الضيافة ثم قال لى الشيخ عبد الله بن حسن رحمة الله عليه ما رأيك فى أن تكون اماما وخطيبا فى المسجد النبوى فقلت له أقبل بشرط أن لا أنقص عن عشر تسبيحات فى السجود والركوع فقال لى هذا كثير على الناس لا يتحملونه فقلت وأنا لا أقبل الا بهذا الشرط فقال لى اذا نعطيك عملا آخر وهو مراقبة المدرسين فى المسجد النبوى فقلت قبلت هذا مع أن الشيخ عبد الله بن حسن رحمة الله عليه حين سافرنا الى المدينة كان يقدمنى دائما اماما فى الصلاة فهو رحمة الله عليه كان يستحسن ما اخترته من اتمام الركوع والسجود والاعتدال الا أن رأى أن عامة المصلين يشق عليهم ذلك فالله يجزل ثوابه ويرحمه رحمة واسعة . سافرت الى المدينة بصحبة الشيخ عبد الله بن حسن وكان معنا الشيخ محمد عبد الرزاق حمزة وقد عين اماما وخطيبا فى المسجد النبوى بعد أن اعتذرت أنا عن قبول ذلك فأقمنا بالمدينة أياما .

ازالة بستان فاطمة

كانت فى صحن المسجد النبوى بئر ونخلة وشجيرات وكان الجهال يسمون ذلك بستان فاطمة ويتبركون بالنخلة وتمرها وبالشجيرات والبئر ويعتقدون أن بئر زمزم تجرى تحت الارض حتى تتصل بتلك البئر يوم عاشوراء من كل سنة فيقبل الناس فى يوم عاشوراء على تلك البئر ويأخذون منها ماء كثيرا للتبرك به فاستشارنا الشيخ عبد الله بن حسن رحمة الله عليه فى طم البئر وازالة البستان فلم نتردد فى الموافقة على ذلك لان المسجد كله وقف للصلاة ولا يجوز أن يشغل بغيرها ولان الجهال يفتتنون بماء البئر والنخلة والشجيرات فكتب رحمه الله الى الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن رحمه الله يخبره بما رأيناه ويستأذنه فى تنفيذه فجاء الاذن فأمر الشيخ بطم البئر وقلع تلك الاشجار وتسوية الارض فكانت من حسناته رحمة الله عليه ولما قلعت النخلة والاشجار وقطعت قطعا وحملت الى خارج المدينة أنتظر المفتونون بها مجىء الليل بظلامه فأخذوها كلها ولم يبقوا شيئا ولابد أن يكونوا قد اقتتلوا عليها لينال كل واحد منهم قطعة صغيرة من الاشجار وأوراقها وهنا نذكر شجرة ذات أنواط التى كانت للمشركين فى الجاهلية ينوطون بها أسلحتهم ويتبركون بها ، قال شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله فى كتاب التوحيد باب من تبرك بشجر أو حجر ونحوهما ومضى الى أن قال وعن أبى واقد الليثى قال خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الى حنين ونحن حدثاء عهد بكفر وللشركين سدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها ذات أنواط فقلنا يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم الله أكبر انها السنن قلتم والذى نفسى بيده كما قالت بنو اسرائيل لموسى اجعل لنا الها كما لهم آلهة قال انكم قوم تجهلون لتركبن سنن من كان قبلكم رواه الترمذى وصححه قال شارحه الشيخ سليمان بن عبد الله رحمة الله عليه فى شرح هذا الحديث ص 150 ما نصه فاذا كان اتخاذ شجرة لتعليق الاسلحة والعكوف عندها اتخاذ اله مع الله مع أنهم لا يعبدونها ولا يسألونها فما الظن بما حدث من عباد القبور من دعاء الاموات والاستغاثة بهم والذبح والنذر لهم والطواف بقبورهم وتقبيلها وتقبيل أعتابها وجدرانها والتمسح بها والعكوف عندها وجعل السدنة والحجاب بها وأى نسبة بين هذا وبين تعليق الاسلحة على شجرة تبركا .

قال الامام أبو بكر الطرطوشى من أئمة المالكية فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرء والشفاء من قبلها ويضربون بها المسامير والخرق فهى ذات أنواط فاقطعوها وقال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل الشافعى المعروف بأبى شامة فى كتاب البدع والحوادث ومن هذا القسم أيضا ما قد عم الابتلاء به من تزيين الشيطان للعامة تخليق الحيطان والعمد وسرج مواضع مخصوصة فى كل بلد يحكى لهم حاك أنه رأى فى منامه بها أحدا ممن شهر بالصلاح والولاية فيفعلون ذلك ويحافظون عليه مع تضييعهم فرائض الله تعالى وسننه ويظنون أنهم متقربون بذلك ثم يتجاوزون هذا الى أن يعظم وقع تلك الاماكن فى قلوبهم فيعظمونها ويرجون الشفاء لمرضاهم وقضاء حوائجهم بالنذر لهم وهى من بين عيون وشجر وحائط وحجر وفى مدينة دمشق صانها الله من ذلك مواضع متعددة كعونية الحما خارج باب توما والعمود المخلق داخل باب الصغير والشجرة الملعونة اليابسة خارج باب النصر فى نفس قارعة الطريق سهل الله قطعها واجتثاثها من أصلها فما أشبهها بذات أنواط الواردة فى الحديث اهـ .

فماذا يقول أعداء التوحيد الذين يبغضون الموحدين ويسمونهم بالوهابية فهل كان أبو بكر الطرطوشى وعبد الرحمن أبو شامة أيضا وهابيين ،،، وبعدما استقررت فى المدينة بعث حبيب الله الشنقيطى من مصر الى المدينة رجلين ليأتياه بزوجته أحدهما الشيخ ابراهيم المراكشى والثانى شنقيطى لا أعرف اسمه والشيخ ابراهيم المراكشى مغربى استوطن القاهرة منذ زمان طويل وهو رجل كريم ضيفنى مرارا فى بيته فلما رأيته دعوته للغداء فلما رجع الى القاهرة كان من أعجب المصادفات ان العلاقة بين الشيخ ابراهيم الودنونى وبين حبيب الله الشنقيطى قد ساءت ووقعت بينهما وحشة فألقى الكتاب الذى أخذه منى عى البريد فوصل الكتاب مع وصول الرجلين الذين بعثهما الى المدينة فظن حبيب الله أن ابراهيم المراكشى هو الذى جاء بالكتاب وألقاه فى البريد فأخذ يلومه ويقول يا شيخ ابراهيم هذا قدرى عندك تأتينى بكتاب يتظمن تكفيرى من ذلك الجهول فحلف ابراهيم المراكشى ايمانا مغلظة أنه لم يأخذ منى كتابا ولا سمع منى كلاما فى حقه فلم يصدقه وحصل الغرض المطلوب وهو جزاؤه على اساءته باساءة مثلها :

العشاء فى قصر الملك حسين

لما حججت الحجة الاولى سنة 1341 وجدت شيخا من بلدنا بوابا فى قصر الملك حسين ففرح بى كثيرا ودعانى للعشاء وكان من جملة حديثه لى أن قال يا بنى ان هذه البلاد الشرقية فيها عجائب وغرائب فكن على حذر من أهلها فانها ليست كبلادنا أهلها كلهم سنيون على مذهب امامنا مالك ففى هذه البلاد طائفة يقال لهم الوهابية يبغضون النبى صلى الله عليه وسلم ولا يذكرون اسمه أبدا فيقولون لا اله الا الله مالك يوم الدين بدل أن يقولوا محمد رسول الله فأظهرت له التعجب وفى سنة 1345 لما كنت فى الضيافة الملكية بحثت عنه حتى وجدته وضيفته وعرف حينئذ أننى من الطائفة التى حذرنى منها فسكت ولم يقل شيئا وفى يوم من الايام كان معى فقصدنا المسجد الحرام فوجدنا الشيخ عبد الظاهر أبا السمح رحمه الله جالسا على الحصى فجلست معه وجلس رفيقى فقال عند جلوسه يا رسول الله فقال له أبو السمح قل يا ألله فقال ما أقول الا يا رسول الله يا رسول الله يا رسول الله فاضرب عنقى ان قدرت ثم قال لى هذا فراق بينى وبينك فان صحبتك تجرنى الى لقاء هؤلاء القوم وهرب ولم أره بعد ذلك فانظر الى الجهال الذين يسمون بالعلماء كيف يضللون العوام الجهال ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة ومن أوزار الذين يضلونهم بغير علم الاساء ما يزورون .

ملك الحجاز غير المتوج

هكذا كان يسمى السيد رشيد رضا رحمه الله عميد السلفيين فى الحجاز الشيخ محمد نصيف بارك الله فى حياته وقد كان فى تلك الايام المظلمة سراجا يضيء لمن ألهمه الله رشده طريق التوحيد واتباع السنة وكان بيته لا يخلو من الضيوف الواردين من جميع أنحاء الدنيا من أمراء البيت الهاشمى وبعد ذلك أمراء البيت السعودى الى فقراء الحجاج من أهل الهند هكذا وجدته سنة 1341 ولا يزال كذلك الى يومنا هذا ومناقبه لا يفى بها الا مؤلف خاص وهو أشهر من أن يعرف ومع أنه كان متهما بالوهابية كان موضع احترام واجلال من جميع الناس من الملك حسين وأبنائه الى الطبقة السفلى من العامة لانه من أشرف بيوتات الحجاز ولما آتاه الله من علو القدر والوجاهة والمهابة وللسخاء العظيم

الذى هو من أخص صفاته وفى الحديث السخى قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الناس بعيد من الجنة وما أحسن قول الشاعر .

تغطى بالسخا عن كل عيب فكم عيب يغطيه السخاء

وقال آخر :

احسن الى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الانسان احسان

ومع شدة عداوة الملك حسين لمن يسميهم بالوهابين كان يحجم عن الاساءة الى هذا الرجل الكريم الى أواخر أيام ملكه فقبض عليه ونفاه من الحجاز الى قبرص فسجن هنالك وعزم على قتله فانهالت عليه البرقيات من جميع أنحاء العالم تحذره من هذه الجريمة ومن جملة من حذره ابنه فيصل الاول وسائر أبنائه وبعد سجن دام أربعين يوما أطلق الله سراحه ليعود الى خدمة العلم والدين وأعمال البر وبناء المكرمات وقد طفت كيثرا من أنحاء العالم من المغرب الاقصى غربا الى كلكتا شرقا ووصلت من جهة الشمال الى الاراضى القطبية التى لا تغيب فيها الشمس مدة ثلاثة أشهر فما رأيت أحدا من العلماء والوجهاء منحه الله من خدمة العلم والعلماء وكرم الضيافة والبر والاحسان مثل ما لهذا الرجل فهو بدون منازع عميد السلفيين فى الحجاز بل وفى سائر أنحاء الدنيا فكم طبع من كتب السنة والتوحيد ووزع منها الاعداد الوافرة فى جميع أنحاء العالم وكم له من أياد بيض على أهل العلم والفضل الذين يردون منهله العذب من جميع أقطار العالم فى هذه المدة الطويلة فنسأل الله أن يبارك فى حياته ويزيده من فضله .

عبد الروف الصبان

من أفضل من لقيتهم من السلفيين الذين يوحدون الله ويتبعون رسوله صلى الله عليه وسلم السيد عبد الرؤف الصبان رحمه الله وكان مديرا لشركة دبغ الجلود فى مكة فقد أكرمنى وأنزلنى فى بيته وكنت مريضا فأخذنى الى الطبيب ولم يزل يرعانى ببره واحسانه الى أن انتقلت وأنا مريض الى جده فنزلت عند عميد السلفيين أطال الله بقاءه وكان يخدمنى بنفسه ويجبرنى على شرب الحليب الى أن شفيت ثم سعى لى فى الحصول على الركوب فى الباخرة مجانا الى بومباى فى الهند وفى تلك الايام التى كنت عند الشيخ عبد الرؤوف الصبان

عرض عليه الامير على بن الحسين أن يتخذه كاتبا له فأستشارني فنهيته فلم يقبل نصيحتي وصار كاتبا عند الاميرالمذكور وبعد مدة قصيرة وقعب الحرب بين الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود وبين الملك على بن الحسين بعد فرار أبيه الى قبرص فانهزم الملك على بن الحسين وخرج من مكة ورافقه كاتبه الشيخ عبد الرؤف الصبان وبقى منفيا معه سنين طويلة فى أثنائها لقيته فى بغداد فوجدته نادما على عدم قبول نصيحتى له .

السفر الى الهند

بعدما شفيت من مرضي عرضت على أبى مثواى السيد محمد نصيف رغبتي في السفر الى الهند للقاء علماء أهل الحديث فسعى لى بواسطة القائم مقام فى جدة السيد زينل فى الحصول على تذكرة سفر فى الباخرة مجانا من جدة الى بومباى وسافرت منها الى دهلي وكان الشيخ عبد الوهاب الدهلوى قد كتب لى كتاب توصية الى عمه الحاج عبد الغفار فى دهلى فضيفنى وأكرمني ولقيت النواب صدر الدين المدبر لشؤون مدرسة على جان ومسجده وكان عالما بالعربية وعلوم الدين فصيح اللسان بالتحدث بلغة الضاد وكان المتحدثون بفصاحة باللغة العربية في ذلك الزمان فى بلاد الهند فى غاية القلة فرحب بى واستحسن مقصدى وقال لى ان تجولك فى بلاد الهند للقاء العلماء والاطلاع على الكتب يحتاج الى أمرين ، أحدهما الدراهم ، والثانى اللغة ، وبدون هذين تتعب كثيرا ولا تحصل على طائل فأنا أقترح عليك أن تمكث عندنا هنا سنة نتعلم فيها شيئا من اللغة الهندية وتحصل على شيء من المال وفى أثنائها يستفيد من علمك تلامذة مدرستنا فان الطلبة عندنا يدرسون كتب التفسيروالحديث والادب العربى نظما ونثرا بالترجمة الهندية بلغة أردو من البداية الى النهاية ويتخرجون فى المدرسة (ولاتقل من المدرسة) ولم يقرع آذانهم كلام باللغة العربية فيعيشون بكما صما يعتمدون على ترجمة الكتب لا على الكتب نفسها فقبلت هذا الاقتراح وأقمت فى مدرسة على جان فأمر النواب صدر الدين المتقدمين فى العلم من الطلبة أن يحضروا دروسى فحضر عندى خمسة عشر طالبا لا يزال أحدهم بقيد الحياة معروف مكانه وهو الشيخ عبد الودود بن عبد التواب الملتانى وقد حج فى السنة الماضية عام 1390 ولقيته هنا بالمدينة .

حادثة عجيبة

قلت لاولئك الطلبة ماذا تريدون أن أدرسكم من كتب الادب فقالوا نريد ان تدرسنا ديوان المتنبى فبدأت أدرسهم ووجدت صعوبة فى افهامهم لانهم كما قال النواب صدر الدين لم يقرع آذانهم كلام عربى قط وبعد أربعة أيام وصلنا الى بيت من قصيدة للمتنبى يمدح بها سيف الدولة وكانت النسخة التى كنا نقرأ فيها مطبوعة فى دهلى وفيها أخطاء فوجدنا فيها البيت هكذا .

أناله الشرف الاعلى تقدمه فما الذى يتوقى ما أتى نال

ففكرت فى معنى الشطر الثانى من هذا البيت فلم أكد أفهمه فلما حضر الطلبة قلت لهم هذا الشطر لم أفهمه وأظن أنه محرف فأنكروا ذلك وقالوا (توبه أستغفر الله) وهاتان الكلمتان تستعملان فى لغتهم عند الغضب والانكار الشديد وقالوا لى ان هذه النسخة التى فى يدك درسنا بها مولانا عبد الرحمن النكرامى مرارا فلم يجد فيها خطأ فيا لله للعجب أنت عربى وأديب وتعجز عن فهم كلام المتنبى مع أن أقل الادباء علما عندنا يدرس ديوان المتنبى بدون مطالعة والآن ظهر لنا صدق ما قال استاذ الادب مولانا عبد الرحمن النكرامى فقلت لهم وماذا قال قالوا قال لنا اذهبوا الى النواب صدر الدين وقولوا له اننا لا نفهم كلام هذا المدرس العربى ولا حاجة لنا بتدريسه فقلنا له نحن نستحى من النواب أن نقول له ذلك فقال لنا اعلموا أن العرب فى هذا الزمان كلهم جهال لم يبق عندهم من العلم شىء وانما كان عندهم العلم فى زمان النبى صلى الله عليه وسلم وفى زمان السلف الصالح أما اليوم فلا علم عندهم أما ترونهم كل سنة يأتون من مكة والمدينة ويتكففون الناس فهل رأيتم منهم أحدا من أهل العلم؟ يضاف الى ذلك أن هذا العربى - يعنينى - شاب مجهول فى الهند لا يعرفه أحد وشهادته لا تنفعكم وأنا لا أعطيكم شهادة اذا تركتمونى ودرستم عنده فقلت لهم ان شئتم أن تحضروا درسى فاحضروا وان رأيتم أن درسى لا فائدة فيه فانصرفوا الى مولانا عبد الرحمن فانصرف أحد عشر منهم وبقى أربعة لا لانهم يعتقدون صحة ما قلت لهم من أن شطر البيت يمكن أن يكون محرفا بل فضلوا سماع الكلام العربى ولو من مدرس قليل العلم وكان أحدهم عبد الودود المذكور فذهبت الى النواب صدر الدين رحمه الله وذكرت

له ما وقع فقال لى أنا أعرف علمك وأعرف علم الشيخ عبد الرحمن النكرامى وقد أردت لهم الخير فان أبوا فذرهم فى ضلالهم وأرجو أن تبقى فى مكانك ولو لم يحضر عندك أحد منهم ، بقيت أربعة أيام أفكر فى معنى ذلك الشطر فلم أفهمه وقال لى أحد الاربعة الباقين ان الشيخ عبد الرحمن قال للطلبة ان هذا الشطر واضح يفهمه كل أحد حتى الحمار وقد رأيتم صدق ما قلته لكم وفى اليوم الخامس ذهبت الى الشيخ عبد الرحمن النكرامى رحمه الله وأمامه حلقة كبيرة من الطلبة فسلمت عليه فرد على السلام فقلت يا شيخ عبد الرحمن لم أفهم هذا الشطر وقد أخبرنى الطلبة أنك تفهمه فأفهمنى اياه فقال لى كلام لا معنى له فقلت له أعربه من فضلك فبالاعراب يتبين المعنى فقال ما موصولة والذى توكيد لها ويتوقى فعل مضارع فاعله ضمير مستتر تقديره هو يعود على الاعداء فى البيت قبله وما مفعول به وأتى فعل ماض وفاعله ضمير مستتر يعود على الممدوح ونال خطأ والصواب نالوا فقلت له اذا كانت ما موصولة يكون تقديرالكلام الذى الذىفقال وأى شيء فىذلك فقلت له وفاعل يتوقىاذا كان يعود على الاعداء لم يصح ذلك لان قياس النحو يقتضى أن يكون واوا فيقال يتوقون وليس عندنا ضمير مستتر تقديره هم الا فى نحو قولنا الرجال قائمون ففى قائمون ضمير مستتر تقديره هم أما الفعل فلا يقدر فيه من ضمائر الغيبة الا هو وهى فقال لى تريد أن تعترز يعنى تعترض على المتنبى أنك لا تستطيع ذلك فقد عكف أبو على الفارسى على ديوان المتنبى يبحث عن خطأ فلم يجده فقلت له أنا أريد أن أعترض ولكن أريد أن أفهم ومع ذلك فالمتنبى غير معصوم من الخطأ فقد عيب عليه أبيات منها قوله :

جفخت وهم لا يجفخون بها بهم شيم على الحسب الاغر دلائل

فيه التعقيد ، ومن ذلك قوله :

ان كان مثلك كان أو هو كائن فبرئت حينئذ من الاسلام

فيه الركاكة وقبح البراءة من الاسلام لامر مكذوب يريد به التملق ومن ذلك قوله :

فقلقلت بالهم الذى قلقل الحشا قلاقل هم كلهن قلا قل

فيه من الركاكة والثقل على اللسان بتكرار حرف القاف ما لا يخفى فأعرض عنى وقال للطالب الذى كان يقرأ عليه (تشالو) يعنى استأنف القراءة فأصابنى

من الغم ما الله به عليم ولـم أكن قبضت شيئا من المدرسة وما كان عندى الا أربع وعشرون روبية أى درهما هنديا فعزمت على شراء شرح ديوان المتنبـى للعكبرى لاعرف أين يكمن سر عدم فهمى لذلك الشطر أهو فى جهلى أم فـى الخطأ الواقع فى الطبعة الهندية فسألت أحد الطلبة عن لفظ السؤال عـن المطبع المجتبائى بلغة أردو فلقننى ايـاه فذهبت أسأل الى أن وصلت فسألت صاحبه عن شرح العكبرى لديوان المتنبى فقال لى النسخة الاخيرة اشتراها منى طالب من مدرسة كذا وكذا فذهبت الى تلك المدرسة ووجدت الطالب الذى اشترى النسخة فوجدت البيت هكذا :

أنا لـــه الشرف الاعـــلى تقـدمـــــه فما الـذى بتوقى ما أتـــى نالـوا

فظهر أننى كنت مصيبا وأن الشطر كان محرفـا والطامة الكبرى كانت فى زيادة نقطة بلفظ بتوقى الذى هو جار ومجرور فصار يتوقى فعلا مضارعا وظهر أن الشيخ عبد الرحمن لم يفهم منه شيئا فان (ما) التى زعم أنها موصولة ليست موصولة بل هى استفهامية ويتوقى الذى اخترع له فاعلا وجعله ضميرا مستترا تقديره هو ليس فعلا وانما هو جار ومجرور فنقلت البيت على الوجه الصواب ومـا قاله العكبرى فى شرحه ومعنى البيت (تقـدم سيف الدولة فى الحـــروب وهزيمته لاعدائـه أكسبه الشرف الاعلى فما الـذى ناله أعـــداؤه بتوقيهم واحجامهم عن فعل ما أتاه من ذلك ؟ الجـواب نالوا الخـزى والعار) فانطلقت الى الشيخ عبد الرحمن النكرامـى وهـو يدرس وكان لا يفتر عـن التدريس طول النهار فسلمت عليه فرد على السلام وقلت له أيها الشيخ انك قلت للطلبة ان هذا الشطر يفهمه كل أحد حتى الحمار وقد ظهر أنك لم تفهمه وناولته الصحيفة وقلت له اقرأ ما قاله العكبرى فى شرحه فقرأه ثم ناولنـــى الصحيفة وقال للطالب الذى كان يقرأ عليه (تشالو) فهجرته ثلاثة أيام وهجوته بقصيدة لا أريد أن أذكر منها هنا شيئا فكان خيرا منى لانه بعد ثلاثة أيـــام بدأنى بالسلام .

التجول فى الهند

بعدما مضت على وصولى الى دهلى ستة أشهر جاء شهر رمضان وهـــو وقت تعطيل فى مدارس أهل الحديث بالهند وكنت قد جمعت شيئا من المال وكانت عندى نسخة من عون المعبود شرح سنن أبى داود تأليف جماعة من

علماء أهل الحديث منهم شيخنا عبد الرحمن بن عبد الرحيم المبارك بورى كما أخبرني هو رحمه الله بذلك ولا تصح نسبته الى شخص واحد وان كان الشيخ شمس الحق العظيم آبادى هو الذى كان ينفق على أولئك الجماعة زمان تأليفه ويشاركهم فى العمل بعنه بسبع عشرة ربية فتوجهت من دهلى الى لكناؤ وفيها لقيت الشيخ محمد بن محسن اليمنى الانصارى فقرأت عليه أطرافا من الكتب الستة وأخذت عنه الاجازة فى جميع مروياته عن أبيه عن آل الاهدل ثم توجهت الى بنارس ولقيت فيها الاديب الشيخ عبد المجيد الحريرى الحاصل على شهادة ما جستير من جامعة على كر ففرح بى فرحا عظيما والتمس منى أن أبقى عنده ليستفيد من علمى وعرض على راتبا أكثر مما كنت آخذه فى مدرسة على جان وتكفل بجميع ما يلزمنى من السكنى والمعيشة فوعدته خيرا وتوجهت الى مدينة مو ولقيت العالم الجليل الشيخ محمد أحمد ومنها توجهت الى مبارك بور بقصد لقاء العالم الجليل الورع النبيل خاتمة المحققين فى تلك النواحى الشيخ عبد الرحمن بن عبد الرحيم المبارك بورىفأقمت عنده مدة يسيرة قرأت عليه فيهاأطرافا من الكتب الستة وثلاثيات البخارى وعاضت معه مواضع من كتابه القيم تحفة الاحوذى فى شرح جامع الترمذى والتمس منى أن أنظم قصيدة فى تقريظه فنظمتها وتركتها عنده فأدرجها فى آخر المجلد الرابع وكنت قد طبعت أربع قصائد فى دهلى سميتها الهاديات تقدمت احداها وهى الميمية التى مطلعها (من فاته المصطفى المختار من مضر الخ) ، وسأدرج هنا قصيدة أخرى منها فنقل شيخنا المذكور فى مقدمة تحفة الاحوذى احدى القصائد الاربع وهى تخميس قصيدة حميد القرطبى التى أنشدها القسطلانى فى مقدمة شرحه للبخارى ومطلعها :

نور الحديث مبين فادن واقتبس   واحد الركاب له نحو الرضى الندس

الا أنه لم يسمنى بل قال ، وقال بعض الاعلام مخمسا هذه القصيدة، ولقيت منه من الاكرام ما أعجز عن وصفه بل أسأل الله أن يكافأه على ذلك فى جنات عدن مع الذين أنعم الله عليهم مع أنى أدعو له فى كل صلاة ورأيت من زهده فى الدنيا وتواضعه وحسن خلقه ما يفوق الوصف فقد كان يقضى أوقاته كلها فى خدمة العلم تدريسا وتأليفا وافتاء ودعاه الدهلويون حين عزموا على تأسيس دار الحديث فى مكة شرفها الله الى أن يكون رئيسا فيها فأبى ودعاه

غيرهم من أصحاب المدارس فأبى وكان لا يعيش الا مما يكتسبه من العلاج لانه كان طبيبا حاذقا وكان لا يشتغل بالطب الا من بعد صلاة العصر الى المغرب وذكر مناقبه يفضي بى الى التطويل الذى يجعل طبع الكتاب صعبا ولكن لابد أن أذكر مكرمة له لا أستطيع تركها وذلك أنه حتم على فى تلك المدة أن لا آكل الا عنده ولما عزمت على السفر قال لى لا تسافر فى السكة الحديدية الى مدينة أعظم كرفان ذلك يشق عليك فهنا اثنان من أصحابنا يسافران على عربة تجرها الخيل فى وسط الليل فأردت أن أودعه فقال لى لابد أن أخرج لوداعك وأصر على ذلك فقام فى نصف الليل وذهب معى الى المكان الذى فيه العربة فوضع فى كفى قرطاسا وضم يدى عليه وقال لى أستودع الله دينك وأمانتك وخواتيم عملك زودك الله التقوى ويسر لك الخير أينما توجهت وظننت أن القرطاس ورقة مالية فوضعتها فى يده وضممتها وقلت له لست فى حاجة فأخذ بيدى الى أن بعدنا عن الرجلين وبكى بكاء شديدا وهو يقول اقبل منى اقبل منى فاقشعر جلدى وندمت على ما فعلت وقبلت تلك الورقة وتأثرت بما رأيته من بكائه حتى انى حين طلع الفجر صليت الصبح اماما بالرفيقين فبكيت كثيرا فى أثناء القراءة فالله يرحمه رحمة واسعة وهذه القصيدة التائية فى صفة رحلتى من المغرب الى الهند .

خليلى عوجابى الى كل ندوة ... بها قول خير الرسل يروى بقوة
ولا تقربا بى مجلس الرأى أنه ... ضلال يحط التابعية بهوة
على مجمع فيه كتاب الهنا ... يفسر تفسيرا بعلم وحكمة
لدى ثلة قد نور الله قلبهم ... وخصهم بالهدى أفضل نعمة
فصانوا كتاب الله جل جلاله ... عن اللغو والتحريف أسوأ بدعة
وردوا افتراء الخلف من ضل سعيهم ... وقد فرقوا من شؤمهم خير شرعة
وأصلوهم حرب الفرنج بهمة ... كسيف صقيل فى مضاء ولمعة
اليهم أجوب البر والبحر آويا ... لانظر من فازوا بنور ونظرة
وأقبس من أنوارهم علم سنة ... وذلك قصدى فى اغترابى وهجرتى
وأبعد عن أهل البدائع والخنا ... وأدرك روحا من عنائى وغربتى
وليس مرادى غربة البعد والنوى ... ولكنها فى الدين أعظم كربة

ولما أبان اللـــه لى نـور دينـــه وانقذنى مـن طـرق أصحاب خرفـة

أولئك قـوم بدلوا الدين بالـــردى وقـد مرقوا مـن هديه شـر مرقـة

وأبغضنى الاقوام حين نبذتهـــم وملـت الى قفـو الكتـاب وسنـــة

وقـــد قلبـوا ظهـر المجن وخشنت صدورهم لى واستعدوا لمحنتـى

وقد زعموا هجرى وشتمى قربـــة وكـــل جليس لى سيـردى بسرعـة

وقد جزمـوا أنـى أموت عـلى الردى وأخلد فى النيران من أجل رجعتـــى

أمانـى حمـق تضحك الثاكـل التى بواحدها سارت ركـاب المنيـــة

نبذتهم نبـذ النـوى وتركتهـم وهاجرت كى أحظى بسؤلى ومنيتـــى

ومـا لى ولى أو رفيـــق مصاحـــب ولا ناصـر الا الـــه البريـــة

عليه اعتمادى لا على أحد سوا ه فهـــو قديـر أن يجـود ببغيتـى

وما أطلب المال الذى هو زائل سوى بلغة لابد منها لخلتـــى

سفـرت الى مصـر لاخبـر خبرهـا وأنظـــر هـل فيها شفـاء لغلتـــى

ومن قبل قد أخبرت أن فـى ربوعها رجال لنصر الدين أصحاب شـــدة

وصلت فلم ألفى سوى أهل بدعـــة وشرك والحـــاد وشـــك وردة

سمعت بهـا الالحـاد يدرس جهـرة بجامعـة للشر مع كل فتنـــة

رأيت بها الاوثـان تعبد جهرة قبـورا عظامـا ناخـرات أجنت

ويدعون دون الله من لا يجيبهم وهم عن دعاء القوم فى عظم غفلـــة

لها جعلوا قسما بمال والـــدة فـلا عاش من قـد ظنهم أهل ملـــة

حشا ثلـــة مستضعفين رأيتم تسومهم الاعداء سوء الأذيـــة

وهـم صبـر مستمسكون بدينهـــم ويدعون ما اسطاعوا لبيضا نقية

وما صدهم ايذاؤهـم عن جهادهـــم لانهـم أهـل النفـوس الابيـــة

أقمت بهـا عامـا الى اللـه داعيـــا فأرشد رب الناس قومـا بدعوتـــى

يعـــدون بالآلاف بالريرمـون كلـــ ـــهم أهل اخلاص وأهل فتـــوة

ومن بعد ذا سافرت للحج راجيـــا قبولا من الله الكريم لحجتـــى

فأتممتـــه والحمـد للـه سائـلا من اللـــه يهدينى سـواء المحجـة

وكنا سمعنا أن بالهند فرقـــــة على السنة الغرا بصدق وحجـــة

فقلت عسى منشودتى عندهم تـــرى وهزتنى الأشواق أية هـــزة

بلغت فألفيـت المخبـر صادقـا وشاهدت سنات تجلت بعـــزة

قـد اخترت دهـلى للاقامة انهـا بلاد علوم الدين فيها تسنت
وقـد شفيت نفسـى وزال سقامهـا غداة رأت عينى مساجد سنـة
فلا تسمعن فيها سوى قال ربنـا وقال رسول الله خير البريـة
لقد مثلـوا خيـر القرون لناظـر بقـول وفعـل واجتهـاد ونيـة
امامهـم خيـر الائمـة كلهـم عليه من الرحمن أزكى تحيـة

تـمـت

السيد سليمان الندوي

السيد سليمان من أكابر علماء الهند ورؤسائهم فى ذلك الزمان وكان يدبر شؤون مؤسستين عظيمتين احداهما دار المصنفين التى أسسها هو بنفسه واختار نخبة من ذوى الكفاءة والمقدرة على تصنيف الكتب وطبعها ومن أهمها التاريخ الذى بدأ تأليفه استاذه الشيخ شبلى النعمانى واستمر هو فى تكميله وهو من أحسن كتب التاريخ حسب ما شهر بذلك عند علماء الهند وأنا لـم أقرأه لانه بلغة أردو ومعرفتى بها ضعيفة ، والمؤسسة الثانية كلية ندوة العلماء التى تخرج فيها هـو وغيره من الادباء والعلماء وقـد أسسها قبل ذلك بزمان طويل ثلاثون رجلا من كبار علماء الهند ووضعوا لها مناهج الدراسة ليتخرج فيها رجال قادرون على الدعوة الى دين الحق الاسلام ولا تزال هذه المؤسسـة سائرة فى طريقها الى الآن وعلماؤها حنفيون كأكثر علماء الهند وكان ساعـد السيد سليمان الايمن فى تدبير شؤونها الدكتور عبد العلى رحمة الله عليـه والذى يتولى تدبير شؤونها فى الوقت الحاضر هو تلميذى الاستاذ أبو الحسن على الندوى أخو الدكتور عبد العلى وهـو مشهور فى البلاد العربية بتآليفه وخطبـه التى ألقاها فـى أمهات البلدان العربية . أقمت عنـد السيد سليمان الندوى أياما كنت ضيفة فيها وأكرمنى غاية الاكرام ثم توجهت الى بهريا للقاء العالم الاديب الشاعر البليغ الشيخ عبد الحميد الفراهى وكانت له مدرسة كبيـرة يعلم فيها علـوم الاسلام واللغـة العربية ففرح بى وأكرمنى والتمس منى أن أكون مدرسا فى مدرسته وعرض على راتبا طيبا مع السكنى والمعيشة فاعتذرت له بأنى وعدت الشيخ عبد المجيد الحريرى فى بنارس أن أقيم عنده ثم سافرت

الى كلكتا وهى قاعدة بلاد بنكال ولقيت بهـا نابغة الهند فـى العلم والادب والسياسة أبا الكلام آزاد فرحب بى وبقيت فى ضيافته بالحاح منه خمسة عشر يوما وكان له كاتب اسمه عبد الـرزاق المليح آبادى هو الذى يحرر صحيفـة عربية كان ينشرها أبو الكلام فالتمس منى أبو الكلام أن أنشر فيها ما يتيسر من المقالات فنشرت فيها ثلاث مقالات فى أخبار البربر وأحوالهم ولغتهم وكان أبو الكلام لا يفرق بين البربر الذين هم أمـة عظيمة فى المغرب تمتد الاراضى التى يسكنونها من حدود مصر شرقا الى حدود سنغال غربا وتشتمل على ليبيا وتونس والجزائر والمغرب وموريتانيا كما تسمى هذه البلدان فى هذا الزمان لا يفرق بين هذه الامة وبين سكان بربرة فى السودان فأخبرته بالفروق الكثيرة التى بين الفريقين واهتم بذلك كثيرا ، فان قيل ان الناس فى المشرق العربى يعتقدون أن هذه البلدان عربية فكيف جعلتها بربرية فالجواب أن سكان هذه البلدان الاصليين هم البربر وقد نزح اليها العرب فى أول الفتح الاسلامـى وفى القرن السادس الهجرى كما فى مقدمة بن خلدون عند ذكر بنى هلال وبنى عامر وهؤلاء العرب النازحون عددهم قليل جدا بالنسبة الى السكان الاصليين ولكن الاسلام وحد بينهم وجعلهم أمة واحدة لا فضل لاحد الفريقين على غيره الا بتقوى الله وبطول الزمان انتشرت اللغة العربية فى هذه البلدان فصارت أكثر الحواضر تتكلم بها وعلى هذا يصح أن نسميهم عربا مستعربة ولكـن الى هذه الساعة لا يزال نحو نصف سكان هذه البلدان يتكلمون بالبربرية والخطب فى ذلك سهل فان البربر من الشعوب التى خرجت من جزيرة العرب قبل زمان سحيق فى القدم ونحن معشر طلبة علم اللغات لانشك فى ذلك كما أن الواحد نصف الاثنين ولذكر الادلة على ذلك مقام آخر ، وكان عبد الرزاق المليح آبادى زنديقا وكان يعظم جمال الدين الافغانى ويزعم أنه كان ملحدا ولا يعظم رفيقه محمد عبده ولا صاحبه السيد رشيد رضا لانهما بزعمه لم يفهما فلسفته لانها أعلى من مستواهما وقد جادلته فى ذلك وكثير من الناس فى هذا الزمان يرون هذا الرأى ولكن أقرب الناس اليه محمد عبده ورشيد رضا يشهدان بأنه مؤمن وكتبه التى ألفها وخصوصا رسالته فى الرد على الدهرية لا تبقى شكا فى أنه كان من المؤمنين ومن أعجب ما سمعته مـن عبد الرزاق المليح آبادى أننا كنا نتجادل فى تارك الصلاة أهو مسلم أم كافر واستعرضنا أدلة العلماء وخلافهم

في ذلك فقال لى عندى دليل قاطع لا يعرفه العلماء الذيـن ذكرت على أن تارك الصلاة مؤمن فقلت وما هو فقال لى هو أنا لاننى لا أصلى ومع ذلك لا أشك فى أننى مسلم ، ثـم رجعت الى بنارس وأقمت عند الشيخ عبد المجيد الحريرى ضيفا مكرما واستاذا محترما مدة ثلاثة أشهر ثم سافرت الى عظيم آباد ولقيت الشيخ ادريس بن شمس الحق فأطلعنى على خزانة كتب والده وأكرمنى وزرت خزانة كتب خدا بخش بتلك المدينة فرأيت فى الخزانتين كتبا نفيسة منهـا كتاب الاستذكار شرح الموطأ لابن عبد البر ومنها كتاب الاحكام الكبرى لعبـد الحق الاشبيلى ثم سافرت الى لكناو ونزلت عند الشيخ خليل بن محمد بن حسين بن محسن الحديدى الانصارى اليمنى ففرح بى وأكرمنى وأخبرته بأنى أريـد لقاء والده الشيخ محمد حسين فى بهوبال فكتب الى والده بذلك فأجابه بأنه يستحسن أن أنزل فى ضيافة ملكة بهوبال وقصد بذلك اكرامى فقال لى الشيخ خليل ابعث برقية الى الكولونيل عبد القيوم أمير الضيافة فبعثتها اليه وركبت القطار فى الدرجة الثالثة التى كنت دائما أسافر فيها لان أجرة الركوب فيها رخيصة ولو ركبت الدرجة الثانية لما أمكننى أن أرى الا قليلا من البلدان وأنا شاب لا يهمنى تحمل المشقة فلما وصل القطار الى محطة بهوبال كانت سيارة ملكية تنتظرنى أمام عربات الدرجة الثانية فلـم يجدنى فيها الكولونيل عبد القيوم فبحث عنى فوجدنى من ركاب الدرجة الثالثة فرحب بى وركبت السيارة الملكية ووصلت الى دار الضيافة ووجدت أثاثها فى غاية الفخامة والزينة ثـــم توجهت الى شيخنا محمد بن حسين بن محسن فى بيته ففرح بى كثيرا وبدأت أذاكره فى علم الحديث وكنت ألازمه فى كل وقت الا فى أوقات الطعام فانـى كنت أذهب الى دار الضيافة وأقمت على ذلك خمسة أيام وعينت لى الملكة يوما لزيارتها وقبل ذلك اليوم بيوم واحد جاءنى الكولونيل عبد القيوم فقال لى ان الملكة تسلم عليك وتعتذر عما وعدت به من اللقاء وقد أمرتنى أن أنقلك من دار الضيافة الى بيتى وأكون فى خدمتك مدة اقامتك فى بهوبال فقلت له أمهلنـى حتى أخبر بهذا شيخنا محمد بن حسين فركبت معه السيارة الى بيته فوجدته قد عرف الخبر وقال لى انى حين طلبت من الملكة أن تكون ضيفها لم أفعل ذلك بخلا ولا عجزا وانما أردت اكرامك واكرام العلم الذى أنت طالبه ولكن أعداءنا من متعصبة الحنيفة ذهبوا الى الملكة وقالوا لها ان هذا الرجل العربى الذى فـى

ضيافتك ليس من سكان جزيرة العرب بل هو مغربى ومن الشروط التى شرطها عليك الانكليز أن لا تجتمعى بأى شخص ينتمى الى دولة أجنبية ولا يخفى عليك أن المغرب تابع للدولة الفرنسية ففى لقائه خطـر عليك وقال الشيخ للكونيل عبد القيوم جزاك الله خيرا على استعدادك لضيافة محمد تقى الدين الهلالى وجزى الله الملكة خيرا على قصدها الحسن واكرامها لاهـل العلم وجزى الله الوشاة شرا فهذا الرجل محمد تقى الدين طالب علم لا علاقة له بأى دولة الا أن بلـده المغرب تسلطت عليه دولة أجنبية ففرضت عليه حمايتها كما فرضت بريطانية حمايتها على بهوبال وبقيت عنده خمسة عشر يوما ثـم سافرت قافلا الى لكناؤ فزرت خزانـة كتب الشيخ عبد الحى اللكناوى العالـم الحنفى المشهـور ذى التآليف الكثيرة فى الحديث والفقه باللغة العربية فوجدت فيها كنزين ثمينين أحدهما خمسة أسفار من مصنف ابن أبى شيبة وأول ما وقع بصرى فيه عليه حديث موقوف رواه ابن أبى شيبة بسنده الى على بن أبى طالب رضى الله عنه أنه سئل عن الخوارج أكفارهم فقال لا من الكفر فروا والكنز الثانى هو كتاب التقاسيم المعروف بصحيح ابن حبان وكلا الكتابين لم يطبع الى الآن فيما علمت ومن لكناؤ سافرت الى دهلى ثم الى بومباى بقصد الرجوع الى المغرب مارا بالعراق فالشام فمصر ووصلت الى مدينة بومباى فنزلت عند العالم الصالح الشيـخ شرف الدين الكتبى رحمة الله عليه وأقمت فى بومباى شهرين دخلت فى أثنائها المستشفى وأجرى لى عمل جراحـى غير ناجح فى عينى اليسرى وكان الشيخ شرف الدين رحمه الله فى تلك المدة يغمرنى ببره واحسانه .

لقاء الشيخ مصطفى آل ابراهيم

بينما أنا جالس فى مكتب الشيخ شرف الدين رحمه الله اذا بشاب أقبل فى سيارة فخمة وكانت السيارة فى ذلك الزمان قليلة ودخل المكتب وعليه بزة فاخرة من الثياب وروائح العطر تفوح منه وهو شاب فى الثانية والعشرين من عمره فقام له الحاضرون كلهم وعظموه وتنافسوا فى التقرب اليه واطلاعه على ما طبع حديثا من الكتب أما أنا فبقيت جالسا على كرسى أطالع فى كتاب ولم أعبأ بمجيئه فلما جلس واطلع على ما جد من الكتب سأل الشيخ شرف الديـن وكان يعلمه الادب العربى عن قوله تعالى وامرأته حمالة الحطب على أى شيء

نصبت حمالة مع أن الظاهر يقتضي أن تكون مرفوعة لانها صفة لامرأته فقال الشيخ شرف الدين أنا لا أجيبك بحضور الاستاذ محمد تقى الدين الهلالى لانه أعلم منى بالجواب فحينئذ سلم على الشيخ مصطفى وسألنى عن حالى وبلدى فأخبرته أنى من المغرب فقال لى ما تقول فى جواب السؤال الذى سمعت فقلت له هذه الكلمة ترفع وتنصب ورفعها ونصبها قراءتان سبعيتان أما الرفع فواضح وأما النصب فبفعل محذوف وجوبا تقديره أذم فطلب تفسير البيضاوى فوجد الامر كما ذكرت له فأعجبه ذلك واستمر يسألنى عن مسائل مختلفة مدة ساعة ثم قال للشيخ شرف الدين أتريد أن تركب معى لاوصلك الى بيتك قال نعم وفى صباح الغد قال لى الشيخ شرف الدين ان ذلك الشاب الذى كان هنا أمس سألنى عنك فأخبرته أنك تريد السفر الى العراق ثم الى الشام ثم الى مصر ولكن السفارة الانكليزية رفضت اعطاءك سمة الدخول للعراق لان بريطانيا كانت فى ذلك الوقت فى نزاع مع الحكومة التركية على لواء الموصل فكانت لا تأذن لاحد فى زيارة العراق الا اذا كان معروفا عندها بولائه لها فقال له الشيخ مصطفى قل له أنا أستطيع أن آخذه الى العراق بدون جواز فان شاء أن يقيم عندنا بالبصرة لنستفيد من علمه فذلك ما نبغى وان أراد السفر الى الشام أو مصر سهلت له طريقه الى أن يصل الى مقصوده فقلت للشيخ شرف الدين أنا موافق كل الموافقة وبعد ذلك ببضعة أيام كنت سائرا فى أحد شوارع بومباى يرافقنى عبد الله بن قاضى شقراء وهى بلدة مشهورة فى نجد فمر بنا الشيخ مصطفى آل ابراهيم فى سيارته فوقف ونزل من السيارة وأقبل علي وصافحنى وسأل عن الحال ببشاشة وقال لى هل أخبرك الشيخ شرف الدين بما اقترحت عليك فقلت نعم وأنا موافق على ذلك فعين لى يوم السفر وقال لى فى صباح اليوم الفلانى أجدك فى مكتب الشيخ شرف الدين ثم رجع الى سيارته وركبها فقال لى عبد الله يا عجبا كيف عظمك الشيخ مصطفى آل ابراهيم كل هذا التعظيم وعندنا هنا الشيخ عبد الرحمن القصيبى وهو مثله فى الغنى والجاه لو رأى وهو فى سيارته عالما من علماء نجد ثم دعاه ليكلمه وهو جالس فى سيارته لاقبل ذلك العالم يسعى اليه فرحا مسرورا فحكيت له قصة لقائى للشيخ مصطفى وأننى حين جاء لم أقم له ولم أهتم به فلذلك عظمنى وقلت له ان من عادتى أن لا أعظم غنيا الا اذا كنت أستفيد من غناه بخلاف ما عليه أكثر

الناس الذين يعظمون الاغنياء وان كانوا يعلمون أنهم لا ينفعونهم بشيء كما قال ابن دريد فى المقصورة .

عبيد ذى المال وان لم يطمعوا من ماله فى شربة تروى الصدى

وقال غيره :

ان الغنى اذا تكلم بالخطا قالوا أصبت وصدقوا ما قالا
واذا الفقير أصاب قالوا كلهم أخطأت يا هذا وقلت ضلالا
ان الدراهم فى الاماكن كلها تكسو الرجال مهابة وجمالا
فهى اللسان لمن أراد فصاحة وهى السلاح لمن أراد قتالا

وقال غيره :

يمشى الفقير وكل شيء ضده والناس تغلق دونه أبوابها
وتراه ممقوتا وليس بمذنب ويرى العداوة لا يرى أسبابها
حتى الكلاب اذا رأت ذا غنية أصغت اليه وحركت أذنابها
واذا رأت يوما فقيرا ماشيا نبحت عليه وكشرت أنيابها

وأقوال الشعراء فى هذا المعنى كثيرة أكتفى بهذا القدر .

السفر الى العراق فى الباخرة

لما حان وقت السفر جاءنى الشيخ مصطفى فتوجهنا الى المرسى لنركب الباخرة الى البصرة فقال لى ان عندى سبعة من الخدام وقد بعثت أحدهم مع السفن الشراعية التى لا يحتاج راكبها الى جواز فاذا صعدت سلم الباخرة وسألك الانكليزى ما اسمك فقل اسمى حسن الحنيان فقلت له عفوا أنا لا أكذب فضحك كثيرا وقال لى أنت عربى تريد أن تسافر الى بلد عربى وقد منعك الانكليز من حقك فأى حرج عليك اذا كذبت عليهم لتتوصل الى حقك فقلت له لم ينشرح صدرى لذلك فقال لى هل تستطيع أن تسكت اذا سألك الانكليزى فقلت نعم فقال اذا سألك الانكليزى فاسكت وأنا أجيب عنك فلما صعدنا السلم تقدم هو وآنا خلفه فسألنى الانكليزى ايش اسمك فسكت فقال الشيخ مصطفى اسمه حسن الحنيان فدخلت الباخرة وفى مساء ذلك اليوم قال لى هل قلت شعرا فقلت نعم فقال لى هل تستطيع أن تشطر هذه القصيدة وهى لشوقى مطلعها .

خدعوها بقولهم حسناء والغوانى يغرهن الثناء

فأعطانى القصيدة مكتوبة فانصرفت الى منزلى وشطرتها فى تلك الليلة وسأدرجها مع التشطير هنا لانى أشعر أن بعض قراء هذا الكتاب ان لم نقل كلهم ، يحبون الاطلاع عليها والشطور المزيدة بين قوسين ونصها .

خدعوها بقولهم حسناء (وامتداح الكواعب استهواء)
(فرنت للوصول بعد نفور) والغوانى يغرهن الثناء
ما تراها تناست اسمى لما (ان تغانت فى حبها العظماء)
(والتناسى شأن الخريد اذ ما) كثرت فى غرامها الاسماء
ان رأتنى تصدعنى كأن لم (يلف لى فى فؤادها استيلاء)
(لا شفانى وصالها اليوم ان لم) يك بينى وبينها أشياء
نظرة فابتسامة فسلام (لفؤادى العليل هو الشفاء)
(ثم رد فبث شكوى بعاد) فكلام فموعد فلقاء
يوم كنا ولا تسل كيف كنا (لا وشاة تخشى ولا رقباء)
(فخلعنا العذار ثم جعلنا) نتهادى من الهوى ما نشاء
وعلينا من العفاف رقيب (أن تدنس وصلنا فحشاء)
(يقظ ليس يعتريه منام) تعبت فى مراسه الاهواء
جاذ بتنى ثوب العصى وقالت (وعلى وجهها بدا استحياء)
(لكم ذلت الصعاب جميعا) أنتم الناس أيها الشعراء
فاتقوا الله فى خداع العذارى (فلكم فى اصطيادهن دهاء)
(لا تصيدوا الابكار بالشعر ختلا) فالعذارى قلوبهن هواء

وقد سهل على تشطير جميع أبيات القصيدة الا بيتا واحدا وهو قوله ، نظرة فابتسامة فسلام ، فكلام فموعد فلقاء ، فان هذا البيت تظمن أمورا ستة لا يمكن الفصل بينها لان بعضها فى الواقع مترتب على بعض ولم أكن أفهم ذلك حتى سافرت الى أوروبا وأقمت فيها مدة فرأيت ذلك واقعا كل يوم فى المنتزهات والمطاعم والمقاهى والشوارع والمركبات العامة وقطر سكك الحديد لان العفاف عندهم معدوم فأول ما يتقابل رجل وامرأة فيحدق بعضهما فى بعض ان كانت المرأة لا رغبة لها فى الرجل تصرف بصرها وان كانت لها فيه رغبة

تبتسم له فيتجرأ هو حينئذ على أن يحييها فترد عليه فيبدأ الكلام حتى ينتهى الى الموعد باعطاء كل منهما رقم تليفون صاحبه فيعقب ذلك اللقاء ولا يكــون اللقاء كما قال شوقى فى قصيدته لان المتحابين هناك لا رقيب عليهم من عفاف ولا من غيره ومن المعلوم أن شوقى درس فى فرنسة وشاهد ذلك بعينه فعبــر عنه بذلك البيت ومن المزايا التى يختص بها شعر شوقى أنه جمع بين الافكار الاوروبية والافكار العربية ونسق هذه الافكار كلها ووحدها حتى امتزجت الى حد أنه لا يستطيع التمييز بينها الا من خالط العالم العربى والعالم الاوروبى هذا مع المحافظة التامة على الاسلوب العربى البليغ الذى لا تشوبه شائبة مــن ركاكة المقتبسات الاعجمية واذا قارنت بين شعر أحمد شوقى وبين شعـــــر معروف الرصافى وهو لا يقل عن شوقى فى بلاغة شعره تجد الفرق بينهمـــا واضحا فان شعر الرصافى ليس فيه الا أفكار عربية شرقية بخلاف شعر معاصره أحمد شوقـــــى .

الوصول الى الدورة

لما وصلت الباخرة فــى النهر المسمى شــط العرب وهــو مؤلف دجلة والفرات الى مكان بازاء ممتلكات الشيخ مصطفى آل ابراهيم وهى كثيرة ممتدة على الجانب الايمن مــن شط العرب أميالا كثيــرة طلب من ربان الباخرة أن يوقف له الباخرة لينزل هو وأصحابه ويركب قاربا يوصله الى قصره فـــى الدورة فقبل الربان الانكليزى احتراما له لانه كان يعامل معاملة الامراء لانـــه كان من كبار الملاكين فنزلنا فى قوارب وسارت بنا الى الدورة فلما وصلت القوارب الى فرع شط العرب الذى يوصل الى الدورة وجدنا أهل القرية كلهم فى استقبال الشيخ مصطفى وكان الطريق ضيقا بين البساتين والنهر فقدمنى أمامه فأردت الامتناع فأشار الى اشارة فقبلت وسار هو خلفى وأهل القرية كلهم خلفه وتعجبت من ذلك كثيرا لاننى شاهدت هــذا المنظر لاول مرة فان العادة عندنا فى المغرب قلما تجرى بذلك فلما وصلنا الى القرية قدمنى أيضا فى التوجه الى المقصورة التى وضعت فيها الاطعمة فلما صلينا العصر سألته عن ذلك فقال لى أنا لا أبقى هنا دائما فانى تارة أكون هنا وتارة أسافر الى بومباى لاكــون عند عمــى قاسمى آل ابراهيم وهو من تجار اللؤلؤ المشهورين ، وانما قدمتك

ليرى ذلك أهل القرية فيعظموك فى غيبتى وحضورى ويعلموا أنك أستاذى فشكرته على ذلك وعرض على الاقامة عنده فقبلت وجعل لى راتبا طيبا جدا مع السكنى والمعيشة على أحسن وجه وأخذت ألقى دروسا فى علم الادب عليه وعلى جماعة من الطلبة وأعلم الشباب فى مدرسة أنشأها وألقى دروس وعظ فى المسجد ولما توجهنا الى المسجد للصلاة قال للامام والمؤذن كل ما أمركما به الاستاذ محمد تقى الدين الهلالى فامتثلاه فمنعتهم من جميع البدع وأمرت الناس باتباع السنة ومنها الصاق القدم بالقدم عند القيام للصلاة فامتثل الناس الامر الا رجلا شيخا من أقاربه كان فيما مضى وكيلا لوالده الشيخ يوسف آل ابراهيم على تلك القرية يدبر أمر الحواصل من الغلات فيعطى الفلاحين حقوقهم والباقى يكون بيده يأخذ منه نفقة (السركار وهى كلمة هندية) معناها رأس العمل والمقصود بها هنا النفقات العامة لمن فى القصر من العيال والخدم والضيوف وما فضل عن ذلك يبقى بيده فهذا الرجل لم يقبل ما أمرتهم به من اتباع السنة وبدأ يحاربنى فمن ذلك أننى أمرتهم بأن يجعل المؤذن بين أذانه واقامته وقتا كافيا لمجيء المصلين واستعدادهم للصلاة وكانت العادة جارية عندهم بأن المؤذن اذا نزل من أذان المغرب يقيم الصلاة فى الحين فلما رأى ذلك الشيخ المؤذن أذن لصلاة المغرب وجلس ينتظر أن آمره بالاقامة لانى اذا حضرت كنت أتقدم اماما للصلاة بهم غضب غضبا شديدا وقال لى يا شيخ المغرب غريب وقته ضيق فقلت له ليس الامر كما توهمت والوقت هو واسع وفى الصحيحين عن ابن عباس ان النبى صلى الله عليه وسلم صلى الظهر والعصر فى أول وقت العصر ثمانى ركعات جمع تأخير وصلى المغرب والعشاء فى أول وقت العشاء سبع ركعات جمع تأخير هذا معنى الحديث فقيل لابن عباس ما أراد بذلك قال أراد أن لا يحرج أمته على أننا نحن لا نؤخر الصلاة الا بضع دقائق ، وأخرج الترمذى والحاكم عن جابر وله شواهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال اذا أذنت فترسل واذا أقمت فاحدر واجعل بين أذانك واقامتك مقدار ما يفرغ الآكل من أكله وهذا الحديث وان كانت طرقه ضعيفة فانها بتعددها تنهض حجة قال شارح بلوغ المرام ويقويها المعنى الذى شرع له الاذان فانه نداء لغير الحاضرين ليحضروا الصلاة فلابد من تقدير وقت يتسع للتأهب للصلاة ، فقال لى لا حول ولا غوة الا بالله وهو يتكلم بلغة عامة أهل الكويت يبدلون القاف غينا هذه

صلاة سعودية لا فرض ولا نية الا الخوف من الخيزرانية فقلت له بل هى صلاة محمدية ذات قصد ونية والمتبعون للرسول صلى الله عليه وسلم لا يحتاجون الى خيزرانية وغيرهم لا نبالى بهم فقال لى يا غريب كن أديب فقلت له أنا لست غريبا لانني عربى فى بلاد العرب وان كان أسلافى قد نزحوا الى المغرب فان حقى لا يزال ثابتا فى بلادى الاصلية فقال لى روح الى المغاربة واهدهم فقلت له هذه دعوى جاهلية فان الله تعالى لم يقل ذلك بل قال لنبيه صلى الله عليه وسلم «قل هذه سبيلى أدعو الى الله على بصيرة أنا ومن اتبعن» ولم يحدد المدعوة زمانا ولا مكانا ولما أمرتهم بالصاق القدم بالقدم كما فى حديث أنس كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمرنا بتسوية الصفوف فكان أحدنا يلزق قدمه بقدم من يليه ويحاذيه بركبتيه ومنكبيه ولو فعلت ذلك بأحدهم اليوم لنفر كأنه بغل شموس فكان الناس يمتثلون ويلصقون القدم بالقدم وكان ذلك الشيخ اذا أراد أحد أن يلصق قدمه بقدمه رفسه بقدمه وسبه وقال لى مرة ان النبى صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن يأمر بهذا لان الرجل اذا ألصق قدميه بقدم من يليه يفحش ويدش الشيطان فى دبره فقلت له هذا خيال باطل فكيف ترد به سنة النبى صلى الله عليه وسلم وقوله يفحش يعنى يتسع ما بين قدميه ويدش بمعنى يدخل وقلت له ان الشيطان ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون انما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون كما قال الله تعالى فى سورة النحل ، وكنت أصلى بهم الجمعة فأزلت البدع التى كانوا يعملونها فى يوم الجمعة فغضب الشيخ غضبا شديدا وقال هذا تبديل للدين من يوم خلقنا الله لم نزل نرى العلماء ما رأينا أحدا منهم أنكر هذه الامور فقلت له ان العلماء يخطئون ويصيبون ويمنعهم الجبن فى بعض الاحيان والضعف والعجز فى أحيان أخرى من انكار البدع ولما جاءت صلاة العصر وذهبت أتقدم للصلاة اماما أخذ بطرف عباءتى وقال لى ، (ما حد يبيك) معناه لايريد أحد أن تصلى اماما فوضع الشيخ مصطفى يده برفق على يد الشيخ وقال له يا سيدى الوالد أرجوك أن تتركه يصلى فقال كذا يا مصطفى تفضل المغربى على والدك أو قال على أبيك فقال الشيخ مصطفى لا يسيدى أنا ما فضلته ولكن الله فضله لانه عالم ونحن جهال فقال الشيخ (زين على شان خاطرك أخليه يصلى) معناه سأتركه يصلى اماما ارضاء لك ولم يكن عند أولئك القوم

شرك ظاهر أعنى أهل السنة منهم وهم قليل وأكثر سكان القرية من الشيعة ولكن كان فيهم جمود على التقليد والتعصب للمذهب مع جهلهم فالمتعصبون للمالكية غضبوا بسبب تركى القنوت فى صلاة الصبح والمؤذن كان شافعيا فلما رآنى قررت فى الدرس أن ابول ما يؤكل لحمه طاهر غضب وقال فى غيبتى اذا كان بول البقرة عنده طاهر فليشربه فقلت له فى أثناء الدرس ياملا أحمد والملا ، كلمة فارسية يوصف بها أهل العلم كالفقيه عند العرب أو الشيخ قلت له ما حكم المخاط فى مذهبك أهو طاهر أم نجس فقال طاهر ثم قلت له ما حكم الاوساخ طاهرة أم نجسة قال طاهرة فقلت له فاشرب المخاط وكل الاوساخ فقال لى يا شيخ لا يليق بمثلك أن يخاطب أحدا بمثل هذا الكلام فلقت له أنت بدأت بما هو أقبح من هذا والبادىء أظلم وجزاء سيئة سيئة مثلها وأنا تكلمت بالعلم وأنت تكلمت بالجهل وذكرت الادلة على طهارة ما يؤكل لحمه .

مناظرة بين المؤلف وبين مجتهد الشيعة فى المحمرة

لما استقررت فى الدورة أردت أن أجتمع مع بعض علماء الشيعة بعدما قرأت شيئا من كتبهم ووجدت فيها عجائب وغرائب فاتفقت مع أحد الفلاحين وهو الحاج غلام حسين ومعنى غلام حسين أى عبد الحسين والشيعة يسمون عبد على وكلب على وعبد الزهراء وعبد الامير وأمثال ذلك من الاسماء الشركية ومن أغرب ما وقع لى فى ذلك أننى سافرت من جدة الى بومباى كما تقدم ورأيت الحجاج يقتتلون على الماء فاستجرت شابا فارسيا يأتينى بالماء من مستقى الباخرة من جدة الى بومباى بربيتين أى درهمين هنديين اسم ذلك الشاب عبد على فكنت أتجاهل اسمه وأناديه يا عبد العلى فيغضب ويقول (عبد العلى نا) ونا بالفارسية هى حرف النفى ترادف لا بالعربية ثم يكرر عبد على عبد على فاذا نسبته الى الله العلى يغضب ويريد أن ينسب الى العبد وهو على : سافر معى غلام حسين الى المحمرة وهى على الجانب الشرقى من شط العرب وقد انتزعتها الدولة الفارسية التى تسمى فى هذا الزمان ايران من الامير الشيخ خزعل الذى كان يحكم تلك الناحية وسكانها عرب من بنى تميم وألحقتها بمملكتها فقلت لغلام حسين اخترلى عالما من علمائكم أزوره لا يكون متعصبا فقال لى أفضل علمائنا فى هذا

البلد هو الشيخ عبد المحسن الكاظمى فقصدناه فى الحسينية والحسينية مبنى للشيعة يجتمعون فيه لقراءة قصة مقتل الحسين رضى اللــه عنه وقصة حرب على مــع عائشة وطلحة والزبير فى وقعــة الجمل وكان ذلك اليوم يوم جمعة وهذا الشيخ من الاثنا عشرية الاخباريين فان الاثنا عشرية فرقتان فرقة اخبارية وفرقــة أصولية فالاخبارية يعتمدون على مــا روى من الاخبار وان كان مخالفا للقياس والاصول وآراء فقهائهم ، والاصولية بعكسهم يعرضون المرويات عــلى الاصول والاخباريون يصلون الجمعة والجماعة خلاف الاصوليين فانهم لا يصلون جمعة ولا جماعة فلما دخلت على الشيخ عبد المحسن قام لى وصافحنى وأجلسنى بقربه وكان الحاضرون كثيرا يقــدر عددهم بثلاثمائة فقال أحدهم للروضخون وهم ينطقون بالضاد زايا والروضخون هو الذى يقرأ لهم قصة الحسين وقصة عائشة مع على قال له عجل بقراءة القصتين نريد أن نسمع كلام العالمين لانهم من عادتهم أن يقرؤا القصتين فى ضحى يوم الجمعة وحثه عــلى أن لا يطــول وسيتبين لك مقصوده بذلك فصعد الروضخون المنبر وبدأ يقرأ فى قصة الحسين فلما بلغ مقتله وما صنع به أعداؤه وضعوا طيا لسهم على وجوههم وأخــذوا يبكون ويتباكون رافعين أصواتهم وا حسيناه وا أبا عبد اللــه والظاهــر أن بكاءهم كان كاذبا وانما هو تصنع لان هذه القصة يسمعونها فى كل أسبوع مرارا فقلما تؤثر فيهم ولما فرغ من قصة الحسين شرع فى قصة عائشة وذكر أنها بعثت رسولها الى البصرة الى على وقالت له انه سيعرض عليك طعامــه وشرابه فاياك أن تأكل من طعامه أو تشرب من شرابه فان فيه السم فلما سمع ذلك الحاضرون قالوا بصوت عال ونغمة تدل على الحقد (لا يا ملعونة) وأخذوا يكررونها فى كل فقرة يسمعونها فاستعجل بعض الحاضرين الروضخون وقال له اختتم نريد أن نسمع كلام العالمين فغضب الروضخون وقال قد اختصرت القصتين وما ذكرت الا ربعهما ولما فرغ القاص أخذت أتحدث مع الشيخ بالحديث التالى : حسب ما بقى فى ذاكرتى فقد مضى على هذه القصة زهاء 48 سنة فانها كانت سنة 1343 سألت الشيخ ما أهم كتب الحديث عندكم فذكر لى أربعة كتب لا أذكر الآن منها الا كتاب الكليني وأثنى عليه وقال كل أحاديثه صحيحــة فهو عندنا بمنزلة ... ثم سكت وأخذ يفكر فقلت لعلك تقصد البخارى عندنا فقال نعم هو عندنا بمنزلة البخارى عندكم والبحث فى صحة الحديث وضعفه

فى هـذا الزمان عبث ، لان الاحاديث الصحيحة معلومة يقينا فقلت له وكيف تعرف صحتها يقينا فقال لى تعرف بنص الائمة المعصومين على صحتها ثم قال دونك حديثا متواترا عندنا وعندكم فقلت لـه قل فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنا مدينة العلم وعلى بابها فقلت له أما عندنا فليس هذا الحديث صحيحا ولا حسنا عند المحققين فضلا عن أن يكون متواترا وانما هـو حـديث ضعيف ، هكذا قلت له من حفظى والآن أثبت ما قاله الائمة فى هذا الحديث قال السخاوى فى المقاصد الحسنة ص 97 ، ما نصه باختصار أنا مدينة العلم وعلى بابها رواه الحاكم فى المناقب من مستدركه والطبرانى فى معجمه الكبير وأبو الشيخ فى السنة وغيرهم كلهم من حديث أبى معاوية الضرير عن الاعمش عن مجاهد عن ابن عباس مرفوعا به بزيادة فمن أتى العلم فليأت الباب ورواه الترمذى فى المناقب من جامعه وأبو نعيم فى الحلية وغيرهما من حديث على أن النبى صلى الله عليه وسلم قال أنا دار الحكمة وعلى بابها ، قال الدارقطنى فى العلل عقب ثانيهما (يعنى حديث الترمذى) أنه حديث مضطرب غيـــر ثابت وقال الترمذى أنه منكر وكذا قال شيخه البخارى وقال انه ليس لـه وجه صحيح وقال ابن معين فيما حكاه الخطيب فى تاريخ بغداد أنه كذب لا أصل له ، وقال الحاكم عقب أولهما أنه صحيح الاسناد وأورده ابن الجوزى من هذين الوجهين فى الموضوعات ووافقه الذهبى وغيره على ذلك وأشار الى هذا ابـن دقيق العيد بقوله ، هذا الحديث لم يثبتوه ، وقيل انه باطل ، ثم قلت لـه : وعـلى فـرض ثبوتـه فان أريـد أن هـــذه المديـنـة لـهـا أبـــواب كثيرة وعـلى من أفضل أبـوابها فهو صحيـح وان أريـد أن هذه المدينة ليس لها الا باب واحد وهو على فهذا باطل يكذبه القرءان والواقـع ولا يختلف فيه العقلاء لان النبى صلى الله عليه وسلم حين بعث كان على صغيرا دون البلوغ فلو كان هو الباب الوحيد لهذه المدينة ما استطاع النبى صلى الله عليه وسلم أن يبلغ شيئا ولا أن يؤدى رسالة وكان يقول لكل من سأله عن مسألة اذهب الى على وخذ منه الجواب وهذا لا يقوله أحد يحترم نفسه وقد قال الله تعالى . (يا أيها الرسول بلغ ما أنـزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالاته) وحذف المعمول هنا يدل على العموم أى بلغه جميع الناس كما قال تعالى فـــى سورة الاعراف (قل يا أيها الناس انى رسول الله اليكم جميعا) ولما وصلت

الى هذه المسألـة اشترك مع الشيخ فى المناظرة نحو عشرة أشخاص فقال لى أحدهم قوله تعالى (بلغ ما أنزل اليك من ربك) معناه بلغه عليا فقلت له هذه زيادة فى القرآن فلو قلت لك أنا معناه بلغه أبا بكر لكان القولان متساويين فبأى دليل ترجح أحدهما على الآخـر وكلاهما دعوى بلا دليل فغضب الشيخ وقال أبو بكر (يأكل خراه) وهذا شتم قبيح مستعمل فى تلك البلاد والعراق ونجد ومعناه يأكل العذرة التى تخرج منه كيف تقارن بينه وبين أمير المؤمنين عليه السلام وهو جاهل لا يعرف الاب المذكور فى سورة عبس ، والعرب كلها تعرف الاب وهو العشب فقلت لـه أيها الشيخ ان علماء المناظرات يقولون ان الشتم سلاح العاجز لان القادر على المناظرة بالدليل والبرهان لا يلجأ الى الشتم وأبو بكر لم يكن يجهل الاب لانه كان من شيوخ العرب وحكمائهم وانما قال ذلك تورعا وخوفا من الله تعالى وسعظيما لكتابه وعملا بقول النبى صلى اللـه عليه وسلم من قال فى القرآن برأيه فقد كفر وقد خاف أبو بكر رضى الله عنه أن يراد بالاب معنى خاص يجىء فيه تفسير عن النبى صلى الله عليه وسلم فتوقف وهذا من فضائله ومناقبه ثم قلت له اذا أراد الله أن تبليغ النبى صلى الله عليه وسلم انما هو لعلى فلماذا لم يسمه كما سمى زيدا فى سورة الاحزاب فقال لى ان قريشا حذفت كثيرا من القرآن فقلت له قال تعالى فى سورة الحجر (انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) ولا شك أن الله تعالى لا يخلف الميعاد وقد حفظ هذا القرآن مـن التبديل والزيادة والنقص وهذه مزية وفضيلة خص الله بها هذا القرآن الكريم من بين سائر الكتب السماوية وقد أجمع المسلمون وغير المسلمين الا من شذ من أعداء الاسلام على هذا فأنت تجد القرآن فى جميع أنحاء العالم على اختلاف أديان أهل تلك البلدان لا يستطيع أحد أن يزيد حرفـا ولا نقطة ولا أن يغير منه حركة وحتى صفات الحروف كالتفخيم والترقيق مثلا محفوظة واذا سلمنا أن القرآن قد حذفت منه قريش كثيرا فلابد أن تكون قد زادت فيه أيضا فقال لى أما الزيادة فلم تقع فقلت وكيف عرفت ذلك قال عرفناه من أقوال الائمة المعصومين فانهم أخبروا بأن الزيادة لم تقع وانما وقع الحذف فقلت هذا مخالف لنص القرآن الذى ذكرته آنفا ومخالف للعقل والله المستعان ثـم قلت له فهل عندكم قرآن سالم من التغيير ليس فيه زيد ولا نقص فقال لـى لما رأى أمير المؤمنين على عليه السلام قريشا تحذف أشياء من القرآن وتكتبه على غير الوجه المتفق مع تاريخ النزول دخل بيته وعكف فيه أربعين يوما فكتب

القرآن من أوله الى آخره على ترتيب نزوله من أو ءاية الى ءاخر ءاية فقلت وأين هذا المصحف ؟ فقال بقى عندى الائمة يتوارثونه آخرهم عن أولهم حتى وصل الى الامام المنتظر محمد بن الحسن العسكرى عجل الله بخروجه فلما غاب فى سرداب سامراء أخذه معه فقلت له ولماذا لم يكتب على رضى الله عنه الا مصحفا واحدا ثم لم ينسخ أحد منه فى تلك الازمنة المتطاولة ولا نسخة واحدة وقد كان لعلى كما تعلمون من الانصار وآل البيت الحريصين على الخير وحفظ العلم ولاسيما كتاب الله وخصوصا قبل خلافته خلق كثير أما بعد خلافته فكان ينبغى أن يكون أول شىء يبدأ به هو اظهار هذا القرآان الصحيح واحراق ما سواه من المصاحف فان لم يفعل ذلك على سبيل التسليم الجدلى فلابد أن يفعله شيعته وأنصاره وقد جمع أبو بكر الناس على هذا المصحف ثم جمعه عثمان طبقا لمصحف أبى بكر وأحرق جميع المصاحف المشتملة على القراءة الشاذة وعلى رضى الله عنه ليس دونهما فى العلم والقدرة على احقاق الحق فكيف أهمل هذا الواجب العظيم ؟ فقال لى تأدب فان الائمة لايفعلون شيئا الا بأمر الله وقد كان أمير المؤمنين عليه السلام مشغولا بأمور أخرى من حروب المرتدين وتدبير شؤون المسلمين فقلت له هذا الاعتذار لم يقنعنى ولا أراه يقنع أحدا من خصومكم ثم لماذا أخذ الامام المنتظر محمد بن الحسن العسكرى المصحف الوحيد السالم من التغيير معه حينما أدخل فى السرداب وأنتم تعتقدون أنه معصوم وأنه يحفظ القرآن ولا يحتاج الى مصحف فكيف يترك شيعته على مصحف ناقص غير مرتب ويأخذ النسخة الوحيدة المشتملة على القرآن الصحيح معه الى عالم الغيب فقال لى قلت لك تأدب فان الائمة معصومون ولا يفعلون الا ما أمرهم الله به ثم قال لى أحدهم سأورد عليك آية من القرآن تحجك وتسكتك فقلت : هات ، فقال : قال الله تعالى : وكل شىء أحصيناه فى امام مبين من هو الامام المبين أليس على بن أبى طالب عليه السلام؟ فقلت: ذلك قولك أما أنا فأقول ان الامام المبين هو اللوح المحفوظ المكتوب عند الله تعالى وهذا القرآن الذى بأيدينا مطابق له فقال لى كيف يكون الكتاب اماما وكيف يكون مبينا فقلت له قال الله تعالى فى سورة الاحقاف (واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للمحسنين) ، فوقف حماره فى العقبة ولم يستطع جوابا فقال لى شيخهم أليس

على نفس النبى بنص القرآن فقلت وضح لى ما تقول كيف يكون على نفس النبى فأخذ يتعتع ويكرر أنفسنا وأنفسكم ولم يعرف أحد منهم آية المباهلة لا الشيخ ولا غيره فعلمت أنه لايحفظ القرآن أحد منهم فقلت لهم أنا أذكر لكم الآية التى تريدون قال الله تعالى فى سورة آل عمران (فمن حاجك فيه من بعدما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) فقالوا جميعا هذه الآية التى نريد وهى حجة عليكم فان قوله تعالى وأنفسنا المراد به على بن أبى طالب فقلت لهم ان نفس النبى صلى الله عليه وسلم هى النبى ولا تتحمل الدلالة اللغوية غير ذلك فما هو دليلكم من جهة النقل أو اللغة على أن عليا هو نفس النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا هذا ثابت فى التفاسير فقلت أنا لاأسلمه الا اذا ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم بسند صحيح هكذا قلت لهم مع أنى أعلم أنه روى فى خبر بسند ضعيف أن معنى أنفسنا هو النبى صلى الله عليه وسلم وعلى ومعنى نساءنا فاطمة ومعنى أبناءنا الحسن والحسين ثم راجعت الآن وأنا أكتب هذا تفسير ابن كثير فوجدت الخبر قد رواه ابن مردوية والحاكم فى المستدرك وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه قال ابن كثير هكذا قال الحاكم وقد رواه أبو داود الطيالسى عن شعبة عن المغيرة عن الشعبى مرسلا وهذا أصح اهـ.

قال محمد تقى الدين ومن المعلوم أن المرسل من قسم الضعيف ولو كان القوم أهل انصاف لذكرت لهم هذا الخبر واعترفت به وبينت ضعفه وأنه لا حجة لهم فى ذلك لان فضل على وقربه من رسول الله صلى الله عليه وسلم لا ينكره الا ضال وذلك لايدل على أنه هو الامام بعد النبى صلى الله عليه وسلم ولا يدل البتة على بطلان خلافة الخلفاء الثلاثة قبله ولا يحط من قدرهم شيئا فان الائمة الثقات رووا أحاديث كثيرة صحيحة كالشمس تدل على صحة خلافتهم وفضلهم ولكن لكل مقام مقال ، ثم قال الشيخ ما تقول فى أحاديث صحيح البخارى أصحيحة عندكم أم لافقلت هى صحيحة لا نتوقف فى قبول شيئا منها فقال الآن أورد لك حديثا من صحيح البخارى يثبت صحة اعتقادنا وفساد اعتقادكم فقلت ما هو فقال روى البخارى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها وأبو بكر آذاها فقد ءادى النبى صلى الله عليه وسلم ومن آذى النبى فهو كافر » فكيف يكون الكافر خليفة فقلت له هذا الحديث

صحيح ولكن لمعرفة معناه على التحقيق يجب أن تذكره كاملا حتى لا تكون مثل ذلك النصرانى الذى احتج على المسلمين بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة » فقال هذا كتابكم ينهاكم عن الصلاة ، قال فاذكر أنت الحديث كاملا فقلت له ان على بن أبى طالب أراد أن يتزوج بابنة أبى جهل على فاطمة فقام النبى صلى الله عليه وسلم خطيبا فى الناس فقال ان ابن أبى طالب يريد أن يتزوج بابنة أبى جهل على فاطمة ولا أحرم حلالا ولكن أخاف ان تفتن فى دينها فوالله لاتجتمع ابنة نبى الله وابنة عدو الله فى بيت واحد فان أراد ابن أبى طالب أن يتزوج بابنة أبى جهل فليطلق ابنتى فان فاطمة بضعة منى يؤذينى ما آذاها هذا معنى الحديث فلما سمع القوم هذا الحديث ثاروا ثورة عظيمة وكثر ضجيجهم فقال لى شيخهم (رافعا صوته كفرتم كفرتم كفرتم أنتم كفرتم كل واحد حتى محمد بن عبد الله) وسمعت من كان بقربى من الحاضرين يقولون بصوت ملؤه الحنق (لا يا ملاعين الوالدين اشلون يكذبون على أمير المؤمنين) ومعنى ذلك اخسأوا يا ملاعين الوالدين كيف يكذبون على أمير المؤمنين يعنون عليا فقلت له كيف تكفروننا ونحن نشهد أن لا اله الا الله وان محمدا رسول الله ونؤمن بكل ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وعلى رضى الله عنه لسعة علمه وفضله لم يكفر الخوارج الذين كفروه وقاتلوه فقد روى ابن أبى شيبة بسنده الى على أنه سئل عن الخوارج أكفارهم فقال لا من الكفر فروا فان لم تقبلوا على عادتكم فى رد أحاديث أهل السنة فدونكم برهانا نظريا لا تستطيعون رده أبدا قالوا ما هو؟ فقلت ان عليا رضى الله عنه قاتل الخوارج ولم يغنم أموالهم ولا سبى ذريتهم كما فعل هو وسائر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قتال المرتدين من بنى حنيفة وأم ولده محمد سبية من بنى حنيفة واسمها خولة وأنتم تعلمون ذلك فقال أنا لا أكفرك أنت فقلت لو كفرتنى أنا وتركت البخارى ورجاله لكان ذلك أهون على لان كل ما نعتقده ونعلمه من أمور الدين فهو اما من القرآن أو من رواية هؤلاء الرواة فقال لى وأنا لا أكفر البخارى أيضا فقد كان رجلا صالحا ولكن معاوية كان يبذل الاموال للوضاعين فيضعون الاحاديث فى تنقص على ويكذبون عليه وقد توهم البخارى فأدخل فى كتابه هذا الحديث فقلت له ان رجال هذا الحديث كلهم أئمة ثقات وقد رواه البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه هذا ماقلته له والآن أسوق

هذا الحديث بألفاظه ليعرفه القارىء على وجهه ، أخرج البخارى بسنده عن المسور بن مخرمة فى باب الخمس أن علىبن أبى طالب خطب ابنة أبى جهل على فاطمة عليها السلام فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب الناس فى ذلك على منبره هذا وأنا يومئذ محتلم فقال ان فاطمة منى وأنا أتخوف أن تفتن فى دينها ثم ذكر صهر اله من بنى عبد شمس فأثنى عليه فى مصاهرنه اياه قال حدثنى فصدقنى ووعدنى فوفى لى وانى لست أحرم حلالا ولا أحل حراما ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وبنت عدو الله أبدا ، ورواه البخارى فى كتاب النكاح فى باب ذب الرجل عن ابنته فى الغيرة عن المسو ربن مخرمة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر ان بنى هشام بن المغيرة استأذنوا فى أن ينكحوا ابنتهم على ابن أبى طالب فلا آذن ثم لا آذن ثم لا آذن الا أن يريد ابن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم فانما هى بضعة منى يريبنى ما أرابها ويؤذينى ما آذاها .
وفى احدى الروايات أن فاطمة عليها السلام ذهبت الى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت له ان الناس يقولون انك لاتغضب لبناتك وأخبرته الخبر فخرج الى المسجد وخطب الناس ، ثم قلت وأبو بكر الصديق لم يؤذ فاطمة وانما نفذ ما أمره به النبى صلى الله عليه وسلم فى قوله (نحن معاشر الانبياء لا نورث ما تركنا صدقة) وفاطمة غير معصومة من الخطأ فان كان هذا هو سبب تكفيركم لابى بكر الصديق فهو سبب واه ، وقد تبين بطلانه فلماذا كفرتم عمر مع أنه حين جاءه على والعباس بعد وفاة فاطمة يطالبان بأرض فدك التى طالبت بها فاطمة أحضر عشرة من الصحابة فشهدوا كلهم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال نحن معاشر الانبياء لا نورث ثم قال لعلى والعباس ان التزمتما أن تعملا فى هذه الارض بما كان يعمل به رسول الله صلى الله عليه وسلم سلمتها لكما فالتزما ذلك فسلمها لهما ثم اختلف على والعباس فجاء العباس عمر يشتكى عليا فأبى عمر أن يغير ما حكم به ... ومما ذكرته لهم فى تلك المناظرة وانما امليها من حفظى أن مما يدل على أن أهل بيت على رضى الله عنه لم يكونوا يعتقدون عصمته أن عبد الله بن عباس أنكر عليه احراق الغلاة الذين اعتقدوا ألوهية على فأحرقهم بالنار فخطأه ابن عباس وقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لايعذب بالنار الا رب النار فقال الشيخ هذا من وقاحته وقلة حيائه

كيف يعترض على امامه ولما أخذوا يناظروننى وهم جماعة كما ذكرت أراد رفيقى أن يظهر دفاعه عنى وقال أيها القوم ان كانت هذه مناظرة بين عالمين فدعوهما يتناظران وانصتوا وان كانت حمية وعصبية فأنا أيضا أدافع عن صاحبى ولما رجعنا الى الدورة قال لاهل السنة أشهد بالله أن عالمكم غلب عالمنا.

مناظرة بين المؤلف وبين شيعى آخر

اجتمعت فى البصرة بمجتهد الشيعة الشيخ مهدى القزوينى فأخبرته بأن عبد المحسن الكاظمى يقول ان قريشا حذفت كثيرا من القرآن فهل هذا صحيح فقال أما نحن فلا نقول بذلك ونؤمن بأن القرآن هو ما بين دفتى المصحف لم ينقص منه شيء ولم يزد فيه شيء وأظن أن الشيخ القزوينى من الفرقة الاصولية ثم بعد ذلك قرأت مقالا فى مجلة المنار الشهيرة التى كان يصدرها الشيخ رشيد رضا رحمه الله كاتبه عالم من بلاد فارس أثبت فيه بالادلة والبراهين المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم من طرق الشيعة الاثنا عشرية كلما بينه شيخ الاسلام أحمد بن تيمية وشيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب من توحيد العبادة وتوحيد الربوبية فمن ذلك تحريم البناء على القبور روى فيه أحاديث عن أئمة الشيعة مرفوعة وغير مرفوعة الى النبى صلى الله عليه وسلم تثبت النهى عن البناء على القبر وتجصيصه حتى ذكر عن جعفر الصادق رحمه الله أنه قال كل ما وضع على القبر من غير تراب القبر فهو ثقل على الميت ، ومنها تحريم الذبح والنذر ودعاء الاموات والاستغاثة بهم فكتبت كتابا الى الشيخ مهدى المذكور وقلت له نرجو أن تبين لنا هل هذه الاحاديث التى ذكرها صاحب المقال صحيحة عندكم أو غير صحيحة فان كانت صحيحة فما الذى يمنعكم من العمل بها وكيف سكتم على القباب المشيدة المزخرفة فى النجف وكربلاء والكاظم وهى مخالفة لما رواه أئمة آل البيت الذين تدعون الناس الى اتباعهم فكتب الى رسالة طويلة مدحنى فيها ولم ينكر شيئا من تلك الاحاديث ولكنه عمد الى تحريفها ففسر البناء على القبر بأن يبنى على القبر نفسه أما بناء قبة حوله لتقى زائريه من الحر والقر فلا بأس به ومضى فى تحريف تلك الاحاديث كلها حتى أتى عليها ثم قال لى ونحن نتخذك حكما تحكم بيننا وبين صاحب المنار هذا بعدما ذم صاحب المنار وكاتب المقال وغمرهما بالشتم والقدح والطعن فألفت فى ذلك جزءا

سميته القاضي العدل في حكم البناء على القبور وبعثته الى الشيخ رشيد رضا رحمة الله عليه فجزأه سبعة أجزاء ونشره في مجلة المنار وكان ذلك في أغلب الظن سنة 1344 هـ ولما استقررت في المملكة السعودية أعدت تأليف الكتاب بأسلوب أخشن وقدمته للملك عبد العزيز رحمة الله عليه هدية وأنشدته في ذلك القصيدة التالية جالسا الى جنبه فلم يعب على ذلك لا هو ولا أحد من جلسائه وذلك برهان قاطع على تواضعه واختياره سلوك أمراء السلف فلا غرابة أن رفع الله قدره ومكن له في الارض حتى أنشأ دولة عظيمة عصرية على أنقاض الدولة السعودية التي قضى عليها آل رشيد كما شهدت بذلك اذاعة لندن وهذه القصيدة من بحر الكامل .

يا أيها الملك الذي سعدت به ... أرجاء مكة والحطيم وزمزم

وكسى الاله به بلاد العرب ثو ... ب أمانه فغدت به تتنعم

وأشاع نور العلم والايمان في ... أرجائها والجهل فيها مظلم

وغدت بحكمته أهاليها وهم ... بعد العداوة في أخا لا يصرم

كان التقاطع بينهم من قبله ... حتى القريب قريبه لا يرحم

والبغي والعدوان شيمتهم وهم ... شتى العقائد شركهم مستحكم

ما عندهم من حرمة للشرع بل ... طاغوتهم بالجهل فيهم يحكم

قطع الطريق وقتل سالكه لهم ... خيم وخيم عندهم لا يحرم

شن الاغارة دأبهم وطعامهم ... وشرابهم منه وبئس المطعم

فغدوا تقاة صالحين وخوفهم ... لله ليس يزال دوما يعظم

بسياسة الملك الامام المرتضى ... عبد العزيز الفارس المستلئم

هذي الكرامات العظام حقيقة ... لا ما يقول مشعوذ يتوهم

هذا هو القطب الكبير ديانة ... وشجاعة وعدالة اذ يحكم

قطب السياسة والمكارم والعلا ... حامي الحقيقة في الوغى لا يحجم

يلقى العداة اذا الجيوش تلاطمت ... أمواجها مستبشرا يتبسم

يلقى الوفود ووجه متهلل ... رائيه مغتبط به متنعم

ذا الجزء أرفعه اليك هدية ... ولانت أفضل من اليه يقدم

ألفته ردا على شيخ الرؤا ... فض بالادلة مبطلا ما يزعم

زعم البناء على القبور وقصدها ... من كل أفق للدعا لا يحرم

هذا ودم شمسا لهذا الدين في ... أوج السعادة بالمكارم تنعم

فتقبله بأحسن قبول وأمر بطبعه فأخذه رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن حسن رحمه الله وسلمه الى الشيخ ماجد الكردى مدير المعارف فطبع منه ألف نسخة ووزعت . ولابد أن يكون الشيخ مهدى القزوينى قد اطلع على هذا الكتاب وقد بلغنى أنه ألف كتابا فى الرد على ولكنى لم أره وهذا هو سبب ما ذكرته من قبل أنه يوجد فى المحفظة الخاصة بى التى يسمونها بالعجمية دوسيا أننى عدو لابناء الشيعة هكذا سجلوا على ذلك لجهلهم وضلالهم والا فهل كان أئمة آل البيت الذين نقل عنهم ذلك الكاتب أحاديث النهى عن البناء على القبور كحديث الصحيحين لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ونحوه هل كان أولئك الائمة رضوان الله عليهم أعداء لابناء الشيعة ومنهم جعفر الصادق الذى ينتسبون اليه اذا فمن هو وليهم .

شيخ متملق

كان رجل ينسب الى العلم والعلم منه بعيد يسكن فى بلدة فاو الواقعه عند مصب شط العرب فى خليج البصرة ويسميه الاوروبيون الخليج الفارسى وكان من المتملقين لذلك الشيخ المذكور الذى هو من أقارب الشيخ مصطفى آل ابراهيم فشكى الشيخ الغنى الى ذلك المتأكل بالدين ما أبطلته من البدع فى مسجد الدورة فقال الشيخ الفاوى هذا الرجل مناع للخير يعنينى بذلك فهجوته بقصيدة نسيت أكثرها وأثبت هنا ما بقى فى حفظى منها وقد حذفت منها بيتا لان فيه اقذاعا كثيراً فان قلت اذا كان ذلك الاقذاع لايجوز شرعا فلماذا قلته حتى احتجت الى حذفه فالجواب أنه يجوز شرعا ولكن تركه أيضا جائز وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم (من تعزى عليكم بعزاء الجاهلية فأعضوه بهن أبيه ولا تكنوا)

وهذا ما بقى من القصيدة :

أتانى فحش القول من جاهل فدم ... وقدما كلاب الجهل تنبح ذا العلم
ولست بملافى القرى متأكل ... بدين ولا دين لدى الارذل الوخم
يظل عدو العلم يكذب جاهدا ... على ربه كى يأكل السحت بالرجم
فدع عنك دعوى العلم ولتبغ قاربا ... تصيد به الحيتان فى لجة اليم
ودربه فى كل البلاد مناديا ... صبورا صبوراً واترك العيش باللؤم

فذلك أجدى من سؤال وكدية | وافساد دين الله بالخرص والوهم
فلا تحسبن العلم أكل ثريدة | وجمع زكاة من غريب ومن عجم
ومثلك ان يسأل يجيء يوم حشرنا | وما وجهه الا عظام بلا لحم
وان كان كالعصفور عقلك خفة | وطيشا فمثل البغل قد صرت في الجسم
علام استطبت الاكل من صدقاتهم | أأعرج أم أعمى أم انت اخو سقم
نعم فيك سقم لم ير الناس مثله | وذلك سقم العقل والدين والفهم
وفيك عمى لم تبصر العين مثله | عمى الجهل ان الجهل للقلب قد يعمي
ودعواك في العلم العزيز مكانه | كدعوى بني حرب زيادا على زعم
لقد هزلت حتى بدا من هزالها | كلاها وحتى سامها كل ذي عدم

قولي صبورا صبورا الصبور نوع من السمك يصاد من البحر كبير الحجم كثير العظام ولكن لحمه لذيذ يدور الباعة بزوارقهم في أنهار جنوب البصرة منادين (صبور صبور) .

الدعوة الى الله فى النخيل

لما نزلنا بالمدينة النبوية على من شرفها الله به أفضل الصلاة وأزكى التحية وجدت بها من مشاهير الشيوخ ألف هاشم وهــو من السودان المغربى وأظنه سنغاليا وكان مقدما للطريقة التجانية فكتبت صحيفة ضمنتها ثلاث عشرة مسألة من ضلالات التجانيين وناولتها الشيخ عبد الله بن حسن فلما قرأها اقشعر جلده منها وقال أعوذ بالله أعوذ بالله يوجد فى الدنيا من يعتقد مثل هذا فقلت نعم وهو معك هنا فى المدينة أحد كبار المدرسين فى المسجد النبوى فقال لى من هو فقلت ألفا هاشم ومعنى ألفا بلغة السودان الفقيه فكأنها مختصرة من كلمة الفقيه فدعا به فلما جلس ناوله الصحيفة فقال اقرأ هذه الصحيفة فقراها فقال له الشيخ هل تعتقدون ما فى هذه الصحيفة فقال يوجد فى كتب طريقتنا كل ما ذكر فى هذه الصحيفة ولكن أنا لا أعتقد هذا فقلت له قل هذا حق أو باطل فقال لى ان الشيخ ليس محتاجا الى أن تعينه فقال الشيخ عبد الله بن حسن رحمه الله والله بل أنا محتاج الى أن يعيننى لانه يعرف ضلالكم وأنـا لا أعرفه فاضطر الفا هاشم الى أن يقول ان ذلك باطل فقال له الشيخ عبد الله بن حسن رحمه الله قد اعترفت الآن بأنك رئيس طريقة تشتمل على ضلالات فتب الى الله منها فقال أنا تائب الى الله من كل ضلالة فقال له الشيخ عبد الله بن حسن أكتب رسالة وبين فيها ضلال هذه الطريقة وأنك تبت الى الله منها لنوزعها على أتباعك وغيرهم ليحذرها الناس فقال نعم فقال له اذا كتبت الرسالة فسلمها الى محمد تقى الدين الهلالى لينظر هل هــى وافية بالمطلوب فان وجدها كذلك يبعثها الى وأنا آمر بطبعها وقبل أن يسافر الشيخ عبد الله بن حسن رحمة الله عليه دعا أمير المدينة عبد العزيز بن ابراهيم فجاءه الى منزله بدار الضيافة فقال له هذان الشيخان محمد الهلالى ومحمد بن عبد الرزاق نثق بعلمهما ودينهما فعليك أن تشاورهما وتأخذ بنصيحتهما فقال الامير حبا وكرامة يقال اذا رأيت العلماء عند أبواب الامراء فبئس العلماء وبئس الامراء واذا رأيت الامراء عند أبواب العلماء فنعم العلماء ونعم الامراء فحققهما أن آتى

الى زيارتهما لاستشيرهما وأستفيد مــن علمهما ولكن أرجو من فضلهما أن يسامحانى فى هذا الحق لكثرة أشغالى ويتفضلا بزيارتى ، وبعد خمسة عشر يوما لقيت ألفا هاشم فقلت له هل أتممت الرسالة التى أمرك الشيخ بتأليفها فقال ما أكملتها بعد فأمهلنى فانتظرت خمسة عشر يوما أخرى ولقيته فسألته فقال الى الآن ما أتممتها فحثثته على اتمامها برفق فذهب الى الامير وقال له نحن نعتقد أنك أمير هذا البلد وأنت الحاكم فيه وقد آذانى محمد تقى الديــن الهلالى وصار يتحكم فى ويأمرنى وينهانى فدعانى الامير وقال لى ما سبب الخلاف بينك وبيــن ألفا هاشم فقلت له ليس بينى وبينه خلاف وحكيت له القصة من أولها الى آخرها فقال أنــا آخذ الكتاب منه وأبعثه الى الشيخ فقلت له أنت لا تعرف ما يتضمنه الكتاب وهل هو واف بالمطلوب أو غير واف وانما كلفنى الشيخ عبد الله بن حسن بقراءته قبل ارساله اليه لانى أعرف هذه الطريقــة وأعرف ما يجب على التائب منها ما يقول لانى كنت متمسكا بها تسع سنين ، وانصرفت من عندهولم أطلب الفا هاشم بعد ذلك بشىء ولم يؤلف شيئا وهذا أول خلاف وقع بينى وبين الامير ثم تلاه اختلاف كثير شاركنى فيه رفيقــى الشيخ محمد بن عبد الرزاق فكنا اذا سمعنا بمنكر وقع وكان الجنود المكلفون بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر يخبروننا بما يقع مــن الحوادث فاذا رأينا تقصيرا نذهب اليه وننصحه فكان يتحمل ذلك على مضض واشمئزاز ويقول فى غيبتنا هذان رجلان من المطاوعة (جمع مطوع كلمة تطلق على الفقيه والعالم فى نجد) يشتغلان بالدروس فى المسجد فلماذا يتدخلان فى شؤون الامير وفى شؤون جماعة الامر بالمعروف والنهى عن المنكر، والتعبير المعتاد هيئة الامر بالمعروف وقد تركت هــذا التعبير لانه فاسد لان الهيئة هــى الشكل كما قال تعالى : « انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير » ، وزاد فى طينه بله وفى طنبوره نغمة ان المكاتبة بيننا وبين الملك عبد العزيز قدس الله روحه كانت متواصلة ومن عادته رحمة الله عليه أنه اذا كتب لنا جوابا يأمر الكاتب فيكتبه بالآلــــة الكتابة ثم يأخذ صحيفة فيكتب فيها بضعة أسطر بخط يده يسمى فيها المرسل اليه ويسلم عليه ويدعو لــه وهذه مزية لا نعلم أحدا من الملوك كان يفعلها فنسأل الله أن يثيبه فى جنات النعيم وكانت الاجوبة التى تأتينا من الملــك عبد العزيز تصل الينا بواسطة الامير المذكور فكان كلما جاءنا كتاب من الملك

يصيبه المقيم المقعد ويغضب ويقول ما شأن هذين الرجلين ومكاتبة الملك أهما من الامراء فيلتفت الامير الى الشيخ محمود شويل (ويقول يا محمود ألا يمكنك أن تمون عليهما وتفتح الرسالتين ومعنى تمون تتجرأ وتنوب) فيقول الشيخ محمود أصلح الله الامير اذا كنت أنت لا تستطيع أن تمون عليهما وأنت الامير فكيف أستطيع أنا وأفتح رسالة الملك المرسلة الى شخص بعينه فيجيئنا الشيخ محمود شويل ويقول ان الامير مهتم بهاتين الرسالتين فان لم يكن فيهما شيء تخفيانه عنه فأرجو أن تفرجا عنه بتمكينه من قراءتهما فنعطيه الرسالتين فيقرأ كل رسالة يقرأ صحيفتيها المكتوبة بخط اليد والمكتوبة بالآلة وتوسوس له نفسه بأنه يمكن أن تكون هناك صحيفة ثالثة لم ندفعها اليه.

الاختلاف مع الشيخ عبد الله بن بليهد

ندع الآن خلافنا مع الامير لنستأنفه فيما بعد ونذكر قصة طريفة وقعت بيننا وبين الشيخ عبد الله بن بليهد رحمة الله عليه فانه قصد المدينة ليصوم فيها رمضان سنة 1347 هـ ولما كنت أنا أقوم بمراقبة المدرسين فى المسجد النبوى ويعيننى على ذلك رفيقى الشيخ محمد بن عبد الرزاق كان بعض المدرسين يجتمعون عندنا فى مكتب المراقبة وكان فى غرفة فوق باب المجيدى فنتذاكر فى مسائل العلم فجرى ذكر مسألة الارض هل هى كرة أو سطح فبينا لهم أنها كرة يقينا وذكرنا العلماء الذين نصوا على ذلك ومنهم شيخ الاسلام أحمد بن تيمية وتلميذه بن القيم فأسروها فى أنفسهم فلما جاء الشيخ عبد الله بن بليهد سألوه هل الارض كرة أو سطح فقال لا يقول أحد بأنها كرة الا المعطلة الذين ينفون استواء الله على عرشه فقالوا ان مراقب التدريس محمد تقى الدين الهلالى ورفيقه محمد بن عبد الرزاق يقولان بذلك فغضب غضبا شديدا فلما جئنا لزيارته رحب بنا ثم قال محمد ومحمد هؤلاء المدعون للعلم من أهل الامصار يزعمون أن الارض كرة ولابد أن تكون لهم شبهة وأنتما تعلمانها فأخبرانى بها فقلنا له سلمك الله ان أقوى ما يستدلون به على كروية الارض اختلاف الليل والنهار فان الشمس حتى فى القطر الواحد تختلف فى الشروق والغروب ويبلغ اختلافها فى القطر الكبير الى ساعة بين مشرق ذلك القطر ومغربه ومثال ذلك أن الشمس تشرق فى الرياض قبل المدينة بنحو نصف

ساعة وتغرب فى الرياض قبل المدينة بمثل ذلك وقلنا له واستدلوا على ذلك أيضابأن المسافر فى البحر أول ما يرى من سفينة مقبلة رؤوس أعمدتها المعروفة بالصوارى ثم كلما دنت انكشف له الجزء الاسفل من العمود حتى تنكشف له السفينة كلها واذا كان فى البر مقبلا على بلد فيه نخل فأول ما يرى رؤوس النخيل ثم كلما تقدم انكشفت له الاجزاء السفلى الى أن ينكشف النخيل كله وكان عندنا دليل آخر هو أوضح من هذا كله ولكن خفنا أن نذكره له وهو أن المسافر اذا سافر الى الشرق على خط مستقيم أو شبه مستقيم واستمر فى وجهته لا يغيرها يرجع الى البلد الذى سافر منه فلما سمع كلامنا غضب غضبا شديدا وقال هذا كلام المعطلة فتوبا الى الله منه ولم يقصدوا بهذا الكلام الا أن يقولوا لا اله فوق العرش وتشفى فينا المدرسون وكثر لهطهم وأخذوا يضحكون علينا فقال بعضهم يعنينا ومن يقول بقولنا هؤلاء القوم ليس لهم عقول لو كانت الارض كرة سابحة فى الفضاء فلماذا لم تنصب هذه البحار ومياه الآبار ولماذا لم تسقط الصخور والاحجار وكل ما على الارض من حيوان وانسان وعلى قول هؤلاء يمشى الناس على وجه الارض ورؤوسهم الى أسفل وكان المدرسون يبغضوننا لانهم كانوا يمرون بآيات التوحيد وأحاديث التوحيد مرور الكرام باللغو فلا يبينون للناس توحيد الربوبية وتوحيد العبادة وتوحيد الاسماء والصفات فكنت أدعوهم الى المراقبة وأعظهم وأحذرهم من وعيد من كتم علما ولكنهم كانوا مصرين على حيدتهم الا من سأذكره فيما بعد فانصرفت من عند الشيخ عبد الله بن بليهدنا دما على زيارته ومع أنه التمس منى أن أتعشى معه مدة رمضان لم أزره بعد ذلك فجلت جولة فى الكتب وكانت كثيرة عندى لان خزانتى كانت قد وصلت الى من العراق وهى حافلة بأصناف الكتب وأصل هذه الخزانة خزانة الشيخ على بن سليمان القصيمى الذى كان ساكنا بالدورة الى أن توفى رحمة الله عليه فوصلت أنا الدورة بعد وفاته فوهبنيها ورثته باشارة من كبيرهم الشيخ حسن بن على قالوا لانه ليس فينا لسوء الحظ من يستطيع الانتفاع بهذه الكتب ونحن نريد أن نهبك ايها رجاء أن ينفع الله بثواب هذه الهبة والدنا ولا تزال عندى بقايا من هذه الخزانة وبعضها تلف بالنقل من بلد الى بلد وبعضها تلف بالبلى والقدم فوجدت أن شيخ الاسلام أبا العباس أحمد بن تيمية قدس الله روحه ذكر هذه المسألة فى الرسالة العرشية ووضحها

كن التوضيح فبعدما بين أن الاجرام السماوية كلها كروية الشكل ذكر الارض وأخبر أن كل جهاتها فوق والتحت انما هو وسط جوفها قال رحمه الله فلو وضعت حجرا فى المشرق وحجرا فى المغرب ولم يجدا مانعا من النزول هذا من المشرق وهذا من المغرب حتى يجتمعا فى مركز الارض ولو جعلت بدل الحجرين انسانين أحدهما يخترق الارض من المشرق والآخر يخترقها من المغرب لا لتقت أقدامهما فى المركز فخططت بالقلم الاحمر على هذا الكلام وبعثته الى الشيخ عبد الله بن بليهد فبلغنى أنه ازداد غضبا وقال يا عجبا للهلالى يريد أن يعرفنى بما فى كتبا لشيخين ان كلام الشيخين لا يفهمه كل الناس لان فيه اطلاقا وتقييدا وخصوصا وعموما واجمالا وتفصيلا وأنا أشتغل بدراسة كتب الشيخين منذ كنت مثل هذا الورع وأشار الى صبى صغير وأهل نجد يسمون الغلام ورعا ، ثم أخذت أبحث فى كتاب مفتاح دار السعادة لابن القيم رحمه الله فوجدته نص على أن الارض كرة نصا لا يحتمل تأويلا وعلل اختلاف الليل والنهار فى البلدان المختلفة بكروية الارض فبعثته اليه مع الشيخ محمد بن عبد الرزاق فلما أعطاه الكتاب قرأ كلام ابن القيم مرارا ثم قال له ان كانت الارض كرة فى الجهة الاخرى التى لسنا فيها فذلك ممكن أما الجهة التى نحن فيها فنحن نشاهدها سطحا وسكن غضبه على ولكن لم يعترف ثم لقيت بعد ذلك الشيخ الجليل مقدم آل الشيخ وكبيرهم وعالمهم فى عصره أعنى الشيخ محمد بن عبد اللطيف رحمة الله عليه فقال لى بلغنى ما وقع بينك وبين ابن بليهد وهو مخطىء واياك أن تعتقد أن علماء أهل نجد كلهم على رأيه فان عندى ثلاثة كتب للشيخين فى كل واحد منها ما يكفى ويشفى للدلالة على أن الارض كرة .

الشيخ الطيب التنبكتى

تقدم أن المدرسين كانوا يحيدون عن بيان الحق فى مسائل التوحيد وكانوا يتعصبون لمذاهبهم كل التعصب وكان الشيخ الطيب رحمة الله عليه حين جئنا الى المدينة أنا ورفيقى الشيخ محمد بن عبد الرزاق المصرى مولدا ونشأة ، السعودى مستوطنا ودارا نسأل الله له الشفاء ، كان الشيخ الطيب متمسكا بالطريقة القادرية وبعقيدة المتأخرين من الاشعرية ومتعصبا للمذهب المالكى وكان لا يطيل الجلوس معنا ولكنه كان يبعث الينا تلميذه الشيخ عبد

الله بن محمود وكان فى ذلك الوقت شابا لم تستدر لحيته وكان يأتينا كل يوم بمسائل يلقيها علينا فنجيبه عنها فيحمل الجواب الى أستاذه ومضى على ذلك مدة تقارب ستة أشهر وعند ذلك جاءنا الشيخ الطيب وقال لنا اننى فكرت فى أجوبتكما فوجدت انما تدعوان اليه هو الحق وأشهدكما أنى تركت كلما كنت عليه من طريقة وعقيدة أشعرية وتعصب للمذهب ففرحنا بذلك فرحا عظيما وكان المدرسون من أهل المدينة يأخذون ستة دنانير ذهبا أو ما يعادلها بسعر الوقت أريلة فضية وكنا نحن نأخذ عشرة دنانير لكل واحد منا فكتبنا الى ولاة الامر رحمهم الله وقلنا لهم ان الشيخ الطيب الانصارى التنبكتى ترك ما كان عليه ورجع الى عقيدة السلف فنرجو أن يعطى راتبا كرواتبنا فجاء الجواب بالموافقة وقد نسيت الآن هل كتبنا للملك عبد العزيز نفسه أو من دونه وصار يأخذ عشرة دنانير ذهبا وكانت المعيشة فى المدينة رخيصة تكفى أهل البيت بعيالهم وضيوفهم ثلاثة دنانير فى الشهر يعيشون بها عيشة راضية وثبت الشيخ الطيب على العقيدة السلفية الى أن جاءه الاجل فرحمه الله رحمة واسعة وقد أخبرنى بعض الاخوان أنه اختصر تفسير ابن جرير وأن اختصاره هذا موجود فنسأل الله أن يوفق أهل الفضل والاحسان وفى مقدمتهم امامهم جلالة الملك فيصل لطبع هذا الكتاب .

الشيخ محمود شويل

لما وصلنا الى المدينة كان الشيخ محمود شويل خرافيا ومتعصبا للمذهب المالكى أشد التعصب ، كنا نفطر صباحا فى بيتى فأخذ يذكر فضائل الامام مالك رحمه الله ويدعى أنه لا نظير له فى الائمة ولا أحد يكاد يبلغ منزلته فى العلم والفضل فقلت له انا البخارى أعلم منه لان كل حديث صحيح رواه مالك يعرفه البخارى ويزيد على ذلك بآلاف الاحاديث فغضب غضبا شديدا وترك الاكل وقال فى البخارى كلاما قبيحا لا يحسن ذكره واستمر على مجالستنا الى أن تخلص من عقيدته وخرافاته وتعصبه للمذهب وأخبرته بوجود شيخ سلفى من كبار العلماء له تآليف وهو الشيخ حسن عبد الرحمن من أغنياء مصر له مزارع كثيرة بين دمنهور والاسكندرية لا أذكر اسم بلدته الآن فكتب اليه الشيخ محمود شويل يلتمس منه شيئا من كتبه التى ألفها فى الدعوة الى

السلفية وقال له فى كتابه اليه الشيخ محمد بن عبد الرزاق والشيخ محمد تقى الدين الهلالى و ثالثم كلبهم محمود شويل فبعث اليه الشيخ حسن عبد الرحمن رحمة الله عليه ما طلب من الكتب وقال له فى جواب كتابه ما نصه يظهر آنك داخل فى المقدر من جديد لان المومن لا ينزل بنفسه الى أن يصير كلبا وبالغ الشيخ محمود شويل فى التمسك بالتوحيد والسنة وكانت فيه حدة شديدة فأخذ فى كل يوم يتخاصم مع الناس اذا سمعهم يشركون بالله أو يبتدعون فى الدين فكثرت به الشكايات الى الامير فاتخذه مستشارا علميا ليشغله عن الخصومات ولكن ذلك لم يمنعه مما كان عليه من الشدة حتى نفى الى نجد أكثر من مرة .

الخروج الى البادية

كنت قد طلبت من الشيخ عبد الله بن حسن رئيس القضاة تغمده الله برحمته أن أخرج الى القرى والبوادى للدعوة الى الله تعالى فى بعض الاحيان فاستحسن ذلك كل الاستحسان وأمر الامير عبد العزيز بن ابراهيم أن يهيىء لى راحلتين ورجلا يرافقنى فأجاب الى ذلك ووعد به فلما طالبته بالوفاء اقترح على أن أذهب الى الجرف والعوالى ولم يكن غرضى ذلك لان أهل هذه القرى شيعة لا يكادون يقبلون شيئا من واعظ سنى وانما كان مرادى التوجه الى البوادى السنية فى ناحية الحناكية وغيرها من قبائل حرب وكان بعضهم متدينا وبعضهم لا يزال على الجاهلية الاخرى فأخبرت بذلك الامير فقال أبدأ بالاقربين وبعد ذلك أهيىء لك السفر الى غيرهم واخترت الشيخ الحميدى بن رديعان أحد الائمة فى المسجد النبوى وكان شيخا صالحا من أهل حائل لمرافقتى فذهبنا الى القرى المحيطة بالمدينة فلم نجد أحدا منهم تأثر بدعوتنا الا رجلا فى الجرف وأظنه كان سنيا أما الباقون فانهم كانوا يضيفوننا ولا يظهر عليهم أثر لقبول وعظنا وكررت الطلب على الامير أن يهيىء لى أسباب السفر الى الحناكية ونواحيها فكان يماطل فاتفقت مع الامير ماجد بن موقد أمير عوف القاطن فى قرية النخيل وسافرت معه الى النخيل بدون استئذان الامير وبقيت هناك زهاء شهر وأشهد بالله أننى ما مرت على فى حياتى كلها أيام صفا فيها قلبى وازداد ايمانى واقبالى على ذكر الله تعالى مثل تلك الايام . وكانت معيشتهم فى غالب الاوقات بل فى كلها اللبن المخيض فقط الا اذا جاءهم ضيف فانهم يذبحون له ذبيحة ويبحثون عن شىء من الرز

من أراد أصنافه فيطبخونه نصف طبخ فلا أستسغيه وكذلك اللحم يطبخونه نصف طبخ ولكنى كنت آكل من الالية لانها تنضج بأدنى طبخ ومع ذلك كانت عندى تلك المعيشة أحسن من موائد الامراء والمترفين وسأشير الى ذلك في القصيدة الآتية ان شاء الله ولما سمع الامير بسفرى غضب غضبا شديدا ولعننى ولعن قبيلة بن هلال كلها توهما منه أننى أنتسب اليها وأنا انما أنتسب الى هلال وهو الجد الحادى عشر من ذرية الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما وقال للشيخ محمود شويل يا محمود قل له اذا رجع لا يمسك ورقة ولا يجلس فى المسجد وقل لمحمد بن عبد الرزاق لا يجعله نائبا عنه فى الصلاة أبدا فلما رجعت زرته ومعى الامير ماجد بن موقد وأخبرته أن رحلتى الى النخيل كانت باذن وحث وترغيب من رئيس القضاة الشيخ عبد الله بن حسن وهو يعلم ذلك فلم يقل شيئا واستمر الامر على تلك الحال مدة سنتين فضاق الامير بنا ذرعا ونفد صبره فدعانا ذات يوم الى قصره بعد صلاة الظهر وكانت العادة أن تكون الضيافة فى الطبقة الاولى ولكنه صعد بنا الى الطبقة الرابعة التى يسكن فيها عياله ووضع لنا تمرا وجحا وهو الجبجب بلغة أهل الحجاز ولبنا وقال لنا هذا طعامنا معشر أهل نجد فى النهار ثم قال أنا ما دعوتكما للطعام ولكن دعوتكما لاخبركما بأنى لا أشك فى صحة عقيدتكما وأنكما تريدان الخير ولكنكما تجاوزتما الحد فى الشدة وأنتما تسمعان كلام الملك فى مجالسه العامة وتفهمان منه شيئا ونحن نسمع كلامه فى المجالس الخاصة وفى الرسائل الخاصة ونفهم منه شيئا آخر فعلى أى شىء نعمل على فهمنا أم على فهمكما فقلنا له ان كان الامر كذلك ينبغى أن تعملوا على فهمكم فقال اذا فتلطفا واتركا الشدة وكلاما طويلا من هذا القبيل ثم انصرفنا من عنده وكان يعنى بالكلام الذى يقوله الملك فى المجالس العامة ما كان يلهج به رحمة الله عليه اذا اجتمع عنده مشايخ العلم وهو قوله أيها العلماء مروا بالمعروف وانهوا عن المنكر فقد اخذت هذه الامانة من عنقى ووضعتها فى أعناقكم وأول من تبدؤون به فى الامر بالمعروف والنهى عن المنكر أنا ثم أهل بيتى ثم عامة الناس فلم نصدقه فى قوله واعتقدنا أنه أراد أن يخدر أعصابنا بذلك الكلام الباطل واستمررنا على خطتنا فتهيأ هو للانتقام وعرف ذلك أخوه العالم الصالح الشيخ محمد بن ابراهيم رحمة الله عليه فدعانا وقال لنا أشهد الله على محبتكما وكأنه ينتصل

بذلك ويتبرأ مما يبينه أخوه وكذلك العالم الورع الشيخ عمر بن سليم رحمة الله عليه حذرنا من مكايد الامير فأما الشيخ محمد بن عبد الرزاق فكاد لـه كيدا عظيما وكان والحق يقال أشد وأعنف عليه منى وذلك أنه كتب الى الملك عبد العزيز رحمه الله يقول ان محمد بن عبد الرزاق لا يطاق بقاؤه فقد كرهه سكان المدينة لغلظته وشدته وبلغ به النهور الى أن وقف على المنبر وقال لعنة الله عليكم يا أهل المدينة كلكم كفار ، وهذا بهتان عظيم فانى كنت جالسا عند المنبر أستمع الخطبة التى زعم أنه قال ذلك فيها وكانت من خطب شيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب بدون زيادة الا ما جرت به العادة من الدعاء فى آخر الخطبة الثانية فجاءت برقية من الملك تأمر الشيخ عبد الرزاق بالتوجـه الى مكة ليكون واعظا فى المسجد الحرام كما كان من قبل ، أما أنا فكتب فى شأنى الى الملك عبد العزيز وأخبره أنى مشوش منفر قال ولم يكفه اطلاع الاخوان الذين يزورنه فى المدينة ، على ما يزعم أنه من تقصير الحكومة حتى سافر اليهم فى النخيل وجراهم على انتقاد ولاة الامر وكان سبب غضبه على أنه لم يكـن يريد أن أتصل بقبائل حرب لانهم كانوا يشتكون غلظته وشدته وظلمه فـى أخذ الزكاة وغيرها من الاحكام فظن أننى ذهبت لاعرف ما ينتقد عليه وأكشفه ويعلم الله أنى كنت فى واد وهو فى واد وأن الوقت الذى قضيته عندهم كان كله فى ذكر الله ومجالس العلم والوعظ والارشاد ولم أر مدة اقامتى عندهم منكرا حتى تمنيت أننى أبقى عندهم فى ذلك الجو الربانى الصافى من كل الاكدار ولم أفكر قط فى التدخل فى شؤون الامير ولما كتب بذلك الى الملك عبد العزيز رحمه الله أنتظر أن تأتينى برقيـة تدعونى الى مكة كما وقع لرفيقى فلم يأتنى شىء فأمر وكيل الماليـة الشيخ عبد العزيز الخريجى أن لا يدفع لى راتبا وحان وقت الحج فمر بنا الشيخ محمد بن عبد اللطيف رحمـة الله عليه فسافرت معه الى مكة وطلبت النقل الى التدريس فى المسجد الحرام فأجابنى الى ذلك الشيخ عبد الله بن حسن وطيب خاطرى بكلام حسن أسأل الله أن يجزيه عنى خيرا فى دار القرار وكان ذلك آخر العهد بالمدينة الى أن ردنى الله اليها بدعوة من صاحب السماحة العالم الصالح الورع الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز قبل ثلاث سنين زاده الله من فضله وأعلى درجته وجعله من الصديقيـن الاخيـــار .

« ذكر ما قلته من الشعر أيام اقامتى الاولى فى المدينة »

اللامية

أصبح قول الحق فى طيبة ... مثل يتيم ماله كافل
أنصاره مستضعفون على ... قلتهم وضدهم صائل
من يأمرن بالعرف أو ينه عن ... نكر يغله منهم غائل
يكيده زعيمهم مثل ما ... يكيده السوقة والسافل
وذنبه عندهم جل أن ... يشمله من عفوهم شامل
اذ كل ذنب عندهم دون ذنـ ... ـب من يغار ان بدأ باطل
ويرمقونه بأبصارهم ... شزرا وفيها حقدهم جائل
وان رأى شركا وأنكره ... بالقول فهو الظالم العائل
قد عكسوا حكم اله الورى ... في الشرك بئس الفعل والفاعل
الله يغفر الذنوب معا ... وهو لكل تائب قابل
الا الذى قد جاء بالشرك فهـ ... ـو آيس من عفوه عاطل
لانه أكبر ذنب وأد ... هى منكر يعمله العامل
انكاره التوحيد حتما فمن ... أقره فدينه باطل
وينصر الشرك على علمه ... بسوء عقبى من له مائل
ان جاءه مستنصرا صالح ... شاك له لنصره آمل
قد غره بزعمه أنه ... محقق دين الهدى كامل
يكن كمن قد استجار بعمـ ... ـرو فأتاه حتفه العاجل
يأمر بالرفق وباللين فى ... حق الاله صفحه شامل
ومن يرم من حقه ذرة ... فهو عليه ضيغم صائل
لاسامع عدلا ولا راحم ... ضعفا ولا شكاته قابل
يسلب من يأمر بالعرف حقا ... قد حباه المالك العادل
ويستبد بالامور معا ... حتى القضا فهو به داخل
ان وافق الحكم هواه مضى ... أولا يحل من دونه حائل

« قصة ابن منصور »

ويح ابن منصور غداة أتاه ... وهو لانتصاره آمل
الرافضى خصمه طالب ... تعزيره بكيده عامل

الرافضي قال يا سيدي ... انك أنت الحاكم الفاضل
كنت أسير في طريق قبا ... وشرب تتن شغلي الشاغل
فجاءني هذا بظلم فقا ... ل ألق هذا التتن يا جاهل
قلت له دع الفضول ورح ... مثلك ما أنابه حافل
تناول التتن وألقاه من ... يدي فبي من فعله خابل
وهذه يا سيدي قصتي ... فاحكم فان حكمك الفاصل
قال الامير لابن منصور هل ... وقع ما قد قال ذا القائل
قال نعم سلمك الله ما ... ذكره فكله حاصل
وقادني لك فقلت له ... تسعى الى حتفك يا سافل
واليوم ظني فيك أن تعلي الـ ... ـحق وأن ينخفض الباطل
ما كان من أمر الامير سوى ... ركوب عار ماله غاسل
الا بتوبة نصوح وحب ... الجاه سد دونها حائل
تناول العصى وأمعن في ... ضرب فتى عن الاذى غافل
وهو امام مسجد طالب ... لعلم حق وبه عامل

ضيم الحق

خدش وجه الحق في ذلك النـ ... ـهار حتى دمه سائل
ضرب الموحد لارضاء ذي الرفـ ... ـض بلاء غمه طائل
نهاه عن ذلك نصحا له ... يومئذ شقيقه الفاضل
قال له خف الاله فذا ... أمر عظيم شره هائل
ضربك من يأمر بعرف في ... طيبة لا يرضى به عاقل

فرح الفساق وحزن أهل الحق

يا فرحة الفساق يومئذ ... طرا بما ارتكبه العامل
وحزن أهل الحق أنهم ... من ذا المصاب كلهم ذاهل
وذا نموذج لافعاله ... وجلها عن الهدى مائل
تلون الحرباء في قوله ... وفعله لاحبذا الفاعل
فأين رفقه بلى أنه ... للمجرمين وحدهم شامل
لكن أهل الامر بالعرف لا ... ينالهم من رفقه نائل
رفق بذي شرك وذي بدعة ... وذو الرشاد ليس يستاهل

وحسبه من رفقه أنه بسوطه لرأسه صامل
كأن ذا المغرور يحسب أن الله عن أعماله غافل
باع الهدى بعرض عاجل وعن قريب كله زائل
من باع بالعاجل آجله يفوته العاجل والآجل
لم يعتبر ما قال خير الورى يا حبذا المقول والقائل
من يحدث الحدث في طيبة عليه لعن ربه نازل
ولعنة الاملاك والناس أجمعـ ـين قد صححه الناقل
مهما أتى بمنكر موبق يقل كذا أمرني العاهل
وان أتاه الامر منه باصـ ـلاح فما هو به عامل
معتذر بأنه قديرى الـ ـشاهد ما يجهله الراحل

تبرئة الامام

حاشا امام المسلمين فلا يرضى بما يفعل ذا الخاتل
قوام ليل خائف ربه فوق الذي يأمله الآمل
ذو ذلة على الالى آمنوا وعزة اذا اعتدى الجاهل
نور الهدى بوجه لائح ما هو مخسوف ولا آفل
من يره بديهة حبه بدر علاه مشرق كامل
سبحان من ألبسه حلة من فضله فهو بها رافل
من معجزات المصطفى أمره لانه بهديه عامل
يا أوحد الاملاك يا أول الـ ـسبعة يا من بره هاطل
عبد العزيز العلم الفرد من عز به دين الهدى الكامل
ابن سعود سعد الناس منذ بدا لهم فغمهم زائل
تشكو اليك طيبة أمرها فالدين فيها ما له كافل
أزكى سلام طيب كامل اليكم من ربنا واصل
يروى عن الرياض عن زهرها الى الرياض طيبه حامل

تمت

التائية

يحركني للشعر من بعد تركه سنين هموم أكثرت زفراتي
أرى كل يوم منكرات كثيرة يقطع نفسي رأيها حسرات

فناديت فـــى كـــل النوادى مؤذنـــا ... بنصح وكـــم رهبتهـــم بعظـــات
أيـــا قومنا هبوا من النوم أنكـــروا ... وغاروا على هتك لذى الحرمات
ألا غاضب للـــه يحمـــى حـــدوده ... ألا قائـــم بالحـــق حلف ثبات
الا بـــاذل لله نفسا كريمـــة ... وعرضا مصونـــا أصدق البذلات
يصيح يا هل الشرك والفسق صائلا ... كزأرة ضـــر غـــام على حمرات
ويدعو الى التوحيـــد بالصدق دعـــوة ... معـــززة محميـــة بظـــبـــات
يسل على أهل العقول لسانـــه ... كسيف صقيـــل صـــادق اللهجـــات
يشن على أهل البدائع غـــارة ... فيحصد مـــا أبـــدوا مـــن الشبهات
ويخطب فـــى التوحيد يبدى محاسنا ... تفيض لديهـــا العيـــن بالعبـــرات
يجيبه أهـــل العقـــل لبيك داعيـــا ... يخفـــون وحدانـــا لـــه وثبـــات
ومـــن قـــد أبـــى الا ضلالا فـــؤاده ... مصرا عـــلى الاشراك والبدعـــات
ويزرى على التوحيد اما مصرحا ... وامـــا بتعـــريـــض بمشتبهـــات
مكبا عـــلى نشـــر الضلالـــة موضعا ... الى الشرك يهوى الخبط فى الظلمات
فذلك حـــد السيف أشفـــى لدائـــه ... والا فســـوط مؤلـــم الضربـــات
والا فحبس فى السجون مخلدا ... والا فنفـــى مـــؤذن بشتـــات
والا فرفـــع للامـــام بسرعـــة ... يـــرى فيه رأيـــا صـــادق العزمـــات
والا فقد خنتم أمانـــة ربكـــم ... وخنتـــم لخير الخلـــق كـــل وصاة
وخنتم امام المسلمين بغشكـــم ... وقـــد أوجب الرحمـــن نصـــح ولاة
وخنتم عباد الله سرا وجهـــرة ... وكنتـــم لمـــا ترعـــون شـــر رعـــاة
فلا تحسبن الله يغفل عنكـــم ... تعالى عـــن الاهمـــال والغفـــلات
ألم تسمعوا ايعاده فى كتابـــه ... لمـــن لا يزيـــل النكر باللعنات
بلى قد سمعتم وعـــده ووعيـــده ... ولكنكـــم ساهـــون فـــى الغمـــرات
أغـــركـــم امهـــالـــه فطغيتـــم ... وصارت قلوب منكم صخـــرات
أفيقوا أفيقوا ويحكم قد هلكتم ... وان الـــذى قـــد توعدون لآت
ولا ياتكم عما قريب ترونهـــا ... سرابا ولا يبقى سوى الحسرات
أفيقوا أفيقوا ويحكم قد بليتم ... ولا يفتننكم زخرف الشهـــوات
فتوبوا الى الرب الغفور وأصلحوا ... وأوبوا لنهج الرشد قبـــل فوات
لعمرى لقد نبهت مـــن كـــان نائما ... وأيقظت من يصغى الى كلماتى
فيا عجبا مـــن ناصر لضلالـــة ... وخاذل دين الحق فعل غـــواة

ومن بائع راشدا بغى سفاهة   ولم يك ذا جهل بما هو آت

مخادع دين الله ساع لهضمه   بكيد عظيم محكم الشبهات

ألم يدر أن الله يعلم جهره   ويعلم ما يخفيه فى الخلوات

ألم يدر أن الله ناصر دينه   وقاذف أهل البغى فى الهلكات

ويلبس مسك الكبش سيد عملس   لتأمين أغنام وخدع رعاة

فكم خدع الراعى وعاث بضأنه   فيا ضيعة الخرفان والنعجات

ويا ضيعة الدين الذى صار لعبة   بأيدى طغام فى الشرور سعاة

وان هم دعوا للعرف أو نفى منكر   تولوا وحاصوا حيصة الحمرات

وصدوا عن الداعى وعدوه أحمقا   ثقيلا بليد الطبع غير مؤات

يخوض بأمر ليس يعنيه ساعيا   الى حتفه جهلا بغير حصاة

وقالوا له ذا ليس شأنك فانته   والا تلاقى عاجل النكبات

فما أنت والامر الذى لست أهله   هذا ذيك يا مسكين فز بنجاة

فنحن ولاة الامر فوقك حكمنا   ونحن اصطفينا لاعتلا الرتبات

وأنت لحمق فيك أبقيت مهملا   ولم تك أهلا لارتقا الدرجات

فدم فى خمول واستعد لمحنة   معجلة من أعظم المحنات

وقالوا تعالوا دبروا فى مكيدة   لنوقع ذا المجنون فى الهلكات

تعالوا فشوا عند الامام ونمقوا   له فرية من زخرف الكذبات

وقولوا له هذا شديد منفر   عديم سياسات عديم أناة

فكم فتنة قد شب فى الناس نارها   وكم ذا له من طائش الحركات

نخاف اتساع الخرق ان دم أمره   فأنزل عليه أعظم النقمات

ليزد جر الحمقى من الناس مثله   وتنتظم الاحكام منضبطات

لقد غفلوا عن قول أصدق قائل   لدى النمل تحذيرا لنا وعظات

فأخبر أن القوم جاؤوا بمكرهم   فقد جاءهم مكر من الله آت

ففى آل عمران والاعراف والنساء   كذلك آى غير مشتبهات

وهل تنفع الآيات الا أولى تقى   وأفئدة صينت من الكدرات

وأما القلوب المغفلات عن الهدى   فليست وان تحرص بمنتفعات

وما يستوى الاعمى وذو البصر الذى   يميز به البيضا من الحفرات

وما يستوى النور المبين والدجى   وما يستوى الاحيا وأهل ممات

فيا أيها القوم الذين تواطئوا — على نصر ضلال وكيد هداة
ألم تسمعوا لعن الرسول لمحدث — بطيبة يرويه أجل رواة
وأخبر أن الله يلعنه كذا الـ — ـملائك طرا أعظم اللعنات
ويلعنه الانسان مع كل لاعن — مدى الدهر فى الآصال والبكرات
ويشمل هذا اللعن من كان راضيا — بما قد أتى من سيء الفعلات
تحمل هذا اللعن من ضل سعيه — ليستمتع المغبون بالشهوات
فيا ويله ماذا تحمل من بلا — لحظ قليل معقب بفوات
ولو عاش فيها عمر نوح وضعفه — لما عد شيئا اذ يرى الهلكات
فعما قريب يقرع السن نادما — اذا ما صحا فى سكرة الغفلات
الى الله أشكو لا الى الناس أننى — أرى الدين فى نقص وفقد حماة
ويزداد فى الدنيا بمقدار نقصه — فيا لك رزءا محكم الحلقات
وليس لنا الا الى الله ملجأ — لما مسنا من فادح النكبات
وليس لنا الا الى الله مفزع — يفاجىء أهل الزيغ بالنقمات
فيا رب يا ألله يا سامع الدعا — ويا كاشف الضراء والكربات
أغثنا بنصر من لدنك مؤيد — لدين الهدى مخز لمن هو عات
فيخسر حزب المبطلين اذا بدا — ويفرح حزب الله ساعة ياتى
وبصر امام المسلمين بمكر من — غدا لابسا للحق بالشبهات
ووفقه للخيرات وانصر جنوده — على جند اشراك وكل بغات
ويا رب متعنا بطول حياته — وحفظا له من كيد كل عداة
وصل على خير الانام ومن مشى — على نهجه بالصدق خير صلاة
وذى نفثة المصدور فى وجه من بغى — ثمانون بيتا مثل نبل رماة

تمت

اليائية

خرجت بحمد الله للبدو داعيا — الى الله حسبى ناصرا وكفانيا
على جمل صعب بطيء مسيرة — وقر شديد فى الشتاء عرانيا
بأرض قفار لا أنيس بها سوى — أبى جعدة يعوى على الحزن عاليا
والا قليلا من أعيرا بها وهم — كمثل وحوش فى الفلاة رواعيا
تحملت فى ذاك المسير شدائدا — أريد به وجه الذى قد برانيا

تركت وثير الفرش مع لذة الغذا — وراحة جسم فى المقام بداريا
فو الله لا ما لا أريد به ولا — لرفعة جاه كنت اذ ذاك ساعيا
ولكن مقصودى هداية معشر — غدوا في قفار ما رأوا قط هاديا
تنقلت فى أحيائهم سبع عشرة (1) — أذكر فى أيامها والليالیا
وما منهم الا مطيع ومقبل — سوى بعض أعراب فما كان صاغيا
فلله أوقات مضت فى ديارهم — لقد كان فيها الدهر صفوا مؤاتيا
معمرة بالذكر والفكر فى الهدى — فلم يك فيها القلب كالآن لاهيا
بقول اله الحق طابت وبعده — بقول رسول الله يذكر قافيا
منزهة عن فحش قول ولغوه — لقد كان فيها القلب أبيض صافيا
ويزعم ذو البهت المبين بأننى — خرجت لافساد وما زال فاريا
ويزعم أنى قد ركنت لمن بغوا — فقبح ربى أينا كان باغيا
فيا ليته يأتى الى مباهلا — لدى باب بيت الله لله داعيا
فنجعل لعنات الاله جميعها — على أيناقد كان فى الشر ساعيا
ولابد يوما أن يهشم باطل — ويظهر حق كان من قبل خافيا
على الملك النقاد يطمع ذو الغبا — يروج مكذوبا من القول واهيا
ويأبى له العقل الرجيح ودينه — قبولا لبهتان الذى جاء واشيا
وانصافه عم النواحى وحلمه — وبذل الندى من أم نحوه جاءيا
لعبد العزيز الملك من آل فيصل — ثبات به فاق الجبال الرواسيا
ولكنه خف الى المجد والندى — وتلقاه يوم الروع عضبا يمانيا
لئن كنت قد بلغت عنى خيانة — لمبلغك الواشى أتى المين غاويا
فما الباطل المأفوك الا ضبابة — تزول ويبدو الحق أبلج صافيا
لتبحث امام المسلمين بعزمة — سعودية تجلى الامور كما هيا
وعندى من البرهان ما يهدم الذى — بناه العدا من زخرف القول واهيا
أصخ لى امام الخير واسمع أدلتى — فلازلت للمظلوم ملجأ وصاغيا
بعدل وانصاف أقامك ربنا — مليكا على هذى البلاد وراعيا
أوائله بالشام تلفى وحده — يمد الى أرض العراقين ضافيا
فلازلت شمسا فى اعتلاء ورفعة — تضىء على المولى وتفنى الاعاديا
ولازلت ذا شكر على النعم التى — حباك الاله الناس للخير هاديا
وصل الهى كل حين وساعة — على المصطفى المبعوث للخير داعيا

تمت

(١) اشارة الى الايام التى خرجت فيها الى البوادى ورافقنى الامير ماجد بن موقد رحمة الله عليه وكان أولئك البداة على دين الجهل والشرك واتيان الكهان وترك الصلاة فكانت الكاهنة تشد اليها الرحال ولا تتكهن لاحد الا اذا دفع لها جملا أو ناقة حلوانا وكان الامير ماجد رحمه الله شديدا عليهم لايبدؤهم بالسلام واذا نزلنا فى حى يأمرهم أن يأتوا بالشاة التى تعد لضيافتنا فيذبحها أحد رفقائنا لانه كان يعتبرهم مشركين لاتحل ذبائحهم وحدثنى ونحن بين ظهرانيهم فقال قد علمتنا التجارب التى شاهدناها بأعيننا أن النصر مقرون بالتوحيد والهزيمة مقرونة بالشرك فقد كنا نحن أنفسنا قبل أن يمن الله علينا بالهداية نستعد لقتال أهل التوحيد اخوان من أطاع الله بالآلاف والخيل والسلاح فيأتينا منهم ثلاثمائة أو أربعمائة فاذا رأيناهم قللتهم طمعنا فى استئصالهم حتى اذا رفعوا أصواتهم وقالوا لا اله الا الله وهجموا علينا تفرق جمعنا وانهزمنا لا نلوى على شىء ، ونسيت أيضا أن أقول فيما مضى أن أمير النخيل فى الوقت الحاضر المجمع على صلاحه وتقواه مشعان بن أخت ماجد كان فى ذلك الوقت يافعا وكان يقرأ على القرآن فى أوقات فراغه فكان الصلاح عليه ظاهرا فى تلك السن لانه كان لا يمل من حفظ القرآن كعادة الصبيان وهو الآن حى يشهد بصحة كل ما ذكرت وأن ما ادعاه أمير المدينة فى ذلك الزمان على كان اختلاقا .

« بيان قصة ابن منصور الواردة فى القصيدة اللامية »

هو محمد بن منصور امام قرية من القرى التابعة لامارة المدينة نسيت اسمها كان صالحا حريصا على الخير يحب فى الله ويبغض فى الله ويرضى لله وهو شاب من أهل نجد وقعت له مع الامير قضيتان الاولى هى التى ذكرت فى القصيدة كان ماشيا الى قبا فلقى رجلا من شيعة المدينة يشرب الدخان فأمره بالقائه فأبى فأخذه من يده وألقاه على الارض فأمسك به الشيعى وقال أخاصمك الى الامير فتعجب ابن منصور وقال أنت تخاصمنى الى الامير أو أنا أخاصمك اليه فأينا المذنب فقال الشيعى أنت المذنب الظالم فانطلق الى الامير وتبعه محمد بن منصور فلما وصلا الى الامير ذكر الشيعى ما وقع بينه وبين ابن منصور فقال ان ما قاله واقع وأنا اقتصرت فى تغيير المنكر على أدنى ما يجب وهو أخذ

لفافة الدخان من يده والقاؤها على الارض وهــو يستحق عقابــا أكثر من هذا فضــرب الاميــر ابن منصور ووبخه وقال له ما لك ولــه كــان يشــرب الدخان في الفضاء خارج البلد ومن جعلك رقيبا عليه هل أنت مــن جماعة الامــر بالمعروف ؟ فقال ابن منصور ان الامر بالمعروف واجب على كل مسلم عموما وخصوصا على الامراء فغضب عليه وضربه .

« القصــة الثانيــة وهــى أفضــع »

كان ابن منصور يــدق الابواب على أهــل القرية قبل الفجر يوقضهــم للصلاة فنهاه أهل القرية عن ذلك فلم ينته فضربوه وعلم أنــه اذا اشتكى الى الامير لا يأخذ له حقا ولا يدفع عنه ضيما فانتظر حتى جاء الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن رحمه الله من الرياض مــارا بالمدينة الى مكة فكتب شكوى وسلمها الى راجيا أن أبلغها الى الملك فأخذتها حتى وضعتها فى يد الملك فقرأها وسلمها الى الشيخ عبد الله بن حسن رحمه الله ليحكم فيها فدعا الشيخ الامير وسلمها له وقال له كيف يقع هذا فى امارتك فقال ما جاءنى ولا أخبرنى واظهــر تحمسا لنصره وقال للشيخ كن مطمئنا فانى سأعاقب أولئــك الانذال عقابا يردعهم فلما توجه الملك عبد العزيز ومعه الشيخ عبد الله بن حسن الى مكــة دعا الامير الذين ضربوه وأحضر ابن منصور وأوصى حاشيته أن يطلبوا منه العفو عنهم ويلحوا عليه فــى ذلك فوبخهم الامير وسبهم وهــم بضربهــم فقام أصحابه وقالــوا أيهــا الامير أصلحك الله مهلا لعلــه يصفح عنهــم فطلبــوا منــــه الصفح وألحو عليه وأظهر أهل القرية التوبة فعرف أنه مخذول وأن الامر بيت بليل فصفح عنهم ولم يحصل على طائل ، ولم أدرج هذه القصة فى القصيدة لانها وقعت بعد نظمها وفيما ذكرته فى القصائد الثلاث كفاية .

« التــدريس فــى المسجد الحــرام »

تقدم انى نقلت أنا ورفيقــى الــى التدريس في المسجــد الحــرام والتدريــــس فى المسجد الحرام امتحان عظيم للمدرس فبينما ترى مدرسا مشهورا بالعلــم والفضل قد جلس للتدريس فى المسجد الحرام فلم يحضر درسه الا قليل من الناس لا يكادون يتجاوزون عشرة ترى مدرسا آخر ربما يكون دونه فى الشهرة

أو فى العلم قد حضر درسه مئات من المستمعين وهذه الامور تسير طبقا لقسمة الله تعالى كما ترى أصحاب الدكاكين هذا يزدحم المشترون عليه ويتدافعون والى جانبه دكان يحتوى على مثل ما فى ذلك من البضائع أو أحسن وصاحبه عاطل لا يأتيه أحد وكنت ولله الحمد من القسم المحظوظ فكان يحضر درسى أمام باب ابراهيم مئات من الناس ولم أعرف لذلك سببا الا أنى كنت أتكلم بلغة يفهمها أهل الاقطار المختلفة من البلاد العربية وأولئك المدرسون الذين كانوا فى أزمة من قلة المستعمين كانوا يتكلمون بعاميتهم الخاصة .

« التدريس فى المعهد السعودى »

كانت مدارس الفلاح التى أسسها الشيخ عبد الله حمدوه منتشرة فى أنحاء مكة والتلاميذ يقبلون عليها كل الاقبال لان الشيخ عبد الله حمدوه كان مربيا عظيما ناجحا فى عمله وكان يدعونى كل سنة للاشتراك فى الامتحان مع أساتذة المدرسة العليا له وكان المعهد السعودى قد أسس قبل ذلك بمدة ولم يحصل عليه اقبال للدعاية السيئة الراسخة فى أذهان العامة أنه معهد وهابى يعلم تلامذته المذهب الوهابى حسبما يزعمه أعداء التوحيد ولم يكن ذلك هو السبب وحده بل كان هنالك سبب آخر وهو عدم كفاية المدرسين فاجتمع رجال الشورى للنظر فى رفع مستوى المعهد السعودى واتفق رأيهم برئاسة سمو الامير فيصل نائب الملك على أن يختاروا للمعهد معلمين أكفاء فوقع اختيارهم على مؤلف هذا الكتاب ورفيقه الشيخ محمد بن عبد الرزاق وأخيهم العالم السلفى الشيخ بهجت البيطار فانتعش بذلك المعهد وكثر طلابه وصارت له مكانة عند الناس وكان مدير المعهد أخانا ورفيقنا الشيخ ابراهيم الشورى وكان يبذل جهده فى رفع مستوى المعهد .

« السفر الى الهند »

أقمت فى الحجاز أكثر من ثلاث سنين وأنا لا أزال فى عنفوان الشباب ورأيت حتى فى ذلك الزمان أن العالم بلا شهادة كالمسافر بدون جواز سفر ليس له مكان فى المدارس العليا واذا ألف كتابا أو أنشأ مقالا فأول سؤال يسأله الناس هل عنده شهادة عالمية فيجيء الجواب لا هل يعرف لغة أجنبية

فيكـون الجـواب لا هل درس في أوروبـا فيكـون الجـواب لا فيقـال حينئـذ (سيبك منه) يعنى دعه ولا تلتفت اليه وتاقت نفسى الى الحصـول عـلى شهادة عالية وكنت متصلا بالمكاتبة مع عالمين جليلين أحدهما تقدم ذكره وهو السيد سليمان الندوى ، والآخر لم يتقدم ذكره وهو الشيخ أحمد السركتى فيأندونيسيا فلما علما بغرضى دعانى كل واحد منهما أن أكون مدرسا فى مدرسته وأملت أنى أستطيع أن أدرس دراسة عالية فى الهند أو فى أندونوسيا واحصل على شهادة استطيع بها أن أروج علمى وآخذ حقى وأغزو المدارس العليا بدعوتى فرجحت بقضاء وقدر من الله تعالى التوجه الى الهند كان ذلك فى أول سنة 1349 فعينت رئيسا لاساتذة الادب العربى فى كلية ندوة العلماء وبقيت فيها ثلاث سنين ونيفا أبذل كل جهد فى تعليم أدب اللغة العربية بأسلوب جديد لاعهد لعلماء الهند به وهو تعليم الادب العربى باللغة العربية من أول درس الى آخر درس بدون استعمال لغة أخرى وقد كتب المربى الجرمانى برلتس فى مقدمة كتبه فى تعليم اللغات الحية كلاما موزونا مفيدا جدا أقتبس منه قليلا قال يجب على كل معلم للغة أن يعلم تلك اللغة بنفسها من أول درس الى آخر درس ويمتنع من الترجمة امتناعا كليا فان تعلم لغة بلغة أخرى عقيم وفيه مفاسد أولهـا أن أكثر الوقت يمضى فى استعمال لغة غير مقصودة بالذات فيشتغل اللسان والفكر بشىء غير مقصود لذاته وذلك تضييع للوقت ، وثانيها أن المتعلم بتوسط لغة أخرى يضطر اذا أراد أن يكتب أو يتكلم الى التفكير باللغة المتوسطة ثم ينتقل منها الى اللغة المقصودة ولنضرب لذلك مثلا ، طالب عربى يريد أن يتعلم اللغة الانكليزية اذا علمناه اللغة الانكليزية بواسطة اللغة العربيـة وأراد أن يتكلم بالانكيزية أو يكتب مقالا لابد أن يفكر أولا بالعربية ثم ينتقل منها الى اللغـة الانكليزية فيجىء كلامه وانشاؤه ركيكين خاليين من الفصاحـة وحسن البيان ثالثها أن مدة تعليمه تطول لان اللغة المقصودة بالذات لاتنال من وقته الا القليل كما تقدم وضرب لذلك مثلا الاطفال الصغار كل طفل يتعلم لغة أمه بدون ترجمة مع ضعف ادراكه فى مدة قصيرة فينطق بها بغاية الفصاحة ولا يشعـر بأدنى تكلف وهذا هو الاسلوب الصحيح لتعلم اللغات وهو تكرر السماع على أذنى المتعلم يعقبه النطق الصحيح والكبير أحوج الى هذا الاسلوب وأكثر انتفاعا به لكمال ادراكه وكم رأينا من رجل غريب حل بأرض قوم وهو لايعرف من لغتهم

شيئا وفي بضع سنين صار فصيحا في لغتهم دون استعمال ترجمة، ومن نصائح العالم الجرماني برلتس لمن يريد أن يعلم الناس لغة أن يبدأ بالمرئيات فيأخذ الكتاب مثلا ويشير اليه وينطق بلفظ كتاب فيسمعه المتعلم فينطق مثله ويكرر ذلك حتى يرسخ اسم الكتاب في ذهنه ثم ينتقل الى القلم والقرطاس والمسطرة وهكذا دواليك أما في الافعال فيقوم المعلم وينطق بلفظ أقوم ويجلس وينطق بلفظ اجلس ويمشي وينطق بلفظ أمشي وهكذا الى أن يتعلم الطالب ما يكفي للسؤال والجواب فينتقل معه الى طريقة السؤال والجواب ، وهي أحسن الطرق في تعليم اللغات وقد شاع هذا الاسلوب في هذا الزمان. استعملت هذا الاسلوب ولقيت صعوبة في أول الامر لاني كنت أدرس كتب النهايات وبعد شهرين زالت الصعوبة وصار الطلبة يفهمون وكنت أعلم الانشاء والخطابة مرتين في الاسبوع في مقصورة واسعة معدة لالقاء الخطب ففي ثلاث سنين وبضعة أشهر تخرج في الادب العربي جماعة من الشباب أذكر منهم مسعود عالم الندوي وأبا الحسن علي الندوي وقد ذكرته من قبل ومحمد ناظم الندوي وأبا الليث شير محمد الندوي وهو رئيس الجماعة الاسلامية في الهند في الوقت الحاضر وصار هؤلاء وغيرهم كتابا ومؤلفين وخطباء ولم يعهد مثل ذلك في الهند ، وقد بين ذلك تلميذي الاستاذ أبو الحسن علي الندوي في مقالات نشرها ولم يكن راتبي يزيد على مائة روبية ولكنني كنت أحتسب عند الله من الاجر والثواب في العاجل والآجل ما يفوق القناطير المقنطرة من الذهب والفضة واغتبط بذلك رئيس الندوة السيد سليمان الندوي ونائبه وساعده الايمن الطبيب الماهر الدكتور عبد العلي واقترح على السيد سليمان أن أنشئ مجلة باللغة العربية ليتدرب فيها المتقدمون في العلم من الطلبة بكتابة المقالات فأنشأت مجلة «الضياء» وكان لها شأن عظيم لمدة من الزمن والآن تصدر في الندوة حفيدتها مجلة «البعث الاسلامي» وهي أشهر عند قراء اللغة العربية من نار على علم .

(محنة)

كل قاصد لامر عظيم لابد له من امتحان فاذا صبر ظفر وانتصر واذا جزع ومل خاب وانكسر ، كان للندوة رجال من مشاهير العلماء والاغنياء يدبرون شؤونها تحت رئاسة السيد سليمان الندوي واتفق أن أحد كبارهم ويسمى

الشيخ الشرواني لقيني وكان يريد أن أخضع له كما يفعل معه غيري من الشباب فلم أخضع له بل سلمت عليه سلاما عاديا فاغتاظ وقال لي لماذا تقص لحيتك مع أني كنت أترك منها قبضة اليد كما جاء عن عبد الله بن عمر فقلت له أقصها لانها لحيتي وليست لحيتك فقال لاتأخذ منها شيئا لان الطلبة يقتدون بك ، فقلت له أنا أستاذ الادب العربي وهناك أستاذ الفقه وأستاذ الحديث ولهما لحيتان طويلتان فكيف يتركون الاقتداء بهما ويقتدون بي فغضب وانصرف وكان ذلك من نزوات الشباب فعمل على اخراجي من الندوة فانتظر الى أن انعقد مجلس رجال الندوة (ولا أقول أعضاؤها لانه محدث) (محدث مقتبس من اللغات الاجنبية) فخطب فيهم الشيخ الشرواني وقال لهم هذا الاستاذ العربي لايعرف لغة أردو ولا يمكن أن يتمكن من تفهيم الطلبة مسائل العلم دون أن يشرحها لهم بلغتهم التي يفهمونها فرد عليه السيد سليمان الندوى والدكتور عبد العلي وبينا له شدة حاجة الطلبة الى سماع علوم الادب العربي باللغة العربية فوقع خلاف بين شيوخ الندوة وأخذت الآراء فانتصر الشرواني فجاءني السيد سليمان الندوى والدكتور عبد العلي متأسفين ومعتذرين وقالا لي لاشك عندنا أنك تريد بعملك في هذه المدرسة وجه الله تعالى بتعليم لغة القرآن وقد قدر الشيخ الشرواني أن يقنع أكثر الشيوخ برأيه الباطل لجهلهم بشؤون التعليم فيرجو من فضلك أن تمهلنا أربعة أشهر نجعل لك فيها سبعين روبية بنقص ثلاثين من الراتب وبعد أربعة أشهر نرجو أن نفهم شيوخ الندوة مقدار الفائدة التي يجنيها الطلبة من علمك فقبلت اقتراحهما ، وأسست مدرسة صغيرة في بيتي لتعليم التلاميذ الصغار اللغة العربية لابين خطأ رأى الشرواني الذى يزعم أن تعليم اللغة العربية بدون ترجمة لايمكن فاتفقت مع الدكتور عبد العلي ورجل من أشراف البلد كنا ندعوه منشى صاحب نسيت اسمه فاخترنا عشرة من التلاميذ من صبيان المحلة لايزيد عمر أحد منهم على أربع عشرة سنة وأخذت أعلمهم اللغة العربية بدون ترجمة طبعا وبعد أربعة أشهر دعونا الاساتذة ليمتحنوهم فامتحنوهم في الانشاء والاملاء والتحدث بالعربية والقراءة فوجدوهم قد تعلموا في أربعة أشهر ما لم يتعلمه غيرهم من الطلبة الكبار في خمس عشرة سنة بالترجمة فتعجب الحاضرون وازدادوا يقينا بصحة ما قلته لهم ثم انعقد مجلس الندوة وكان الرئيسان المذكوران قد عملا في تلك المدة على تفهيم شيوخ الندوة

واقناعهم بأن اللغة العربية لايمكن تعلمها تعلما ناجحا الا باستعمالها نفسها فأخذت الآراء فانهزم الشرواني ورجعت الى الندوة .

« مكرمة عربية »

لما علم السرى النبيل الشيخ مصطفى آل ابراهيم بهذه الحادثة بعث الى ألفا ومائتى روبية وقال لى انى سمعت أن أهل الندوة عزلوك فبعثت اليك هذه الدراهم وأنا مستعد لتلبيتك فى كل طلب ، وهذا المقدار الذى أهداه الى هذا الرجل الكريم يساوى راتبى فى الندوة لمدة سنة وكم له من مكارم ، وهذه مكرمة أخرى نسيت أن أذكرهافى موضعها ، لما أمضيت سنة فى الدورة اجتمع عندى من المال ما يكفى للتزوج والمعيشة استشرت العالم السلفى المحقق المتفنن فى علوم كثيرة الشيخ محمد بن أمين الشنقيطى نزيل الزبير بلدة قرب البصرة استشرته وطلبته أن يساعدنى على اختيار زوجة ولم أكن أعلم أن عنده بنتا بلغت سن الزواج فلما أخبرت بذلك خطبت اليه ابنته فقال لى رحمه الله أنا لا أجد لها أحد أفضل منك ولكن أمرها بيدأمها فأنا أكون واسطة بينكما فقلت انى مستعد لارضائها فلتطلب من المهر ما شاءت فطلبت مهرا عاليا فأجبتها الى طلبها وكان الشيخ مصطفى آل ابراهيم اذ ذاك فى الهند فلما سمع بعزمى على الزواج بعث كتابا الى وكيله الشيخ أحمد المشارى آل ابراهيم بارك الله فى حياته يقول له اجعل نفقات زواج الهلالى من السر كار فقال لى الشيخ أحمد ان مصطفى كتب الى بكذا وكذا فكم تحتاج اليه من النفقة فقلت لا أحتاج الى شىء فقال لابد من تنفيذ ما طلب منى فأصررت على أنى لا أريد شيئا فكتب لىكتابا الى الحاج أحمد الذكير بالبصرة يقول فيه أى مقدار طلبه منك حامل الكتاب فلان فأعطه اياه ورافقنى أحد عبيدهم وهو أبو مقبل فقال لى ان الشيخ أحمد كتب الى الذكير بكذا وكذا فكيف تمتنع من قبول هديتهم وأنت أستاذهم ونحن عبيدهم وخدامهم يزوجوننا من السر كار وأخذ يخاصمنى طول الطريق من الدورة الى البصرة ويقترح على أن أطلب من الحاج حمد على الاقل ألفى روبية وكان سعر الروبية فى ذلك الزمان ثلاث عشرة روبية بجنيه انكليزى فلما وصلنا الى الحاج حمد الذكير قال لى كم تريد فقلت ألفا وخمسمائة فلما علم ذلك الشيخ مصطفى بعث الى من الهند حوالة قدرها سبعمائة روبية فصار المجموع ألفين ومائتين

روبية فأسأل الله سبحانه أن يكرمه في الدنيا والآخـــرة والسبب في ذلك كلـــه حركة اعراب وهـــى فتحة قولـه تعالى : «حمالـة الحطب» لانها كانت سبب التعارف ثم صارت بيننا رابطة توحيد الله واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم .

« رحلـــة الى افغانستـــان »

وقعت في أفغانستان في ذلك الزمان حركة أمـان الله خان وأشيـع انـه أراد تغيير أحكام الاسلام من جنس ما فعله مصطفى كمال فى البلاد التركية فثار عليه الملك ناذر شاه وقضى على حركته واستولى على الملك فتاقت نفسى الى معرفة أحوال المسلمين في تلك البلاد فتوجهت الى سملة وهى عاصمة بلاد الهند الصيفية وحصلت على سمـة دخول الى أفغانستان من السفارة الافغانية ومدينة سملة مبان متفرقة فى سفح أحد جبال هملايا والتجول فيها لايمكـن الا بركـــوب الركشة وهى عربة فيها مقعد واحد يجرها رجلان من أمام ويدفعها رجلان من خلف لان الطرق جبلية ضيقة ولا يوجد فى ذلك الجبل عدا ذلك الا سكة الحديد وطريق واحد يمتد فى وسط المدينة يمكن أن تسير فيه السيارة وكان الشيخ اسماعيل الغزنوى رحمه الله كتب لى توصية الى امام المسجد وبعد مشقة وصلت الى المسجد فلم أجد الامام فأعطانى قيم المسجد غرفة مفروشة حين أخبرتـه أننى جئت الى الامام بوصية وكان الوقت بعد صلاة الظهر وكنت جائعا فخرجت من المسجد فرأيت بيتا كالدكان فيه رجل يطالع كتابا له لحية طويلة سوداء فتوسمت أن يكون مسلما فسلمت عليه فرد على أحسن رد وقلت له انى جائع أريد طعاما فدلنى على مطعم قريب فطوى كتابه وقام وسد الدكان وقال اتبعنى فصعد فى الجبل فى طريـق للمشاة ملتو يسمى فى جبال نمسا بالطريـق الحنشى لانه يشبه الحنش حتى وصلنا الى بيت فدخل وأذن لى فى الدخول ثم فتح مقصورة وأمرنى بالجلوس فجلست وغاب عنى قليلا وأنا أتعجـب لان هـذا المكان ليس بمطعم قطعا فجاءنى بطعام كثير فأكلت ثم جاء بالحلوى ثم قال لى هذا بيتى أرجو أن يكون هذا الطعام قد وافقك وكان كلامه كله بالعربية ثـــم سألنى من أنت فقلت له أنا محمد تقى الدين الهلالى أستاذ اللغة العربية بندوة العلماء فعانقنى وقبل رأسى وقال لى هذا يوم مبارك سعيد فنادى ابنه وهـو شاب فى سن العشرين وقال له ان الله أكرمنا فى هذا اليوم بكرامة عظيمـة

هذا الاستاذ محمد تقى الدين الهلالى مؤسس مجلة الضياء الذى نقرأ مقالاته ونحن فى شوق الى لقائه قد جاءنا وشرف بيتنا فعانقنى ابنه وبالغا كلاهما فى الترحيب من سوء الحظ نسيت اسم هذا الرجل وكنت أذكره الى وقت قريب ثم ذهبنا الى المسجد والتقينا بالامام الذى جئت بتوصية اليه فقرأها وتنافس الرجلان فى ضيافتى واكرامى فبقيت فى ضيافتهما ثلاثة أيام قضيت فى أثنائها الوطر الذى سافرت الى سملة من أجله وهو طلب سمة الدخول الى أفغانستان من السفارة الافغانية الا أن رجال السفارة مع اكرامهم لى اعتذروا لى بأن النظام المتبع يقتضى أن تبعث رسالة برقية الى وزارة الخارجية في كابل فاذا جاء الاذن منها يمكن اعطاء سمة الدخول قال لى أحد رجال السفارة أيمكنك أن تدفع ثمن البرقية فقلت نعم فقال لى سأحاول أن أجعلها رخيصة الثمن لان العادة تقضى بأن نكتبها باللغة الفارسية لكن بحروف انكليزية والقانون يقضى على مكتب البريد أن يعد كل خمسة عشر حرفا كلمة واحدة ولذلك سأجمع لهم فى كل كلمة عدة كلمات فشكرته على ذلك فلم يبطىء الجواب وجاء بالقبول فتوجهت من سملة الى لاهور ومنها الى بشاور وبقى على أمران أحدهما طلب الاذن بالدخول الى أفغانستان من السفارة الفرنسية وأقرب سفارة فرنسية الى بشاور هى بومباى والمسافة بين بشاور وبومباى خمس وثلاثون ساعة فى القطار ذهابا ومثلها ايابا وفي ذلك من النفقة والتعب ما لا يخفى وكان عندى جواز مغربى فرنسى آخر بلد مذكور فيه (فارس) وتسمى بالفرنسية (لا برس) وقواعد اللغة الاوروبية كالفرنسية والانكليزية والجرمانية والاسبانية تقضى فى المتعاطفات أن لا يذكر حرف العطف الا فى آخرها فاذا أرادوا مثلا أن يقولوا جاء زيد وعمرو وبكر وخالد يقولون جاء زيد عمرو بكر وخالد ومن تفطن الى لغة القردة من كتاب العرب ومذيعيهم يجدهم يستعملون هذه القاعدة فى اللغة العربية ففكرت للمرة الاولى والاخيرة فى التصرف فى جواز السفر بزيادة لفظة أفغانستان فجربت ألوانا من الحبر حتى وجدت حبرا مشابها للحبر الذى كتبت به أسماء البلدان المأذون فى دخولها فى جواز سفرى وكان جواز سفرى قد بلغ بكثرة الاضافاة خمسين صفحة يتحير فيه كل من رآه حتى أرشده أنا الى أريده فلما وجدت الحبر المناسب عمدت الى حرف العطف الذى قبل فارس فكشطته بسكين حادة ثم كتبت مثله وبعده كلمة أفغانستان وهذه

مخاطرة عظيمة ولاسيما في مدينة بشاور لانها آخر مدينة في حدود المستعمرة البريطانية العظمى التى كانت تسمى الهند الانكليزية وفيها من الشرطة السرية والعلنية ومراقبة المسافرين ما يوجد عادة فى البلاد التى على الحدود فلابد أن أدخل امتحانا عظيما حين أقدم جوازى لرجال الامن لانهم يفحصونه فحصا دقيقا واذا اطلعوا على التزوير يبالغون فى عقابى وكنت قد نزلت ضيفا مكرما عند الشيخ عبد العزيز الندوى البشاورى وكان من كبار التجار ومن العلماء فبقيت عنده أسبوعا ومن خصائص هذه المدينة ان أهلها لهم صهاريج كبيرة يملأونها ثلجا فى وقت الشتاء وفى وقت الصيف يأخذون منه كل يوم ما يبردون به مشروباتهم وأظن أنى رأيت مثل ذلك فى مدينة كركوك وأربل فى شمال العراق وكتب لى توصية لابن عمه فى كابل وهو تاجر كبير اسمه الهى بخش .

ثم دخلت الامتحان وهو تقديم جواز سفرى لرجال الامن ليرخصوا لى فى الخروج من الهند الى أفغانستان وكنت خائفا جدا أن يكتشفوا التزوير فأعماهم الله عنه ورخصوا لى فى الخروج من الهند وقبل أن أخرج من بشارو اخبر القارىء أن سكانها أفغانيون يتكلمون بأربع لغات لغتهم الخاصة ولغة أردو ولغة بشتو وهى الافغانية واللغة الفارسية وهى لغة حكومة أفغانستان الرسمية والعلمية ولغة بشاور قريبة من لغات بنجاب ويختلف الافغانيون عن أهل الهند ببياض ألوانهم وقوة أجسامهم وكثرة أكلهم بالنسبة الى أهل الهند . ركبت سيارة البريد وتوجهت الى كابل ولما وصلتها أخذت عربية الى بيت الهى بخش فوصلت الى بيته وناولته الكتاب فقال لى بلغة أردو بأى لغة تتكلم فقلت له بالعربية فقال لى بالعربية فقط فقلت نعم ثم قلت له ان العربية لغة القرآن ولغة الرسول صلى الله عليه وسلم فيجب على كل مسلم أن يتعلمها فقال (مشكل) وهذه الكلمة تستعمل فى لغة أردو بمعناها العربى ثم قال لى أدخل فدخلت وصعدت معه الدرج الى الطبقة الاولى بناء على اصطلاح الاوروبيين فانهم لا يعدون الطبقة الارضية فوجدت فيها مكتبة التجارى وغرفا أخرى فجاءنى بالشاى الاخضر لان أهل أفغانستان يشربون الشاى الاخضر كالمغاربة وجاء بالخبز فملأ كأسى وحلاها بالسكر فشربتها وأكلت معها شيئا من الخبز ثم صب لى الكأس الثانية الى نصفها ولم يملأها ولا وضع فيها سكرا فقلت له ضع فيها السكر

فقال لى انها الكأس الثانية فقلت له وهل الكأس الثانية تشرب مرة فقال نعم هذه عادتنا نحن لا نحلى الا الكأس الاولى وما زاد عليها نجعله الى النصف مرا فقلت وقل زبى زدنى علما ثم صعد بى الى الطبقة الثانية وأدخلنى غرفة مفتوحة للسطح وفيها فراش فقال لى اجلس هنا وأنا أرجع الى أشغالى التجارية وسأعود اليك بعد صلاة الظهر ، فأخرجت القرطاس والقلم وكتبت الى الشيخ عبد العزيز الندوى كتابا قلت له فيه ان ابن عمك الهى بخش لم يكرمنى ولم يتلقنى ببشاشة فبدل أن يرحب بى قال لى (مشكل) وسأنتقل من بيته الى (مسافر خانه) أى بيت المسافر وهو بمنزلة الفندق فى أقرب فرصة ووضعت الكتاب فى غلاف وكتبت عليه العنوان باللغة الانكليزية فلما جاء بعد صلاة الظهر رأى ذلك الكتاب موضوعا الى جانبى فقال لى من كتب هذا فقلت أنا فقال تعرف اللغة الانكليزية فقلت نعم فتهلل وجهه وظهرت عليه امارات الفرح وأخذ يتكلم معى بانكليزية فقال لى لما سألتك ماذا تعرف من اللغات قلت لا أعرف الا العربية فلماذا لم تخبرنى بأنك تعرف اللغة الانكليزية فقلت لم يخطر ببالى أنك تعرفها لان هيئتك بهذه اللحية الطويلة والثياب الافغانية لا تدل على ذلك فقال لى بلى أنا سافرت الى البلاد البريطانية مرارا لجلب البضائع واستمر على تلك البشاشة مدة اقامتى فى كابل وهى خمسون يوما وبلغ به الحرص على اكرامى الى أننا حين زرنا وزير الخارجية فضل محمد لنأخذ منه الاقامة ، دعانى الوزير الى أن أكون ضيفا على الحكومة الافغانية فجزع الاه بخش لذلك وقال له أنا خادم الحكومة وأنا أنوب عنها فأرجو ان تسمحوا ببقائه عندى فقال لا بأس ثم زرت العلماء وهم الشيخ سيف الرحمن الافغانى والشيخ منصور الهندى وشيخ الطريقة الشيخ المجددى والطريقة المجددية فى البلاد الافغانية هى أعظم الطرائق انتشارا وتليها الطريقة القادرية وأهل أفغانستان كلهم الا المتفرنجين متمسكون بطرائق المتصوفة وشيوخ الطرائق كثير عددهم كنت جالسا فى مكتب الهى بخش فجاء رجل يتبعه ستة نفر ويعظمونه غاية التعظيم فجلس وشرب الشاى ثم أعطاه الهى بخش شيئا من الدراهم وانصرف وتبعه عبيده فقال لى الشيخ الهى بخش أتدرى من هذا قلت لا قال هذا شيخ طريقة ومن هم أولئك النفر الذين يتبعونه فقال لى هم كل ما عنده من المريدين وقد فرض عليهم أن يخصصوا يوما فى الاسبوع لخدمته من الصبح الى المساء يطوفون معه على التجار

لجمع الصدقات فتعجبت من ذلك فقال لى لا تعجب فان هذا شيخ محظوظ لانه حصل على ستة مريدين وهناك شيوخ ليس لهم ولا مريد واحد وهم يبحثون عمن يكون مريد الهم فلا يجدون فيأتى أحدهم مثلا الى الرجل فيقول له أريد أن تجعل لى بعض أولادك يكون مريد الى فيقول كل أولادى يتبعون شيوخا آخرين فيقول أعطنى من سيولد لك فيقول قد وعدت بهم شيخا آخر فاذا ظفر برجل يعده بأنه اذا ولد له ولد يكون مريدا له ينتظره الى أن يولد ويكبر فيتخذه مريدا ، أما الطريقتان المجددية والقادرية فهما غنيتان عن مثل هذا العمل ورأيت الشيخ المجددى وأنا عنده يأتيه الشخص ويذكر له أن عنده مريضا فيأخذ عوذة من وعاء مملوء بالعوذ ويناولها اياه ويأخذ منه دريهمات وهذا الشيخ المجددى يعظمه جميع الناس ويقبلون يده حتى الملك نادر شاه وقد عرض عليه أن يكون وزيرا للعدل فامتنع من ذلك لانه يحط من قدره اذ يحتاج الى أن يقف مع الوزراء فى المحافل الرسمية ، ثم قبله على أن ينيب عنه صهره فى الاشتراك فى المحافل ولا يباشر هو بنفسه عمل الوزارة وقد رحب بى هؤلاء الشيوخ وفرحوا بمقدمى وأجمعوا على أنه لابد أن أنزل فى ضيافة الحكومة فكلموا وزير الخارجية فقال لهم لقد دعوته الى ذلك من قبل فلم يقبل أبو مثواه فحتموا على أن أنزل فى دار الضيافة فنزلت فيها وهى فى الفندق الفخم المسمى هوتيل دى كابل خارج المدينة ، ونزال هذا الفندق ما بين أوروبى وأمريكى وتركى أو متفرنج يتزيا بزيهم وبين الفندق ووسط المدينة نصف ساعة لراكب العربة فشق على أن أقيم فى ذلك الفندق للاسباب التى ذكرتها أضف الى ذلك أن أجرة اليوم الواحد فى ذلك الفندق ست عشرة روبية أفغانية وأنا أستطيع أن أعيش بروبية واحدة فى كل يوم فان الاطعمة والفواكه كثيرة ورخيصة فلماذا أتحمل تلك المنة فبقيت ثلاثة أيام ثم قلت لأولئك العلماء أنا جئت من الهند لزيارتكم والتحدث معكم وقد أبعدتمونى عنكم وصعبتم على لقاءكم بهذه الضيافة التى حتمتم على فقالوا لى نحن أردنا اكرامك فان كان الامر كذلك فاذهب الى وزير الخارجية واعتذر له بمثل ما ذكرت لنا ، وكان الوزير قد عين لى شهرا كاملا فى الضيافة فذهبت اليه فأعفانى من ذلك ورجعت الى بيت الهى بخش .

« الشيخ عمر أوزبك »

من فوائد هذه الرحلة أنى لقيت العالم الامير المجاهد الشيخ عمر أوزبك وهو عالم من خيرة علماء أوزبكستان من الاتراك المسلمين القاطنين بالاتحاد السوفييتي حارب الاستعمار الروسي اثنتى عشرة سنة كما أخبرنى هو بنفسه بذلك رحمة الله عليه وقص لى قصته وهى باختصار أنه لما وصل الزحف الشيوعي الى بلاده نادى في الناس بالجهاد فتبعه تلامذته وكثير من المؤمنين وخرجوا الى الجبال وأخذوا يغيرون على العدو المغير على بلادهم ليسلبهم أثمن شيء عندهم وهو الدين فمازالوا يحاربون مدة اثنتى عشرة سنة حتى قتل اكثرهم وضاقت عليهم المعشية ففروا الى الحدود الافغانية فقبض عليهم الافغانيون وكان مع الشيخ أهله وثلاثمائة من خيرة أنصاره ثم عرفت الدولة الافغانية فضل هذا الشيخ وعلمه وصلاحه فأطلقت سراحه وأعطته مبنى كبيرا سكن فيه وجعل بعضه مدرسة ومسجدا ففرحت كثيرا بلقاء هذا الشيخ لان نور الايمان كان يشرق على وجهه كما قال تعالى : «سيماهم فى وجوههم» .

« الكلام بالعربية »

كنت أزور هذا الشيخ مرة بعد مرة فجاءنى يوما رجل وقال لى ان زوجة الشيخ تسلم عليك وتقول انها علمت أن الشيخ قد فرح بقدومك وأجلك فهى ترجو أن تشفع لها ولاولادها عنده أن يتكلم معهم بلغتهم ولو ساعة فى كل يوم فقلت فى نفسى هذه معضلة ثم ذهبت اليه وشفعت عنده فقال لى ان الروسيين اجبرونا على تعلم لغتهم فتعلمناها وأتقناها ولو لا أنهم علموا أن تعلم لغة القوم يقرب المتعلم منهم لما أجبرونا على تعلم لغتهم فأنا لا أتكلم مع المسلمين الاقربين والابعدين الا بلغة القرآن والرسول صلى الله عليه وسلم فان شاءت هى وأولادها أن أتحدث معهم فليتعلموا لغة القرآن والرسول وأنا مستعد لتعليمهم اياها وكان هذا الشيخ الجليل يتقن ثلاث لغات التركية وهى لغته والفارسية والروسية ، كتابة وقراءة وتحدثا وتأليفا وكان رحمه لله صادقا فيما ذكر .

« زيـــارة الـمـلـــك »

في تلك الايام جيء بجنازة محمد عزيز خان أخي الملك ناذر شاه قتل في جرمانية وكان سفيرا لاخيه في برلين فوجهت أم الملك السابق آمانـــى الله خان طالبا أفغانيا لقتله انتقاما لابنها فقتله وكان وزير الخارجية فضـل محمد قد عرض علي مرتين زيارة الملك فدعوت للملك بخير وقلت لا حاجة لي عند الملك وانما جئت للقاء العلماء فان كان واجب الضيافة يقضي علي بزيارته فانا مستعد لها فلما جاءت جنازة أخيه رأى العالمان الجليلان الشيخ سيف الرحمن والشيخ منصور أنه لابد من زيارته وتعزيته فذهبت معهما وعزيناه فتلقانـا بما ينبغي للعلماء مـن الاجلال وجلسنا في مكان غير بعيد من مجلسه وكان المجلس يضم جميع الوزراء والاعيان وسفراء الدول كلهم فكانت الوفود من القبائل والمـدن تأتي لتعزيتـه فـلا يكاد الوفـد الواحـد يحصـل عـلى أكثـر مـن خمـس دقـائـق لكثـرة الوفـود وضيـق الـوقـت المحـدد وكـان كـل وفـد يقـدم أمامـه قـارىء القـرآن فيقـرأ آيـة واحـدة قصيـرة ثم يعزونه بالفارسية وينصرفون ليتقدم وفد آخر ولما تكلم الملك بالفارسيـــة فهمت تقريبا كل ما قال وفي السوق اذا سمعت كلام أصحاب الدكاكين لا أفهـــم ما يقولون الا قليلا وسبب ذلك أن المتكلمين باللغة الفارسية في تلـك البـلاد مختلفون فكلمـا ازداد أحدهم علوا في الثقافة والادب الفارسي يكثر من ادراج المفـردات والجمل العربية في كلامه فلا يبقى الا الضمائر وبعض الافعال التي تختم بها الجمل ، وبينما نحن كذلك جاء الشيخ عمر أوزبك ولم يصحبه أحد مع أن تلامذتـــه يعدون بالمئات كما تقدم وأظنه فعل ذلك تواضعا ووقف أمام الملك فتعوذ وبسمل بصوت عال وبدأ سورة طه حتى وصل الى قوله تعالى : (ان في ذلك لآيات لاولي النهى) وذلك ربع هذه السورة وكانت قراءته في غاية الترتيل ولم يجسر احد أن يقول له قد أطلت وأخذت أكثر من حقك من الوقت فاختتم ثم عـــزاه بالعربية الفصحى وانصرف .

« لماذا لم أحرص على زيارة الملك »

لم أحرص عليها لان القوم اعتادوا أن لايجيئهم أحد من العرب الا طامعا في رفدهم فتوكلت على الله وقلت في نفسي لاقيمن لهم البرهان على أن العرب ليسوا كلهم مستجدين لاسيما وقد علمت من أستاذ اللغة العربية وهو مصري

نسيت اسمه لسوء الحظ أنه في تلك السنة زار أفغانستان رجلان ممن ينتمون الى العلم والادب أحدهما عراقى والآخر شامى ولا أقول سورى لانه معرب سريانى كما أن سوريا معناها بلاد السريانيين والعرب لا تعرف بين العراق ومصر الا الشام كما قال شاعرها :

أزمان سلمى لا يرى مثلها الراؤون فى شام ولا فى عراق

وأشعارهم فى ذلك كثيرة . أما العراقى فحكى لى عنه أمورا قبيحة منها أنه عندما أراد التوجه الى أفغانستان ذهب الى سفيرها الاستاذ المجددى فى جدة فسأله توصية الى الحكومة لتضيفه وتكرمه فكتب له ما أراد فلما وصل لم يستقبله وزير الخارجية ولا رجال الضيافة بما كان يؤمل من الحفاوة وزاد فى الطين بلة وفى الطنبور غنة أنه طلب لقاء الملك فلم يروه أهلا لذلك الا أنهم أنزلوه في دار الضيافة ولما أراد السفر سألوه ما هى وجهتك فقال بغداد فقالوا بأى طريق فقال ايران فقدموا له من المال ما يكفى لنفقات سفره فى الدرجة الاولى وظن أن ذلك المال جائزة فاستصغرها وأطلق لسانه فى الفندق بسب الحكومة والطعن فيها فبلغ ذلك وزير الخارجية فدعاه وقال له بلغنا أنك تسبنا على رؤوس الاشهاد فما ذنبنا فقال أنا صحفى كبير مرتبط مع صحيفة واسعة الانتشار ولم تسهلوا لى لقاء الملك ثم أعطيتمونى جائزة حقيرة ، فقال له الوزير لولا أن الناس رأوك في ضيافتنا لامرت بسجنك ثم اخراجك من البلاد على حالة لاتسرك ولو علمنا أنك هكذا ما استقبلناك ولا أنزلناك فى دار الضيافة والنقود التى أعطيناك ليست جائزة كما توهمت ولا ثمنا لدعاية تعملها لنا فى الصحيفة التى تذكر أنك مراسلها فلا حاجة لنا بدعايتك ولكن من عادتنا أن كل ضيف ننزله فى دار ضيافتنا اذا أراد الرحيل قدمنا له زادا يوصله فى الدرجة الاولى الى البلد الذى جاء منه وقد سألتك عن وجهتك وطريق سفرك والى أين تسافر فأخبرتنى فقدمنا لك مقدار ما يكفى لسفرك فى الدرجة الاولى ، فقال عدلت عن السفر بطريق ايران وأريد أن أسافر بطريق البحر وهذا لايكفينى فقال له الوزير : فهلا جئتنى وأخبرتنى بذلك فأزيدك فى مقدار الدراهم دون أن تطلق لسان السوء فى فندق مشحون بالاجانب من أجناس مختلفة ، وخبرنى الاستاذ المصرى بأمر هو أخبث من ذلك فقال : قال لى ذلك العراقى هل تريد أن تسافر الى مصر بطريق العراق ؟ قال : فقلت نعم ، قال : فقال لى اذا وصلت

الى بغداد فزرنى فان لى أختا جميلة أقدمها لك لترافقك ، قال مؤلف هذا الكتاب ووجود هذا الرجل فى العراق لايضير العراقيين ولا ينقص من قدرهم فهم أهل الشجاعة والكرم والاباء وشرف النفس ولا يوجد فى الدنيا شعب كلهم خيار ، فهذا من الشذاذ وقد سجنه العراقيون سنين ونبذوه فهام على وجهه ، أما العالم الشامى فانه لم يفعل شيئ من مثل ذلك الا أنه جاءهم بقصد الاستجداء وقبل ما قدموه له من المال ولم يتعفف عنه ولذلك صممت ألا أقبل منهم شيئا .

« المرض بالحمى النافض »

كانت مدينة كابل فى ذلك الزمان وهو سنة 1352 هـ غير نظيفة ولا مبلطة الشوارع وكانت المياه القذرة تجرى فى وسط المدينة فى قنوات مكشوفة وتنبعث منها رائحة كريهة فبعد اقامتى فيها نحو شهر أصابتنى الحمى النافض التى تسمى فى هذا الزمان ملاريا وكنت فى دار الهى بخش ولا أستطيع أن أتفاهم مع خدامه وأخذنى الى طبيب متخرج فى لندن فأعطانى دواء فلم ينفعنى وكان يتردد على لطلب علم الادب العربى الشيخ محمد عمر الافغانى وكان قد درس فى بلاد الشام وتزوج بامرأة شامية وله منها ولد عمره اثنتا عشرة سنة وكان قد اقترح على أن أنتقل الى منزله ليخدمنى هو وأهله فأبى الهى بخش ، فلما مرضت وعجزت حتى عن تناول الماء للشرب استأذنت أبا مثواى فى الانتقال الى بيت محمد عمر فأذن لى فأقمت فى بيته مدة تقارب عشرين يوما وكان الهى بخش لا ينقطع عن زيارتى ومما قاله لى ذات يوم نحن ما رأينا من العرب أحدا عفيف النفس يحافظ على شرفه مثلك فقلت له ان فى العرب من أهل الفضل والشرف والعفاف الجم الغفير ولو أنك ذهبت الى بلادهم لرأيت اباءهم وكرمهم وعلو همتهم ولا يأتيكم هنا منهم الا قليل جدا من ذوى الحاجات ، وكانت الحمى تأتينى يوما وتتركنى يوما وفى اليوم الذى تأتينى فيه تبدأ قبل الزوال بساعة فلا يأتى وقت العصر الا وقد فقدت ادراكى وصرت أهذى هذيانا ، وكان محمد عمر وأهل بيته يعتنون بى أشد العناية بحيث لو كنت فى بيتى لما لقيت أكثر من ذلك فجزاهم الله خيرا وأكرمهم فى الدنيا والآخرة ، وكانت لغتهم هى العربية فلا أحتاج الى كلفة فيما أريد ولم تكن تفارقنى الحمى الا بعد منتصف الليل وكنت فى ذلك الزمان أعتقد أن جمع التقديم للمسافر لايجوز وانما يجوز

جمع التأخير فكنت أؤخر صلاة الظهر الى أول وقت العصر فلا يكون عندي من الادراك ما أضبط به الصلاة فكنت أشرع في الصلاة مضطجعا بالفكر وحده فتأخذني غمرة من الاغماء ثم أفيق ثم أشرع في الصلاة مرة أخرى ثم يأخذني الاغماء ثم أشرع فيها مرة ثالثة فلا أكاد أتمها الا في الثالثة أو الرابعة ولو كنت في ذلك الوقت آخذا بالرخصة كما آخذ بها الآن لصليت الظهر والعصر جمعا في أول وقت الظهر قبل أن يختل عقلي وكانت تلك الحمى تبلغ من الشدة الى حد أنني حين أبول أصيح من شدة حر البول فلم يمل محمد عمر ولم يكل .

« علاج غريب »

كنت في زمان الجهل أكتب للمحموم في قشرة لوز فروعون وفي أخرى قارون وفي أخرى همان كلهم في النار فآمر المحموم أن يتبخر بالقشرات الثلاث في كل يوم حين تجيئه الحمى فقلت في نفسي وقد ضعف عقلي وجسمي دعني أجرب هذا العلاج ثم قلت ليس عندي دليل شرعي على أن هذا يجوز ولكن غلبني الضعف وقلت لمحمد عمر ائتني بشيء من اللوز لاكتب على قشوره فلم يجد شيئا فقلت له اكتب على قطع من القرطاس بدل قشرة اللوز ما تقدم ذكره فكتب ذلك ولما جاءتني الحمى وبدأ غليانها يشتد تبخرت بتلك القطع فخفت عني الحمى الى حد أنني لم أفقد عقلي في ذلك وصليت الظهر والعصر جالسا وقلت لمحمد عمر ينبغي أن أرجع الى الهند فقال لي أنت ضعيف جدا لا تستطيع السفر فقلت له أطلب من مدير المدرسة رخصة ثلاثة أيام لتصحبني الى حدود الهند فان مت في الطريق فغسلني وصل على وادفني وان وصلت الى الحدود فارجع راشدا فطلب الاجازة وحصل عليها وفي ذلك اليوم جاءني الهي بخش فقلت له سلم لي على وزير الخارجية فضل محمد وقل له اني أشكره وأشكر جلالة الملك ورئيس الوزارة على اكرامهم وأستأذن في السفر فرجع الى في اليوم الثاني الذي لا تجيئني الحمى ووجد رجلين من المدينة النبوية عند محمد عمر فسألني عن الحال وبلغني سلام وزير الخارجية وأنه يدعو لي بالشفاء وناولني صحيفة مطبوعا عليها وزارة الخارجية وقال لي أكتب عليها بالانكليزية أنك تسلمت خمسمائة روبية أمر لك بها رئيس الوزراء على ما جرت به العادة من تقديم الزاد لكل ضيف ينزل في ضيافة الحكومة بقدر ما يوصله الى البلد الذي يقصده

وقد أخبرته أنك تريد الرجوع الى لكناو وهذا المقدار هو أجرة السفر الى لكناو في الدرجة الاولى ، فكتبت على تلك الصحيفة بالانكليزية انى أشكر جلالة الملك ومعالى رئيس الوزراء ، ومعالى وزير الخارجية ، واعتذر عن قبول هذه الهدية لانى كما اخبرت
معالى الوزير فى البرقية قبل دخول أفغانستان وأخبرته مرارا مشافهة أن غرضى من زيارة أفغانستان زيارة العلماء والاطلاع على أحوال المسلمين ولا حاجة لى بذلك المال فقرأه الهى بخش وقال الحمد لله هذا الذى كتبت كنت أتوقعه وأخبرت الوزير به وأنا خائف أن أكون مخطئا فانى قلت له غالب ظنى أن محمدا تقى الدين الهلالى لا يقبل هذه الدراهم وقد صدق ظنى ففهم الرجلان المدنيان أننى رفضت قبول ذلك المال فلما انصرف الهى بخش أظهرا غضبهما وقالا لى يا شيخ ايش سويت ما تخاف الله نحن جئنا من المدينة الى هنا وقطعنا بحورا وبرا ونحن محتاجان الى روبية واحدة وهذا مال حكومة فان كنت مستغنيا عنه فهلا قبلته وقدمته لنا ويكون لك عند الله أجر عظيم وأغلظا على في القول حتى اتهمانى بالنفاق فأنكر ذلك عليهما محمد عمر فقلت له دعهما فان الحاجة أنطقتهما بذلك وشرحت لهما قصة العراقى والشامى فأصرا على أن عملى كان خطأ فقلت لهما هذا هو اجتهادى .

« حال المسلمين فى أفغانستان فى ذلك الزمان »

كان أمان الله خان الملك السابق قد أجبر النساء على السفور ولبس الثياب التى لا تستر عورة المرأة وهى كلها عورة الا الوجه والكفين وأجبر الرجال حتى قاضى كابل وعمره ثمانون سنة أن يلبسوا الثياب الاوروبية الضيقة وكان يشجع الفتيات على حضور الحفلات شبه عاريات فلما انتصر عليه الملك نادر شاه رجعت النساء الى حجابهن ومنعن من الخروج الا لحاجة مع التستر التام ولكن كانوا غالين فى التمسك بفروع المذهب الحنفى فكانوا يؤخرون العصر الى قرب الاصفرار ولا يقبلون من مسلم أن يكون له مذهب غير حنفى حتى أننى لما كنت مسافرا من بشاور الى كابل وصل وقت الظهر ووقفت السيارة فنزلت وتوضأت وتوضأ بعض المسافرين وجاؤوا ليصلوا معى فلما رأونى رفعت يدى عندى الركوع قطعوا صلاتهم وصلى كل واحد وحده ومرة سافرت فى سيارة من لاهور الى بشاور فلما جاء وقت الصلاة توضيت وصليت معهم مأموما فلما رأونى أرفع يدى عند الركوع وعند الرفع منه وعند القيام من

التشهد الاول أخذوا يتكلمون مع الامام غضابا باللغة الافغانية وطال خصامهم معه حتى بعد ما ركبنا فى السيارة فلما انتهت الخصومة التفت الى وقـــال بالعربية أتعرف لماذا كان هؤلاء يخاصموننى قلت لا قال لانك رفعت يديك فى الصلاة ظنوا أنك من الفرق الضالة فبينت لهم أن الحق ليس منحصرا فـــى المذهب الحنفى وحده وأن أئمة أهل السنة كل واحد منهم روى عن النبى صلى الله عليه وسلم أحاديث صحت عنده فعمل بها وعمل بها أتباعه وكان ذلك الامام من جماعة مولاى الياس وهى جماعة مشهورة فى الهند عندها شئ من التصوف يطوف رجال هذه الجماعة فى جميع أرجاء الهند وفى أوروبا وأمريكا وفى افريقية وكانوا يزورون المغرب فى كل سنة يدعون الناس الى قول لا اله الا الله والمحافظة عـلى الصلاة وهم موجودون هنـا في المدينة أيضـا ومـن عادتهم أنهم لا يقبلون من أحد من أهل البلدان التى يزورونها شيئا لا مالا ولا طعاما الا اذا تحققوا أن من قدم لهم ذلك الطعام من أهل العلـم والصلاح واخلاص النية للـه وكان يخرج معهـــم بعض أصحابنا السلفيين الى القرى والبوادى للدعوة والذى أخذته عليهم هو الالتزام الشديد لفـروع الحنفية فـلا يكادون يعملون بالاحاديث الصحيحة اذا خالفت فروع الحنفية وهناك شئ آخر أقبح من ذلك وذلك أنهم يصلون فى المساجد المبنية على القبور التى اتخذت أوثانا تعبد من دون الله ولا ينكرون على عبادها وحضرت مجالسهم فى بشاور يجتمعون كل يوم جمعة بعد العصر في بيت أحدهم وما عندهـم لا رقـص ولا غنـاء ولا ذكـر مشتمل على بدعة يقرأ كل واحد منهم ما يتيسر من القرآن في المصحـــف ثـــم يترجمه لغة يفهمها الحاضرون أما لغة أردو أو الفارسية أو الانكليزية وقرأت أنـا ايضا نصيبـا من القـرآن وترجمتـه بالانكليزية وأنا لا أمنـع أصحابنـا مـــن مرافقتهم الا أننى أحذرهم من الصلاة فى المساجد المبنية على القبور وآمرهـــم بانكارالشرك والبدعة كلما رأوا شيئا من ذلك بقدر جهدهـم ولـم أر في أفغانستان منكرات ظاهرة كتبرج النساء وشرب الخمور ونسيت أن أقول أننى لما قطـع أولئك الافغانيون صلاتهم خلفى لمتهم على ذلك فقال لى رجل من الذين لـــم يصلوا لا تعبأ بهؤلاء فانهم لا صلاة لهم لانهم (سود خور) يعنى أكلة الربا .

« بـــوزد وزخ »

ذكرت فيما مضى أنى لم أر فى أفغانستان منكرات ظاهرة وذلك يدل على أنهم كانوا متمسكين بالدين على قدر مبلغهم من العلم ولكن كان هناك متفرنجون قليل عددهم عظيم كفرهم وكانوا مستائين من انتصار الملك ناذر شاه وقضائه على دعوة أمان الله خان التى تشبه الدعوة الكمالية ومن هؤلاء نائب وزير التعليم وكان الافغانيون يسمونه بـوز دوزخ ؛ ومعناه بالفارسية تيس جهنم أخبرنى الشيخ اسماعيل الغزنوى رحمة الله عليه أنه زاره فى مكتبه فرأى صورة لينين معلقة فوق رأسه فقال له كيف تعلق هذه الصورة وأنت تعلم أن صاحبها عدو للدين فأجابه بقوله انى أعبد هذا الرجل .

« عــودة الى السفــر »

خرجت مسافرا من كابل يرافقنى الصديق المخلص محمد عمر فى اليوم الذى لا تأتينى فيه الحمى على أنها بعد ذلك العلاج الغريب صارت لا تأتينى الا خفيفة جدا ركبنا في سيارة البريد وسارت بنا ساعة واحدة ، فأحسست بالجوع ولم أحس به منذ اصابتنى الحمى الا في تلك الساعة فقلت يا محمد عمر أنا جائع فقال هذه علامة خير أنا ما جئت بطعام لعلمى أنك لا تأكل وما عندى الا شيء من الخبز والمشمش والمشمش فى كابل مطعم بالخوخ كبير الحجم لذيذ الطعم والتطعيم هو أن يؤخذ غصن من شجرة فيحفر له فى ساق شجرة أخرى غار ويدخل بعض الغصن فى ذلك الغار ثم يسد فتتغير ثمرة الشجرة وتصير ممتزجة مع ثمرة الشجرة التى أخذ منها الغصن فيتألف منهما حجم جديد وطعم جديد فأخرج لى ما عنده من الخبز والمشمش فأكلته كله ولم أشبع ومررت على مطعم فيه قدور كبيرة مملوءة باللحم والمرق وخبز أفغانى كبير يكاد الرغيف منه يكون كخمرة المصلى أى الحصير الذى يصلى عليه فقلت لصاحب السيارة قف فانى جائع جدا فقال لى أمامك مطاعـم أفضل من هذا ثم تعطلت السيارة فلم نصل الى أول مطعم الا بعد مضى هزيع من الليل وكنت خائفا ان لا أجد طعاما ولكنى وجدته فأكلت شيئا كثيرا من اللحم والمرق والبطيخ ولم أجد خبزا ولم يضرنى شيء من ذلك ولا أصابتنى الحمى بعد ذلك فتعجبت من تأثير

ذلك العلاج العجيب ولم أستطع تعليله الى الآن وخطر ببالى أنه ربما يكون حر الجمر والدخان الذى كنت أتبخر به سببا فى زوال الحمى وقد خبرنى بعض الاطباء الاوروبيين الذين هم معجبون بطب العرب أن العرب كانوا يدا وون الشيء بجنسه لا بضده كما يفعل اليونانيون فيداوون الحرارة بحرارة من نوع آخر والبرودة ببرودة من نوع آخر وهكذا فان صح ما قاله هذا الطبيب فلعل حرارة النار اذهبت حرارة الحمى باذن الله والله أعلم . ولما وصلنا الى حاكم بلاد الحدود بين أفغانستان ومستعمرة الهند الانكليزية ويسمى هذا الحاكم سر حد دار ومعنى سر حد بالفارسية رأس الحد ودار تختم جزء كلمة تختم بها أسماء المحترفين فيقال للخازن خزنه دار أكرمنا حاكم الحدود وقدم لنا نوعا من البطيخ لينا يؤكل بالملعقة تقطع البطيخة نصفين وتغرز ملعقة فى وسط كل نصف ويقدم للضيف فى صحن فيأكل اللباب بالملعقة ويبقى القشر كأنه اناء مستدير وجاءت امرأة أو روبية وقدمت له جوازها فسألها بالفارسية فلم تفهم شيئا وتكلمت باللغة الفرنسية فلم يفهم أحد من الحاضرين ما قالت ثم تكلمت بالانكليزية فلم يفهم أحد شيئا فاستأذنت الحاكم في أن أترجم له كلامها ففرح بذلك ، فقالت له انها فرنسية وأنها مسافرة الى كابل لزيارة زوجة السفير الفرنسى فى كابل فقدم لها نصف بطيخة وفيها ملعقة مغروزة وكنا نحن قد فرغنا من أكل البطيخ فتحيرت وقالت لى كيف يمكن أكل البطيخ بالملعة فقلت لها هذا النوع لين جدا يمكن أن تدخلى فيه الملعقة وتأخذى ملئها ثم تملئها مرة أخرى حتى يبقى القشر كأنه اناء فارغ .

استدراك :

ذكرت شيئا وقع لى فى كابل نسيت أن أذكره فى محله جاءنى صاحب صحيفة اصلاح وسألنى أسئلة كثيرة تتعلق بحال المسلمين فى المغرب فأخبرته بجميع ما يرتكبه المستعبدون الفرنسيون فى المغرب من الفضائع من قتل وسجن ونفى وتعذيب واغتصاب أملاك وكان جواز سفرى قارب الانتهاء فعزمت على أن أرجع الى الهند قبل انتهاء مدته لاننى كنت لا أشك بأن السفارة الفرنسية فى كابل قد أطلعت على ذلك المقال وعلى مقال آخر نشرته فى مجلة أخرى نسيت اسمها فمنعنى الشيخان سيف الرحمن ومنصور فقلت لهما ان السفير الفرنسى لابد أن كون قد اطلع على المقالين فاذا أقمت هنا الى أن تنتهى مدة

الجواز وذهبت اليه ينتزع منى الجواز ويطردنى فقالا توكل على الله ولا تعجل بالرحيل وربما نأخذ لك جوازا أفغانيا وهذا من المستحيل ولكنهما شيخان من شيوخ علم الدين لا علم لهما بقوانين جواز السفر فبقيت الى أن انتهت مدة الجواز وتوجهت الى السفارة الفرنسية وأنا خائف أشد الخوف فلما قدمت جوازى للكاتب أخذ يسألنى عن المغرب وعن رحلتى الى هذه البلاد وقبل ذلك قال لى بأى لغة تتكلم فقلت بالعربية والانكليزية فقال لى ولا تعرف الفرنسية فقلت لا فدعا بترجمان يسمع كلامى بالعربية ثم يترجمه بالفارسية ثم يترجم بالفرنسية ثم قال لى تكلم بالعربية فتكلمت فقال لى أنا أفهم كل ما تقـــول ولا حاجة الى الترجمة وقد أقمت بالمغرب سنين وبالجزائـــر سنين فما رأيت أحدا يتكلم بالعربية بفصاحة مثلك وأخذ الجواز وجدده وقال لى ان ثمن التجديد خمس عشرة روبية وقد أعفيتك من دفعها اكراما لعلمك باللغة العربية ثم قال لى أين تعلمت الانكليزية فقلت فى الهند فقال لى كم سنة قضيت فى تعلمها فقلت سنتين فقال سنتين فقط وتقدر أن تتكلم بها فقلت نعم .

« عودة الى حدود الهند »

لما وصلنا الى حدود الهند ودعنى الشيخ محمد عمر راجعا الى كابل لانـــه وجد سيارة متوجهة اليها ولما رأى مفتش الاجوزة جوازى قال لى أنت ليست عندك سمة الدخـــول الى الهنـــد فأريته أن نائـــب القنصليـــة الفرنسيـــة في البصرة كتـــب في جوازى ما نصه (يجوز لحامله أن يدخل الهند كم شاء من المرات ما لم تنقض سنة من تاريخه) فأخـــرج لى كراسا مكتوبا بالآلة وقال لى اقرأ هنا فقرأت بالانكليزية ما معناه (كل قادم من أفغانستان يجب أن تكون عنده سمة دخول الى الهند اما من كابل واما من جلال آباد) وجلال آباد مدينة صغيرة على نحو الثلث من طريق كابل ثـــم قلت له راجع رؤساءك فى بشاور بالتليفون فقال لى ان القانون صريح فمراجعتى لهم تكون غباوة منى واياك أن تظن أننـــى أريد بـــك شرا هذا سرير للنوم وأنا مستعد لضيافتك الى أن تمر بنا سيارة متوجهة الى أفغانستان ، ففوضت أمرى الى الله وذهبت حقيبتى مع سيارة البريـــد التى كنت مسافـــرا فيها الى بشاور وقال لى تريد شايا أخضر أو أسود فقلت لا أريد شيئا فلم يمض الا وقت قليل حتى جاءت سيارة من الهند متوجهة

الى افغانستان فأمر سائقها أن يوصلنى الى سرحد فلما رجعت الى حاكم الحدود وأخبرته بما جرى تأسف وقال لى مرحبا بك بت هذه الليلة هنا وفى الصباح تسافر الى جلال آباد فان قضى غرضك فيها فذاك والا تتوجه الى كابل وأخبرنى أن تلك المرأة الفرنسية لما ذهبت أنا الى حدود الهند سألتهم بالاشارة عنى فأخبروها أنى مغربى فطلبت لقائى فلما بحثوا وجدوا السيارة قد سارت وكان الفرنسيون فى ذلك الوقت يحكمون المغرب الكبير أى معظمه من حدود تونس الى حدود سينيغال ويعطفون على المغاربة اذا رأوهم خارج المغرب كأنهم منهم أما في داخل المغرب فيذيقونهم العذاب الاليم فبت تلك الليلة عند الحاكم وفي الصباح توجهت الى جلال آباد فلقيت الكاتب المختص فلم يأذن لى بالدخول الا بعد مضى ساعتين ولما أذن لى وأخبرته بمرادى أخذ يقرأ جوازى ويسألنى عن كل شيء خفى عليه منه الى أن أتى عليه ثم قال لى لابد أن تسافر الى كابل واستغرق بحثه فى الجواز ساعة وكان من أخبث الكتاب وكان هند ياثم توجهت الى كابل وأقمت بها أربعة أيام حتى حصلت على سمة الدخول الى الهند من السفارة الانكليزية ورجعت الى بشاور ونزلت عند الشيخ عبد العزيز الندوى ثم عدت الى لكناو .

« ركــوب الـفـيـــل »

ترددت قليلا فى اثبات قصة ركوب الفيل لانها من الاستطراد الذى لا علاقة له بالدعوة ولا بطلب العلم فتخيلت أن بعض القراء الذين يحبون الاطلاع على كل شيء يقول لى أثبتها كما أثبت غيرها مما لا علاقة له بالموضوع ونهمة القراءة كنهمة الطعام فكما أن الطاعم لايصبر على طعام واحد فكذلك القارىء . كان فى الهند رجل من أهل العلم يتردد على حين كنت فى لكناو وقد أخبرنى أن أصله من العرب وأبوه راجا أى من رؤساء الاقطاع ودعانى مرارا لزيارة والده فأجبته الى ذلك وأخذت معى أخى محمد العربى ومحمد مظهر وكلاهما كان طالبا فى المعهد السعودى بمكة ثم انظم محمد مظهر الى تلامذة ندوة العلماء وهو مولود بمكة وأصله من الهند فبعث لنا ابن الرجا فيلا قد جعل على ظهره متكأ من الزرابى والوسائد وركبنا القطار من لكناو حتى وصلنا الى المحطة التى كان الفيل ينتظرنا فيها فأناخ الفيال الفيل ولم أكن أعلم قبل ذلك أن الفيل يناخ كما يناخ البعير وبعد ما أناخه لم ينقص من علوه الا

قليل لقصر قوائمه وضخامة بطنه فأعاننا الفيال حتى ارتقينا الى ظهره وجلسنا نتحدث ونطالع الكتب فركب الفيال على قفا الفيل وبيده عصى كعصى القدوم في رأسها حديدة يضرب بها الفيل على رأسه عند الحاجة فسار بنا الفيل سيرا سريعا وكان الفيال قاسيا على من يصادفه فى الطريق من الفلاحين الذين كانوا يسافرون من مكان الى مكان فى عربات تجرها الثيران فاذا أحس الثور بصوت الفيل ينفر ويخرج من الطريق وهو مرتفع فيقع في المزرعة ويسقط الفلاحون من عرباتهم المفتوحة وتسقط أمتعتهم فيضحك الفيال فرحمناهم ونهيناه عن ذلك ولما حان وقت صلاة الظهر قلنا له نريد أن نصلى فأناخ الفيل حتى نزلنا وصلينا ثم عدنا للركوب وللفياليين لغة تعرفها الافيال ولا يعرفها أحد غيرهم فوصلنا الى الراجا ووجدنا له قصرا تحيط به أراض واسعة يملكها كلها ويملك من فيها من الفلاحين فأقمنا عنده بضعة أيام وأكرمنا غاية الاكرام وأخبرنا أن جده جاء من عمان منذ زمان وأن أسلافه تركوا له هذه الثروة وهو يحن الى وطنه الاصلي الى بلاد العرب ، وعلى ذكر الفيلة أقول أن أمثال هذا الراجا فى الهند كثير وكلهم رؤساء اقطاع الواحد منهم يملك بضعة وعشرين فيلا علف الفيل الواحد منها يكفى للنفقة على اطعام خلق كثير من الناس وليس لهم غرض بهذه الفيلة الا التفاخر والتكاثر وكنت أشاهد مواكب الفيلة في مدينة لكناو اذا كان عند أحد الرؤساء الملقبين بهذا اللقب فرح كعرس أو خطبة يؤلف رعاياه موكبا من الفيلة وعلى ظهرها قباب من الحرير المذهب يجلس فيها أقارب الراجا من رجال ونساء ويطوف الموكب المدينة كلها وتكون القباب التى على ظهور الفيلة مساوية فى الارتفاع تقريبا لمن يجلس فى الطبقة الاولى من البيوت ، أقمنا عند الراجا العربى بضعة أيام كما تقدم ثم استأذناه في السفر فهيأ لنا الفيل وكان أخى محمد العربى مولعا بركوب الابل فسأله أن يعطيه ناقة يركبها بدل الفيل فأعطاه اياها ولما أخذ الفيل يسير بنا فى الطريق الى محطة سكة الحديد وبيننا وبينها ثلاث ساعات بسير الفيل أخذ يسير ببطء شديد فقلنا له أسرع كما كنت تسرع في المجيء حتى لايفوتنا القطار فقال لنا اننى سأسرع بكما كما أسرع بسيدى الراجا ولكن لا أضمن لكما أن تصلا الى المحطة قبل وصول القطار اليها واذا وصلنا متأخرين ووجدنا القطار قد فات يلزمكم أن تبيتوا فى القرية المتصلة بالمحطة ولا تجدون فيها طعاما ولا مأوى

وتمضون فيها يوما وليلة الى أن يجيء القطار من الغد ففهمنا مقصوده وهو أنه يريد البخشيش فأخذني العناد وقلت في نفسي سيده يدعونا ليكرمنا وهو عبد يتحكم في رقابنا ويغرمنا فقلت له اما أن تسرع كما فعلت في المجيء والا كتبت الى سيدك لينزل بك أشد العقاب يا غدر يالكع فأخذ يتكلم مع الفيل بلغة الفيالين ويضربه على رأسه بالحديدة ويقول له مجم مجم بفتح الميم والجيم وتشديد الميم أي أبطيء فلا يزيد الفيل الا ابطاء وتثاقلا فتعجبنا من ذلك وكنا قد سبقنا أخي محمد العربي بمسافة طويلة فلما تباطأ الفيل لحقنا فسمع الفيل رغاء الناقة فنفر وهرب بنا فأخذ الفيال يضربه بالحديدة ويقول مجم مجم فلم يطعه فقلنا الحمد لله انحلت المشكلة وأمرت أخي محمدا العربي أن يبقى دائما خلفنا بناقته ويضربها لترغى فبطل كيد الفيال وضحكنا عليه كثيرا فوصلنا المحطة قبل مجيء القطار بساعة وكان الفيال وثذيا فلما نزلنا وأراد أن يرجع جمع كفيه وألصق يديه بصدره اشارة لتحية الوداع وهي تحية معروفة عند الوثنيين وطلب البخشيش وهو ما يعطى من الاكرام للخدم فقلت له مجم مجم هذا هو البخشيش الذى نعطيك الذي أعطيتنا وهو مجم مجم فانصرف خائبا وهذه القرية التى فيها محطة سكة الحديد هي أحد أملاك الراجا .

« الحمى النافض »

اشتد على مرض الحمى حتى أصابتني في تسعة أشهر سبع مرات في كل مرة أبقى محموما من أسبوع الى أسبوعين ومن أجل من عرفته من الاطباء النطاسيين في مدينة لكناو الدكتور محمد نعيم الانصاري وقد نزلت عنده ضيفا مكرما مرارا قبل أن أستوطن لكناؤ في احداها أقمت عنده خمسة عشر يوما ليس لنا طعام الا العدس لان الحرب شبت نارها بين المسلمين والهنادك فتعطلت الاسواق ، وجعل أغنياء الهنادك لكل من يأتيهم من سفلتهم برأس شخص مسلم سواء أكان ذكرا أو أنثى صغيرا أو كبيرا قويا أو عاجزا مبصرا أو اعمى عشر روبيات وكان كاندى الزعيم الهندى طليقا غير مسجون وكان في امكانه أن يخمد تلك الحرب بكلمة واحدة فلم يفعل لانه كان من أكبر أعداء الاسلام والجاهلون بحالة من العرب يقدسونه كما يقدسه الوثنيون في الهند

ويسمونه المهاتما جهلا منهم والمهاتما معناه المقدس عند الوثنيين وكان عالي الثقافة شديد التعصب عظيم المكر والدهاء يتظاهر للمسلمين بالمسالمة والمحبة كالحية الرقطاء وقد زعم في صحيفته هريجان أن الله أوحى اليه أن طهر المنبوذين وألحقهم باخوانهم من الطبقات العليا قال في صحيفته فان سألتموني دليلا حسيا على أن الله أوحى الى بذلك أقول لكم ما عندي دليل ولكني لا أشك في هذا الوحي وهذا العمل منه يدل على أنه لم يكن مؤمنا بدين أسلافه البراهمة لان محو الطبقات وتوحيدها يهدم الدين البرهمي من أساسه لانه مبني على عقيدة تناسخ الارواح وذلك أن الارواح تأتي الى الدنيا في أجسام الاطفال عند ولادتهم فاذا كبر الطفل وعمل أعمالا مطابقة لما تريده الآلهة وكان في طبقة سافلة كالمنبوذين تنتقل روحه بعد موته وترجع الى الدنيا في مولود من طبقة أعلا منها فاذا عمل بما تريده الآلهة في هذه الطبقة الثانية يرجع الى الدنيا بعد موته في جسم مولود من الطبقة الثالثة ثم اذا عمل بما تريده الآلهة في الدور يرجع بعد موته الى الدنيا في جسم مولود من الطبقة العليا وهي طبقة البراهمة. أما اذا عمل بخلاف ذلك وكان في طبقة عالية غير طبقة البراهمة فانه يعود الى الدنيا في طبقة أسفل منها وان استمر على فعل السيئات في نظرهم لا يزال يسفل الى أن ترجع روحه في أجسام الحيوان ثم لا تزال تسفل حتى ترجع في أجسام الحشرات طبقا لقانون الجزاء وهو الثواب أو العقاب ، ولذلك قتله المتعصبون من أبناء جنسه غيرة منهم على دينهم وكنت مجاورا لاحد أتباعه من خاصته وكان طلبة العلم يأتون الى بيتي فنجتمع على ذكر الله فآذاني ذلك الجار حتى اضطرني الى الانتقال من شدة بغضه للمسلمين ، والآن بعد هذه الجولة أرجع الى علاج الحمى كان الدكتور محمد نعيم الانصاري اذا لم يكن مسافرا يفحصني ويكتب لي العلاج ويحدد لي يوما وليلة لزوال الحمى ، واذا كان مسافرا لا ينفعني علاج غيره وهذا سبب عزمي على الرجوع الى العراق وترك السكنى في الهند وكان ذلك في شعبان سنة 1352 هـ ولم أبق في العراق الا مدة يسيرة حتى سافرت الى أوروبا كما تقدم .

الدعوة الى الله فى مكناس

سافرت من العراق الى البلاد الجرمانية كما تقدم فى سنة 1959 بتاريخ النصارى ثم توجهت الى المغرب وجلت فيه جولة ثم نزلت عند عميد الدعوة السلفية فى المغرب أستاذى ومرشدى شيخ الاسلام محمد بن العربى العلوى فى بيته بمدينة فاس رحمة الله عليه وبقيت عنده الى أن تم نقل عملى من جامعة بغداد الى جامعة الرباط والفضل فى ذلك لله وحده ثم لنابغة المغرب العالم الاديب المتفنن ذى التآليف المفيدة والفضائل العديدة السيد عبد الله كنون أطال الله بقاءه وأدام فى المعالى ارتقاءه ولما استقررت فى مدينة فاس عزمت على استئناف العمل فى الدعوة الى اتباع الوحى عملا بقوله تعالى فى سورة الزخرف ، « فاستمسك بالذى أوحى اليك أنك على صراط مستقيم وأنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » ما أعظم هذه الآية وما أشد موت قلب من لا تحركه ولا تؤثر فيه فشاورت شيخنا المذكور فى ذلك فوجدته قد استولى عليه اليأس فقال لى دع هؤلاء الاموات فقد طبع الله على قلوبهم فقد تعبت فى دعوتهم وتعب قبلى رائد الدعوة السلفية العالم الكبير الشيخ شعيب الدكالى وكان بحرا زاخرا فى علم الكتاب والسنة وعلوم كثيرة فقلت له يا أستاذى انى دعوت الى الله فى أقطار مختلفة فنجحت دعوتى وبلغت فوق ما أملت وهؤلاء القوم بشر كأولئك الذين دعوت فدعنى أجرب فقال لى توكل على الله فبدأت دروس الدعوة فى مسجد المدرسة العنانية فى فاس فما مضى الا أسبوع واحد حتى غص المسجد بالمستمعين وبعد مدة حضر درسى رجل يرتدى بزة أو روبية فاخرة فلما فرغنا من الدروس وصلينا العشاء عرفنى بنفسه وأخبرنى أنه وزير الاوقاف وأثنى على درسى وقال لى أين تريد أن تذهب فقلت أنا نازل فى بيت أستاذى شيخ الاسلام محمد بن العربى العلوى فقال لى أنا آخذك بالسيارة الى هناك وذهبنا الى هناك فرحب به شيخنا وزاده تعريفا بى فقال لى اذا أتيت الرباط فأرجو أن تزورنى فى وزارة الاوقاف فزرته لما ذهبت الى الرباط لالقى دروسى فى الجامعة وبين فاس والرباط مائتان من الاميال المعروفة بكيلو متر وانما سكنت فى فاس مع بعدها من الجامعة خوفا من مرض الربو الذى يشتد

على بقرب البحر ويخف أو يزول اذا ابتعدت منه وقد علمتنى التجارب [illegible]
من أصيب بهذا المرض فى بلاد رطبة الهواء كشواطىء البحار فدواؤه أن [illegible]
الى الاراضى الجافة الهواء كالصحارى ، أما من أصيب به فى بلد يابس الهواء
فدواؤه شواطىء البحار فزرت الاستاذ السيد مكى بادو فرحب بى ودعانى
للطعام وأكرمنى غاية الاكرام ولما خرجت من عنده جاءنى أحد الموظفين وقال
لى ان السيد المكى يعلم أنك تلقى دروس الوعظ والارشاد لوجه الله لاتريد
عليها مكافأة ولكنه يحب أن تكون واعظا رسميا معينا من قبل وزارة الاوقاف
وقد جعل لك مائتى درهم فى كل شهر وهذا شىء حقير جدا بالنسبة الى مقامك
ودروسك القيمة ولكن نظام الوزارة لايسمح بأكثر من هذا فان رواتب الوعاظ
لاتزيد على مائة درهم فقبلت ذلك واستمررت فى دروسى ثمانية أشهر ثم انتقلت
الى مكناس باشارة من أستاذى لانها أقرب الى الرباط فبينهما مائة وأربعون
ميلا بنقص ستين ميلا هذا بعد ما جربت هواءها ووجدته مناسبا وشرعت ألقى
دروس الوعظ فى الجامع الكبير فأقبل الناس كذلك على درسى فى مكناس اقبالا
عظيما ولكن الجامدين من الفقهاء وأصحاب الطرائق شرقوا بتلك الدروس
وكذلك المتأكلون بالنسب ورأوا أنها أخذت تهدم ما بنوه من قصور الخرافات
على الرمال وتظهر للعامة جهلهم وانحرافهم عن الجادة فأجمعوا على أن يكيدوا لى
كيدا يقضى على وكان الذى تولى كبر ذلك رجلا له نفوذ ودالة على أمير مكناس
ونواحيها وكان هذا الامير من أبناء عمومة الملك محمد الخامس رحمة الله عليه
وبينهما مصاهرة فكان يفعل فى امارته ما يشاء ولعلو مكانته عند الملك
لايستطيع وزير ولا رئيس أن يعارضه فكتب ذلك الشخص ومعه أولئك الاعداء
كتابا الى وزارة الاوقاف يطلبون منعى من التدريس لامور ، منها : أننى بزعمهم
أنكر كرامات الاولياء وأنقض المذهب المالكى وعدوا أمورا سمعوها فى درسى
من انكار الشرك والبدع ، ووقع على هذا الكتاب خمسمائة شخص وكان وزير
الاوقاف فى ذلك الوقت كما هو الآن معالى الاستاذ الحاج احمد بركاش ومدير
شؤون الوعظ والارشاد هو العالم السلفى صاحب الفضيلة السيد محمد
الطنجى وهما يعلمان أن الساعى فى ذلك له نفوذ عظيم عند الامير لايرد له طلبا
ومع ذلك وفقهما الله سبحانه الى جواب حاسم كان شجا فى حلوق المبتدعين
ومضمنه : أنكم طلبتم عزل محمد تقى الدين الهلالى من دروس الوعظ ونقمتم

عليه مسائل نسبتموها له فنحن نأمركم أن تكتبوا أدلتكم على صحة ما ذهبتم اليه في تلك المسائل ونأمره أن يكتب أدلته على صحة ما ذهب اليه فيها ثم تؤلف لجنة برئاسة الاستاذ عبد الله كنون وتنظر في تلك المسائل وتحكم بالحق ، فسقط في أيديهم ولم يكتبوا شيئا وذهبت الى شيخ الاسلام محمد بن العربي العلوي رحمه الله وأخبرته بذلك ، فقال لي اذهب الى الامير وقل له ان أستاذي محمد بن العربي العلوي حثني على زيارتك وأخبرني أنك من أعز أصدقائه ولا تزده على ذلك شيئا ، وقبل أن أقوم بزيارة الامير اجتمعت بذلك الشخص الذي أثار تلك الفتنة فقال لي ان المخبرين بلغوني أنك تخوض في مسائل السياسة في دروس وعظك والخوض في السياسة لايجوز لاي واعظ فقلت له أنا لا أذكر في دروسي الا ما دل عليه الكتاب والسنة وقد ثابرت على القاء الدروس بهذه الطريقة في أقطار مختلفة منذ أربعين سنة وتصدى لمحاربتي رجال أقوى منك فلم يستطيعوا أن يصدوني عن هذه السبيل وليس بيني وبينك الا هذه الدريهمات وسأذهب الى الرباط وأتكلم مع معالي وزير الاوقاف فان كان ما نسبت اليه صحيحا نبذت لكم الدريهمات واستمررت على الدعوة الى الله الى أن تمنعوني بالعنف والقوة التي تدعون ، فدعا شخصا من الموظفين وقال : يا فلان تعال اسمع ما يقول ، فقلت له أنا لا أنكر كلامي فلا حاجة بك الى الاستشهاد ، وانصرفت من عنده ثم زرت الامير وأخبرته بما أمرني به أستاذي أن أقوله له فرحب بي وقال لي ان شؤون الاوقاف ليست بيدي هي بيد وزير الشؤون الاسلامية علال الفاسي أما ما سواها من الامور المدنية فكل ما تريده من الحاجات فأنا مستعد لقضائه ، فقلت له أطال الله بقاءك أنا ما جئت لحاجة تتعلق بالاوقاف ولا بغيرها وانما جئت لامتثال ما أمرني به أستاذي من زيارتكم ثم انصرفت من عنده وبقيت في مكناس تسع سنين في أثنائها هجم على أولئك المحاربون برئاسة الشخص المشار اليه مرارا وفي كل مرة يجمعون أمرهم ويجتهدون في كيدهم حتى يظنوا أنني لا أفلت فينجيني الله تعالى ويبطل كيدهم.

« المكيدة الثانية »

بني في المدينة الجديدة من مكناس مسجد جديد بأمر من الملك محمد الخامس رحمة الله عليه وهذا المسجد قريب من بيتي وعين فيه اماما وخطيبا

أحد اخواننا السلفيين مولاى هاشم العلوى ففرحنا بذلك وجعلنا نصلى فيه الجمعة وكنت أصلى فيه صلاة الصبح اماما ويحضر الصلاة بعض اخواننا ويحضر كذلك المبتدعون وكان المسجد بعيدا من بيت الامام فلم يكن يستطع أن يحضر لصلاة الصبح وكنت كذلك ألقى فيه درسا أسبوعيا بين العشاءين فكنت أصلى المغرب والعشاء اماما باذن منه ولو كان حاضرا واستمررنا على ذلك مدة سنة فاتفق ذلك الشخص الذى تسبب فى المكيدة الاولى مع فقيه منحرف على الكيد للامام السلفى ولجماعتنا السلفيين ومن عادة سكان المدن المغربية أن يصلوا الصبح على حساب المنجمين ولا يكلف أحد منهم نفسه أن ينظر الى الفجر أطلع ام لم يطلع فكانوا يصلون الصبح قبل طلوع الفجر الذى يرى بالبصر بنحو نصف ساعة فنهيت جماعتنا عن مشاركتهم في هذه الصلاة الباطلة فكنا نؤخر الصلاة الى أن يتحقق طلوع الفجر وكان المبتدعون يمتعضون لذلك ولكنهم لم يتجرؤا على الكلام حتى وقع الاتفاق بين الرئيس والفقيه فأوعز الفقيه الى اثنين من الجهال المتحمسين للبدعة أن يوقعا فتنة فى المسجد فجاءا ذات يوم بل ذات ليلة ولما وصل الوقت المعين لصلاة الصبح بحساب المنجمين قالا لشخص كان ينوب عن الامام فى حال غيبته قم صل قد وصل الوقت فلماذا ننتظر الهلالى وهو نائم فى بيته فامتنع اخواننا من الصلاة لاول وهلة ثم خافوا أن تقع مشاجرة فى المسجد فصلوامعهم فلما وصلت أنا وجدتهم قد فرغوا من الصلاة فأمرت اخوننا أن يعيدوا صلاتهم وصليت بهم وبمن حضر من غيرهم وكنت ألقى درسا بعد صلاة الصبح كل يوم فلمتهم على موافقتهم للمبتدعين وبينت بالادلة القاطعة أن من صلى أى صلاة قبل أن يتحقق دخول وقتها بالرؤية لطلوع الفجر وغروب الشمس ان لم يحجب طلوعها حاجب فان كان هناك حاجب من سحاب وضباب وجب الانتظار الى أن ينتشر الضوء والى أن يأتى ظلام الليل مساء ، اما صلاة الظهر والعصر والعشاء فى أوقات الغيم فيقدر لها بالتأخير الى أن يتحقق دخول الوقت وفى الغد حضر ذانك الشخصان الساعيان فى الفتنة فأرادا من نائب الامام والحاضرين تعجيل الصلاة فمنعهما أصحابنا فدعا ذلك الرئيس الامام السلفى وقال له لماذا تركت الصلاة فى مسجدك الذى أنت معين فيه وأذنت لمحمد تقى الدين الهلالى أن يصلى عوضا عنك فقال لان المسجد بعيد من بيتى وليس لى سيارة فاتخذ الرئيس ذلك سببا لعزله وهو المقصود باثارة تلك

الفتنة فعزله وولى ذلك الفقيه المنحرف واتفق أن امام المسجد الكبير توفى فى تلك الايام وكان مسالما لنا لا يظهر شيئا من الشرك بل نحن نظن أنه كان موحدا حقا وصدقا فولى شخص مبتدع معلن للشرك ولاء ذلك الرئيس الامامة فى المسجد الكبير فلما شرع الامامان أمام الجامع الكبير وأمام المسجد الجديد يؤمان الناس قام نفر لا يزيدون على خمسة من الشباب السلفيين فى وجه امام الجامع الكبير وقالوا له أنت مشرك لا تصح الصلاة خلفك وصلوا وحدهم جماعة ثانية وهو يؤم المصلين فى وقت واحد وفعلوا مثل ذلك فى المسجد الجديد فظن الرئيس أن هذه فرصة عظيمة للقضاء على دعوتنا وحرك رؤوس الفتنة من الفقهاء والطرقيين ومن غريب المصادفات أن عامل الاقليم كان قد ولى العمالة جديدا ولم يكن يعرف أحوال المدينة فذهب اليه خلق كثير بتحريض من ذلك الرئيس يؤمهم الفقهاء المنحرفون الطرقيون وقالوا له ان جماعة الهلالى أثاروا فتنة عظيمة فى المساجد وصار الناس يصلون جماعتين فى وقت واحد ووقع نزاع ومشاجرة فى كل مسجد بسبب هؤلاء مع أنهم وهابيون خارجون عن مذاهب أهل السنة فأخذ العامل التليفون وكلم معالى وزير الاوقاف الاستاذ الحاج أحمد برقاش بارك الله فيه وأدام توفيقه للخيرات فأخبره بشكوى المبتدعين فقال له نحن نعرف محمدا تقى الدين الهلالى فدع عنك هذه المسألة فسأتولى التحقيق فيها أنا بنفسى وكنت مسافرا فى فاس فلما رجعت علمت أن معالى الوزير فتح التليفون ليكلمنى فلم يجدنى فقال لمن كان ممسكا للتليفون قل له يتوجه الى الرباط للاجتماع بى فتوجهت اليه وكان عنده شىء من الشك فى صحة ما نسب أولئك المبتدعون لجماعتنا فأوعز الى نائبه فى الشؤون الدينية الاستاذ الفاضل السيد عبد الرحمن الدكالى أن يتحدث معى فى تلك القضية فقال لى الاستاذ الدكالى فى فاتحة الحديث ، سافرت الى الهند فما زرت جامعة ولا محفلا علميا الا وجدت الناس هناك يلهجون بالثناء عليك وكثير منهم أخبرونى أنهم تلامذتك ففرحت بذلك كثيرا ولما رجعت أخبرت سيدنا المنصور بالله يعنى جلالة الملك الحسن الثانى وأخبرت معالى الوزير ونحن نفتخر بك يضاف الى ذلك أن والدى العلامة الكبير الشيخ شعيبا الدكالى هو أول من دعا الى السلفية فى المغرب فأنا من المؤيدين لدعوتك المعجبين بها ولكن ينبغى الاعتدال وترك التشدد الذى يثير الفتن فقلت له ماذا تعنى بهذا فأخبرنى

بمكالمة العامل مع الوزير واخباره بما زعمه المبتدعون فقلت له ان ما ذكروه غير صحيح ، خمسة من تلامذة المدارس من الشباب عارضوا الامامين مرة واحدة ولما جاء اليوم الذى ألقى فيه الدرس فى الجامع الاعظم تكلمت فى درسى وبينت أن ما فعله أولئك النفر من الشباب خطأ عظيم واستنكرته أشد الاستنكار وصرحت بأن تولية الائمة هى لصاحب الجلالة لا ينازعه فيها أحد وقد أناب صاحب الجلالة الملك المعظم صاحب المعالى الاستاذ الحاج أحمد برقاش وزير عموم الاوقاف فالواجب على الناس جميعا أن لا يتعرضوا لامام من أئمة المساجد الرسميين ولا ينازعوه لان ذلك عصيان لامر صاحب الجلالة وتدخل في الشؤون المنوطة بمعالى وزير الاوقاف وليست تولية الائمة راجعة الى شهوة المصلين ولو كان الامر كذلك ما صحت تولية امام قط لان المصلين لا يكادون يتفقون على امام واحد وحين كنت أبين هذا كان الامام نفسه يسمع ومئات من الناس كانوا حاضرين وهؤلاء المبتدعون انما ظنوها فرصة مواتية فاغتنموها وأخبرنى رفيقى أن سعادة الكولونيل عبد الرحمن الدكالى لما سمع هذا البيان تهلل وجهه فذهب الى معالى الوزير وأنبأه بما قلت له فدعانى الوزير وعانقنى وقال لى معاذ الله أن نظن بك ما نسبوا اليك وتحدثنا مليا فى طبع كتاب التمهيد الذى أمر به صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثانى أجزل الله مثوبته وخلد فى الصالحين ذكره وأطال عمره ليضيف الى هذه الحسنة حسنات أخرى وبعد ما رجعت الى مكناس علمت أن معالى الوزير الاستاذ الحاج أحمد برقاش كلم العامل فى التليفون وأخبره بأنه أجرى تحقيقا دقيقا فى القضية فوجد ما قاله أولئك الوشاة كذبا وبهتانا وقال له أرجو من فضلك أن لا تتسرع مرة أخرى فى مثل هذه الامور فباء أعداء التوحيد والسنة بخيبة وخسران مبين .

« المكيدة الثالثة »

قبيل توجهى الى المدينة للانخراط فى سلك المدرسين فى الجامعة الاسلامية أراد رؤساء الشرك والبدعة أن يجعلوا خاتمة وعظى فى الجامع الكبير سيئة ليبنوا عليها ما تسول لهم أنفسهم من الفرى وكنت أدرس كتاب فتح المجيد شرح كتاب التوحيد لشيخ الاسلام محمد بن عبد الوهاب رحمة الله عليه ولم أترك تدريسه قط منذ حللت مكناس الى أن توجهت الى المدينة أختمه

ثم أبدؤه من جديد وبينما أنا أقرر تفسير قوله تعالى فى سورة الشعراء « وأزلفت الجنة للمتقين وبرزت الجحيم للغاوين وقيل لهم أين ما كنتم تعبدون من دون الله هل ينصرونكم أو ينتصرون فكبكبوا فيها هم والغاوون وجنود ابليس أجمعون ، قالوا وهم فيها يختصمون تالله ان كنا لفى ضلال مبين اذ نسويكم برب العالمين وما أضلنا الا المجرمون فما لنا من شافعين ولا صديق حميم فلو أن لنا كرة فنكون من المؤمنين » ، فبينت فى معنى قوله تعالى : « وما أضلنا الا المجرمون » أن كل من دعا الى عبادة القبور وتعظيمها ببناء القباب عليها والذبح والنذر لها والطواف بها وسؤال قضاء الحاجات وتفريج الكربات من المقبورين فيها وأقام لها المواسم والاعياد فهو من هؤلاء المجرمين الذين ذكرهم الله تعالى فقام رجل من دعاة الشرك والبدعة فرفع صوته وقال حتى صاحب الجلالة من المجرمين فبادرت بالجواب وقلت له أنت المجرم وصاحب الجلالة برىء مما تريد أن تلصقه به من عبادة القبور وهو أعلم بالله وأتقى وأجل من أن يعبد القبور فقد كذبت عليه وجاوزت الحد فى الوقاحة اذ تنسب هذا الامام العظيم ملك العلماء واعلم الملوك الى عبادة القبور التى لا يرضى بها الاشرار الجهال أمثالك فارتفعت أصوات من الجالسين وكان عددهم نحو سبعمائة أنت المجرم وأرادوا أن يضربوه فقام العالم المصلح السلفى الحكيم الحاج محمد بن عبود ونصح لهم أن لا يضربوه لانهم اذا ضربوه يمكنونه من مراده فى اثارة الفتنة وادعاء أن درس التوحيد يفضى الى المشاجرة والتقاتل فيجب منعه وأصاب هذا الناعق رعب شديد فأراد أن يخرج من المسجد فخاف أن يضرب خارجه ولم يستطع البقاء بين الجالسين لكثرة انكارهم عليه فما وجد سبيلا الا أن التجأ الى الصعود الى المنارة ومع هذه الهزيمة التىوقعت للمشركين طمعوا أن يتخذوها ذريعة لمنع دروس التوحيد واتفق أن الرؤساء من الحكام كانواغائبين عن مدينة مكناس لانهم ذهبوا ليستقبلوا جلالة الملك الحسن الثانى عند رجوعه الى عاصمة ملكه من زيارة الجزائر ولم يوجد الا نائب من نواب المتصرف فالتجأوا اليه وطلبوا منه أن يمنع دروس التوحيد فانتظر الى قرب أذان المغرب الذى بعده يكون الدرس فبعث الى شيخين من شيوخ الحارات راكبين على سيارة العمالة فدخلا علي وقالا لى ان سعادة العامل يعنون الامير يقول لك أترك التدريس فى الجامع الكبير الى أن ينظر فى القضية التى

حصلت البارحة وقال لنا قولوا له يجيبكم بنعم أو لا فقلت لهم أنا لا أعارض أمر العامل وامتنعت من التدريس في المساء ففرح المشركون فرحا عظيما وظنوا أنهم أدركوا وطرهم وقضوا على الموحدين المتبعين للرسول قضاء مبرما ولكن الله العلى العظيم الذى نصرنا فى المرة الاولى والثانية نصرنا فى هذه أيضا نصرا مؤزرا من فضله ورحمته لا باستحقاق لاننا مقصرون فى طاعته : بعد يوم واحد رجع العامل ورجع النائب الاول للمتصرف ومتصرف مكناس هو الحسيب النسيب صاحب السعادة مولاى سلامة بن زيدان العلوى وما رأينا منه الا البر والاكرام حاشا له أن ينضم الى من يحارب سنة جده المصطفى وعند ذلك ذهبت يصحبنى جماعة من اخواننا الى العامل فقلت له بعد التحية ان أحد نواب المتصرف بعث الى شيخين من شيوخ الحارات فى سيارة من سيارات العمالة يقول ان العامل يأمرك بالامتناع من القاء دروس التوحيد فى الجامع الكبير فقال لى أنا كنت مسافرا ولم يصدر منى أى شيء ممازعم وقد قدر هؤلاء المحاربون للسنة أن يكذبوا على ويوهمونى صدق مفترياتهم فيما مضى ولن يستطيعوا أن يروجوا على مكرهم مرة أخرى فأنا لا أتعرض لدروسك أبدا فاستمر فيها على بركة الله ، وقال النائب الاول لسعادة متصرف المدينة مثل ذلك وقد قام العالم السلفى السيد محمد بن عبد الله العلوى القاضى بجهود مشكورة فى ذلك اليوم أيضا ، فسقط فى أيدى أولئك المفسدين وانهزموا شر هزيمة ، فاستمررت فى الدرس كل مساء الى أن سافرت الى المدينة وقرت بذلك أعين أهل التوحيد والاتباع وخسر هنالك أهل الشرك والابتداع وقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

« المدرسة الحسنية »

لم يزل أولئك المفسدون ينقلون الوشايات الى جلالة الملك المعظم الحسن الثانى أيده الله وأدام توفيقه وتسديده فلم يستطيعوا أن يؤثروا فيه لحكمته وتثبته وبلغنى والعهدة على الراوى أنه حين أكثروا عليه حضر الدرس بنفسه متنكرا فعلم أن دروسى انما هى دعوة لاتباع الكتاب والسنة وتحذير من الشرك والبدعة اللذين هما سبب كل شقاء أصاب المسلمين فلم أر من هذا الملك الرشيد الا الخير وقبل بضع سنين ألهم الله جلالة الحسن الثانى أن يبنى

مكرمة طالما غفل عنها الملوك السابقون وهى من المزايا التى خصه الله بها والله يختص بفضله من يشاء ، ألا وهى تأسيس دار الحديث الحسنية ولما نشر خبر هذه الفكرة امتلأت قلوبنا سرورا لان علم الحديث أهمل منذ عصور طويلة الى أن اندرس ولم يبق له وجود لا من الوجهة العلمية ولا من الوجهة العملية وصار الوعاظ وخطباء الجمعات يملؤون حديثهم بالموضوعات ولا يميزون خبرا صحيحا من خبر ضعيف أو موضوع ومن المعلوم أن علم الحديث هو مفتاح علوم الدين كلها لانه لا تعرف معانى القرآن الذى هو حجة الله على خلقه الا بأقوال النبى صلى الله عليه وسلم وأفعاله كما قال تعالى فى سورة النحل ، (وأنزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ولعلهم يتفكرون) وخفنا أن لا تخرج هذه الفكرة الى حيز العمل ولكن أبا محمد الحسن الثانى أيده الله من أهل العزم الذين اذا قالوا فعلوا واذا فعلوا أجادوا فخرجت هذه الفكرة الى حيز العمل وأنشئت دار الحديث الحسنية ولم أدع الى التدريس فيها الا بعد مضى شهرين من انشائها بسبب وشاية أولئك الوشاة ثم دعانى وزير الاوقاف الاستاذ أحمد برقاش الى مكتبه بالوزارة وتلقانى بغاية الحفاوة وقال لى ان سيدنا المنصور بالله أسس هذه المدرسة واننا نرجو أن يكون لها مستقبل عظيم فينبغى أن تشارك فى هذا العمل المبرور فقلت له منذ ظهرت فكرة انشاء هذه الدار وقبل أن تحقق وتخرج الى حيز الوجود كنت أول المرحبين بها المستبشرين بظهورها ونشرت فى ذلك مقالا طويلا فى مجلة «دعوة الحق» التى تصدرها وزارتكم نظما ونثرا فقال لى لم أطلع عليه فقال له الاستاذ الحاج عبد الرحمن الدكالى بلى يا صاحب المعالى نشر هذا المقال فى المجلة منذ زمان فأعطانى معالى الوزير أهم الدروس التى تلقى فى دار الحديث وهو تفسير القرآن وكتاب الموطأ فى الحديث للامام مالك رحمه الله فبدأت فى القاء الدروس أحضر دروس القرآن والحديث ثم ألقيها على الطلبة وكان عددهم فى أول الامر ثلاثين طالبا ففرح الطلبة بتلك الدروس وأقبلوا عليها الا أربعة كانوا طرقيين تجانيين فانهم كرهوا دروسى وأخذوا يشاغبون ويكثرون من الاسئلة التعنتية وأنا أدفعهم بالتى هى أحسن وكان عندى أربعة دروس فى كل أسبوع فكنت أتوجه الى الرباط لالقاء دروسى فى جامعة محمد الخامس رحمه الله وأنتهى منها قبل الزوال وكان الوقت المحدد للدرسين اللذين كنت ألقيهما فى دار الحديث

الحسنية أحدهما قبل صلاة العصر والثانى بعدها وكنا فى رمضان فكنت ارجع الى مكناس بعد الفراغ من الدرس الثانى فيدركنى المغرب فى الطريق فأفطر على التمر والماء وكنت أتلقى تلك المشقة بصدر رحيب بل بفرح وسرور لما كنت أرجو من أجرها وثوابها وانتفاع الطلبة بها ولكن مشاغبة أولئك المفسدين كانت تسوءنى وخصوصا في رمضان الذى يجب فيه على كل مسلم أن لا ينطق الا بالكلم الطيب فقلت فى نفسى لعل شر هذه الدروس أكثر من خيرها وفى ذات يوم كنت أفسر قوله تعالى : « اياك نعبد واياك نستعين » ، فبينت أن كل من دعا غير الله أو استغاث به لجلب نفع أو دفع ضر فقد وقع فى الشرك الاكبر الذى لايغفر فضج التجانيون وقالوا كفرت أسلافنا فقلت ان كان أسلافكم يدعون الى الشرك بالله فأبعدهم الله وأخرجت أحدهم من الدروس ولم يكن معالى الوزير موجودا فى الرباط بل كان مسافرا وعميد الكلية كان متصوفا خرافيا يزعم أن الاولياء اذا وصلوا الى درجة الفناء تسقط عنهم التكاليف ويباح لهم ارتكاب الكبائر كلها فصممت على ترك التدريس وكتبت استقالتى الى معالى الوزير واعترف أن ذلك كان تسرعا منى وكان ينبغى لى أن أنتظر أوبته ولكن المقدر كائن وعذرى فى ذلك أنى أردت أن أصون صيامى من اللغو عملا بقول من قال :

اذا لم يكن فى السمع منى تصون ... وفى بصرى غض وفى منطقى صمت
فحظى اذا من صومى الجوع والظما ... وان قلت انى صمت يوما فما صمت

وقال آخر :

واعلم بأنك لا تكون تصومه ... حتى تكون تصومه وتصونه

فلما رجع معالى الوزير تأسف على ذلك وقبل استقالتى وكانت مدة تدريسى فى دار الحديث الحسنية شهرين ونصفا وهذه القصيدة التى قلتها فى الترحيب بفكرة دار الحديث الحسنية :

بدار حديث المصطفى حقت البشرى ... فأشرقت الآفاق وامتلأت بشرا
هى الفكرة الحسنى بها الحسن ارتقى ... الى ذروة الاحسان وهو بها أحرى
فلا شك أن الله ألهم عبده ... لذا العمل المحمود والنعمة الكبرى
وصية خير الخلق طرا وعهده ... الى أمة القرآن يا سعد من برا
على حين عم الجهل فى الناس كلهم ... ولا سيما بالذكر والسنة الغراء

وشاع ابتداع فاتك في ربوعهم فاظلمت الارجاء وامتلأت نكرا
وساد رؤوس الجهل واشتد كيدهم وقد أضمروا للامة المكر والغدرا
مضوا يسلبون المال والعقل والهدى ويستعبدون الناس بالحيل الحقرا
فأطلعها نورا يضيء حنادسا من الجهل ذاق الناس من طعمها المرا
وأحيا من الآمال ما كان ميتا فأصبح ثغر العلم والدين مفترا
ومن يحي سنات الرسول وهديه يهيء له الرحمن من أمره يسرا
ويعظم له أجرا ويرفع ذكره ويبلغه آمالا ويشرح له الصدرا
ومن رام من أعدائه أن يكيده ببغي فان الله يمنحه النصرا
ومن ينصر الرحمن ينصره عاجلا وينصره يوم الحشر في النشأة الاخرى
ومن يقرأ القرآن من غير سنة يضل ويلقى في عواقبه خسرا
فتفسير قول الله هدى رسوله وذلك في القرآن متضح يقرا
فيا أيها الملك الهمام الذي سرت بأخباره الركبان تنشرها نشرا
وما زال بالافعال يشفع قوله فتبنى له بين الورى المجد والفخرا
جزاك اله الناس خير جزائه على دار علم شدتها للهدى فجرا
اليك أسوق اليوم نظما ملفقا وكان بودي أن أنظمه درا
ولكن هجرت الشعر دهرا فأوصدت على قوافيه وكافأني هجرا
فقابله بالصفح الذي أنت أهله وأسدل عليه من جميل الرضى سترا

« الرجوع الى المدينة المنورة »

قد عرف القراء سبب خروجي من هذه المدينة المباركة فيما مضى ولما أراد الله بفضله ورحمته أن يردني اليها ، ألهم صاحب السماحة العالم السلفي ناصر السنة وقامع البدعة الورع الزاهد الاواب الاستاذ الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رئيس الجامعة الاسلامية أن يدعوني الى التدريس في الجامعة الاسلامية وعندما لقيته بمنى سنة 1388 هـ قال لي ان الجامعة الاسلامية في حاجة اليك فقلت له وأنا في حاجة اليها ايضا فقال لي بأي طريق ندعوك الى التدريس فيها فأخبرته فدعاني دعوة رسمية بطريق وزارة الخارجية السعودية فالسفارة السعودية بالمغرب فوزارة التعليم العالي بالرباط وأتيت الى هذا البلد المبارك وأنا أسأل الله متوسلا اليه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يجعل

اقامتى فيه طبق ما يجب على كل ساكن فيه من مراعاة حرمته والبعد عن ارتكاب أى حدث يتنافى مع قدسيته .

وهذه القصيدة المكناسية تعبر عما تقدم بالاسلوب الشعرى وقد حذفت عشرة من أبياتها ابقاء على بعض الناس على اننى لم أصرح فيها باسم أحد الا فى المحذوف ولا فى المثبت وبالله التوفيق :

لقد طال ليلى والجوى مالئ صدرى — وبرح بى شوق الى ربة الخدر
أقضى نهارى دائم الفكر والاسى — وليلى تسهاد الى مطلع الفجر
وأكتم أسرارى حذارا من العدى — ومهما أبح فالحب أفقدنى صبرى
تذكرت أيام الوصال فكاد من — تذكرها قلبى يطير من الصدر
فيا ويح قلبى ما يلاقى من الهوى — ومن فرط آلام الصبابة والهجر
وعاذلة جاءت بلوم كأنه — نعاب غراب للفؤاد غدا يبرى
ولست بسال لو أطلت ملامنى — فكفى عن الاسفاف والمنطق الهجر
وكيف سلوى بعد ما شاب مفرقى — وأنفقت فى حبى لها زهرة العمر
ألم تعلمى أن الملام وان غدا — عديما من الجدوى فبالحب قد يغرى
وطفت بلاد الله شرقا ومغربا — على قدمى طورا وطورا على مهر
وأنضيت بعرانا وحلقت فى السما — على جائبات الجو كالنجم اذ يسرى
وطورا على فلك عظيم كأنه — ثبير يروع الحوت فى لجة البحر
حليف اغتراب فى ثواء ورحلة — وان كنت فى أهل كثير ذوى وفر
(وما غربة الانسان من شقة النوى — ولكنها) فى الدين والخلق والبر
الى الله أشكو غربة الدين والهدى — وطغيان أهل الكفر والفسق والغدر
ومن يقل سنات الرسول فانه — يعذب فى الدنيا وفى فتنة القبر
ويسأله فيه نكير ومنكر — وما من جواب عنده غير لا أدرى
وذى سنة الجبار فى كل من غدا — يحارب دين الله فى السر والجهر
ألم تدر أن الله ناصر دينه — وموقع أهل البغى فى دارة الخسر
وكم قد سعى ساع لاطفاء نوره — يكيد فرد الله كيده فى النحر
وتنصر اشراكا وفسقا وبدعة — وناصر هذا خاسر أبد الدهر
دعا المصطفى قد ما عليه بلعنة — ومن يلعن المختار فهو الى شر
وتلعنه الاملاك من فوق سبعة — كذلك أهل الارض فى السهل والوعر

فيا ناطح الطود المتين بهامة ... مدورة جوفا حذار من الكسر
وليس يحيق المكر الا بأهله ... وحافر بئر الغدر يسقط فى البئر
وكم حافر لحدا ليدفن غيره ... على نفسه قد جر فى ذلك الحفر
وكم مشرك طاغ تردى بشركه ... وسادن قبر باء بالخزى والخسر
وكم رائش سهما ليصطاد غيره ... أصيب بذاك السهم فى ثغرة النحر
وقبرة أضحى لها الجو خاليا ... من النسر والعقبان والباز والصقر
فلا تفرحى يوما سيأتيك صائد ... ويسقيك كأس الحتف كالصاب والصبر
(فان كنت لا تدرى فتلك مصيبة ... وان كنت تدرى) زدت وزرا على وزر
وانك لم يفخر عليك كفاخر ... ضعيف ولم يغلبك كالساقط القدر
فيا عجبا حتى كليب تسبنى ... كأن أباها من لؤى ومن فهر
أتغتر بالامهال تحسب أنه ... عدمتك اهمال وذا ديدن الغمر
وما نحن الا خادمون لسنة ... أتت عن نبى الله ذى الفتح والنصر
وخادم سنات الرسول حياته ... كخادمها من بعد ما صار فى القبر
وما غاب الا شخصه عن عيوننا ... وأنواره تبقى الى الحشر والنشر
فيا مبغضى هدى النبى ألا ابشروا ... بخزى على خزى وقهر على قهر
سلكتم سبيلا قد قفاها امامكم ... أبو جهل المقصوم فى ملتقى بدر
وعاقبة المتبوع حتم لتابع ... كما لزم الاحراق للقابض الجمر
فان أنتم كذبتم بوعيده ... فكم كذبت من قبلكم أمم الكفر
فصب عليهم ربهم سوط نقمة ... فصاروا أحاديث المقيمين والسفر
(فيا رب هل الا بك النصر يرتجى ... عليهم) اليك الامر فى العسر واليسر
قلوا سنة المختار يبغون محوها ... وكادوا لها فاجعل لهم كيدهم يفرى
هم استضعفونا اليوم من أجل أننا ... قليل وقد يعلو القليل على الكثر
ولا سيما ان كان لله قائما ... وأعداؤه للبغى من جهلها تجرى
وادراك احدى الحسنين محقق ... لمن يقتدى بالمصطفى من ذوى الحجر
ومن ظن أن الله مخلف وعده ... وخاذل أنصار النبى بذا العصر
فذاك غليظ الطبع أرعن جاهل ... عريض القفا بين الورى مظلم الفكر
تكفل بالنصر العلى لحزبه ... حياتهم هذى وفي موقف الحشر
ففى غافر قد جاء ذلك واضحا ... ولكنه يخفى على الفدم والغمر

سلام على أنصار سنة أحمد فهم أولياء الله فى كل ما دهر
اليهم أجوب البر والبحر قاصدا فرؤيتهم تشفى السقيم من الضر
هم حفظوا الدين الحنيف وناضلوا عن الحق بالبرهان والبيض والسمر
هم خلفوا المختار فى نشر سنة بفعل وأقوال تلألأ كالدر
هم جردوا التوحيد من كل نزغة من الشرك والالحاد والزيغ والنكر
فلا قبة تبنى على قبر ميت ولم يعبدوا قبرا بذبح ولا نذر
ولا بطواف أو بتقبيل تربة فذلك فعل المشركين ذوى الكفر
ولا رحلوا يوما لغير ثلاثة مساجد خصت بالفضائل والاجر
ولم يستغيثوا فى الشدائد كلها بغير اله الناس ذى الخلق والامر
ولم يصفوا الرحمن الا بما أتى بنص كتاب الله والسنن الزهر
يمرون آيات الصفات جميعها كما فعل المختار مع صحبه الغر
فلو كان فى التأويل خير لبادروا به فهم الفرسان فى النظم والنثر
(أولئك آبائى فجئنى بمثلهم اذا ما) اجتمعنا فى المجالس للفخر
وقد أكمل الرحمن من قبل دينه فلم يبق من زيد لزيد ولا عمرو
بمائدة قد جاء بالنص ختمه واتمام انعام يجل عن الحصر
وكم زائد فى الدين أصبح ناقصا يبدل دين الله بالحدس والحزر
ومن ظن تقليد الائمة منجيا فأفتى بتقليد فيا له من غر
كمنتحل عذرا ليغفر ذنبه أضاف له جرما تجدد بالعذر
ألا انما التقليد جهل وظلمة وطالبه خلو من العلم والخبر
كطالب ورد بعد ما شفه الظما جرى خلف آل لاح فى مهمه قفر
فان قمت بالافتاء أو كنت قاضيا فاياك والتقليد فهو الذى يزرى
وجرد سيوفا من براهين قد سمت عن الحدس والتخمين والسخف والهتر
وطرفك سرح فى الكتاب فانه رياض حوت ما تشتهيه من الزهر
ومن بعده فاعلق بسنة أحمد فانوارها تسمو على الشمس والبدر
ولا تحكمن بالرأى الا ضرورة كما حلت الميتات أكلا لمضطر
ومهما بدا أن القضاء على خطا اقيم فبادر للرجوع على الفور
ومن يقض بالتقليد فهو على شفا كعشوا غدت فى كافر حالك تسرى
ومن يفت بالتقليد فهو قد افترى وفى النحل نص جاء فى غاية الزجر

لعمرك ما التقليد للجهل شافيا وأما نصوص الوحي فهي التي تبرى
وصل وسلم يا اله على النبي صلاة تدوم الدهر طيبة النشر
فدونكها بكرا عروبا خريدة مهفهفة غيدا عروسا من الشعر
يضيء ظلام الليل نور جمالها وليس لها الا القراءة من مهر
قصدت بها نصرا لسنة أحمد وناصرها لاشك يظفر بالنصر
وعدتها تسعون من بعد خمسة وأختمها بالحمد لله والشكر

هذا ما حضرني من الحوادث المتعلقة بالدعوة الى الله والاشتغال بالعلم أمليته مما بقي عالقا بذاكرتي بعد مضي عشرات السنين وتركت كثيرا من الحوادث التي لاتمت الى الغرض المقصود بصلة وأسأل الله حسن الخاتمة انه جوّاد كريم ، وصل اللهم على محمد سيد المرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين وعلى التابعين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين وعلينا معهم بمنك يا أكرم الاكرمين . وكان الفراغ من املائه مساء يوم السبت بمنزلي بالمدينة النبوية لاثنتي عشرة خلون من ربيع الثاني سنة 1391 من هجرة النبي الاكرم صلى الله عليه وسلم والحمد لله رب العالمين .

الفهرس

الصفحة	
الاقامة بالقاهرة	106
الصدق منجاة والكذب مهلكة ..	107
الدعوة الى الله في العراق	108
جامع الدهان	110
تطهير الجامع من البدع	111
هجوم مدير الاوقاف علينا	113
وقوف الاستاذ منير القاضي الى جانبنا	113
مكيدة أخرى	114
أخذ الاجرة على صلاة الجمعة ملاحقة الاستعمار لمؤلف الكتاب	115
الانقلاب	116
الدعوة الى الله في الدورة	120
مناظرة مع بن ها يابا الشنقيطي	124
مداهنته لمن يسميهم بالوهابية ..	125
ازالة بستان فاطمة	129
العشاء في قصر الملك حسين	131
ملك الحجاز الغير المتوج	131
عبد الرؤف الصبان	132
السفر الى الهند	133
حادثة عجيبة	134
التجول في الهند	136
السيد سليمان الندوي	140
لقاء الشيخ مصطفى آل ابراهيم ..	143
السفر الى العراق في الباخرة ..	145
الوصول الى الدورة	147
مناظرة مع مجتهد الشيعة في المحمرة	150
مناظرة مع شيعي آخر	158
شيخ متملق	160

الصفحة	
الدعوة الى الله في النخيل	162
الاختلاف مع الشيخ عبد الله بن بلهيد	164
الشيخ الطيب التنبكتي	166
الشيخ محمود شمويل	167
الخروج الى البادية	168
قصة ابن منصور	178
القصة الثانية وهي أفضع	179
التدريس في المسجد الحرام	179
التدريس في المعهد السعودي	180
السفر الى الهند	180
محنة	182
مكرمة عربية	184
رحلة الى افغنستان	185
الشيخ عمر أوزبك	190
الكلام بالعربية	190
زيارة الملك	191
لماذا لم احرص على زيارة الملك ..	191
المرض بالحمى النافض	193
علاج غريب	194
حال المسلمين في افغنستان	195
بوزدوزخ	197
عودة الى حدود الهند	199
ركوب الفيل	200
الدعوة الى الله في مكناس	404
المكيدة الثانية	206
المكيدة الثالثة	209
المدرسة الحسنية	211
الرجوع الى المدينة المنورة ..	214

صفحة	سطر	خطأ	صواب
5	1	اليه	اليها
5	4	صلى	صل
6	8	نضج	نضج
7	14	الحنفية	الحنيفية
9	23	مضمض	مضض
10	2	انكار	انكارا
10	5	فقلت لا :	فقلت : لا.
12	23	فكتب	فكتبت
13	14	الخراش	الخرشى
13	16	غير	عير
14	14	ارجع	أجئ
15	6	البلاد	البلد
16	18	المسألة	المسائل
20	20	أودر	أورد
21	17	حمارا	حمار
22	11	ويقنعك	ويقمعك
27	16	فسروا	وفسروا
30	13	بتواطئ	بتواطؤ
38	14	يواهم	يوهم
45	3	ثوبا	ثوابا
46	17	هاشم	هشام
48	8	حواشى	حواش
57	20	يؤنيه	يؤتيه
59	1	اعتقاد	أعتقادى
59	21	ابن	أبى
61	2	بالمرؤة	بالمروءة
62	1	تقبل	تقبلها
64	9	عن	على
66	3	يفحلو	يفلحو
70	6	ذمة	ذمه
73	19	يسمن	يسمى
80	3	وجدوده	وحدوه
82	7	فنرجوا	فنرجو
82	13	اسماءهن	أسماؤهن
83	10	رشورة	رشوة

صفحة	سطر	خطأ	صواب
87	10	القلفى	القاضى
87	24	من	منى
88	5	والامر	ويأمر
92	6	نسبا	نبسا
94	21	(حذفه)	ونجعلهم
95	16	الطبغ	الطبع
99	5	فضحكتم	فضحتكم
100	2	تعاقد	تساعد
100	4	فبكم	فيكم
102	13	سمه	سمة
102	26	(حذف)	وبخت به
109	1	ببحث	يبحث
109	18	واجهاد	والجهاد
115	10	مطياها	مطاياها
120	17	بيدء	بيده
121	6	الصفى	المصطفى
121	28	المختار	والمختار
122	14	فتقف	فلتقف
122	23	واستبعدو	واستعبدوا
122	23	استتباعهم	باستتباعهم
123	11	الهديا	الهدايا
124	8	الزما	الزمان
124	9	جاعو الى	جاءوا الى
126	10	تبعته	تبعثه
127	4	وأعرافه	وأعرفه
128	25	ان	أنه
130	5	تزييين	تزيين
130	23	عى	في
133	2	وقعب	وقعت
133	17	نتعلم	تتعلم
135	18	(حذف)	أنا لا
137	14	وعاضت	وعارضت
138	18	التابعية	التابعيه
142	28	الحنيفة	الحنفية
146	5	الوصول	للوصال

صواب	خطأ	سطر	صفحة
الخريدة	الخريد	7	146
تضمن	تظمن	21	146
فاستأجرت	فاستجرت	18	150
وأخذوا	وأحدوا	20	151
وتعظيما	وسعظيما	11	153
أول	أو	1	154
عند	عندى	2	154
شيىء	سيئا	24	155
آدى	ءادى	27	155
تعالى	تعال	2	156
ووجهه	ووجه	25	159
بلة	بله	22	163
محمد	محد	15	163
اياها	ايها	25	165
السلفية	السفلية	13	167
وثالثهم	وثالثم	2	168
اقترح	اقتترح	12	168
الباقون	البوقون	20	168
أردأ	أراد	1	169
ألاذى	الاذنى	13	172
أفلا	أقلا	15	173
بوجهه	بوجه	15	173
بهديه	يهديه	18	173
باهل	يأهل	5	174
ولايتيكم	ولاياتكم	25	174
ويحكم	ويحكجم	26	174
رشد	راشدأ	1	175
دام	دم	20	175
الرواسيا	الروسيا	18	177
أفظع	أفضع	6	179
أنا الى ما أريده	الى أريده	27	186
والقادرية	والقاردية	7	189
رحمه الله	رحمه لله	24	190
فرعون	فروعون	9	194
هامان	همان	10	194
عند	عندى	27	195
يتردد	يترد	21	200
أنضم	انظم	24	200
بحاله	بحالة	26	202